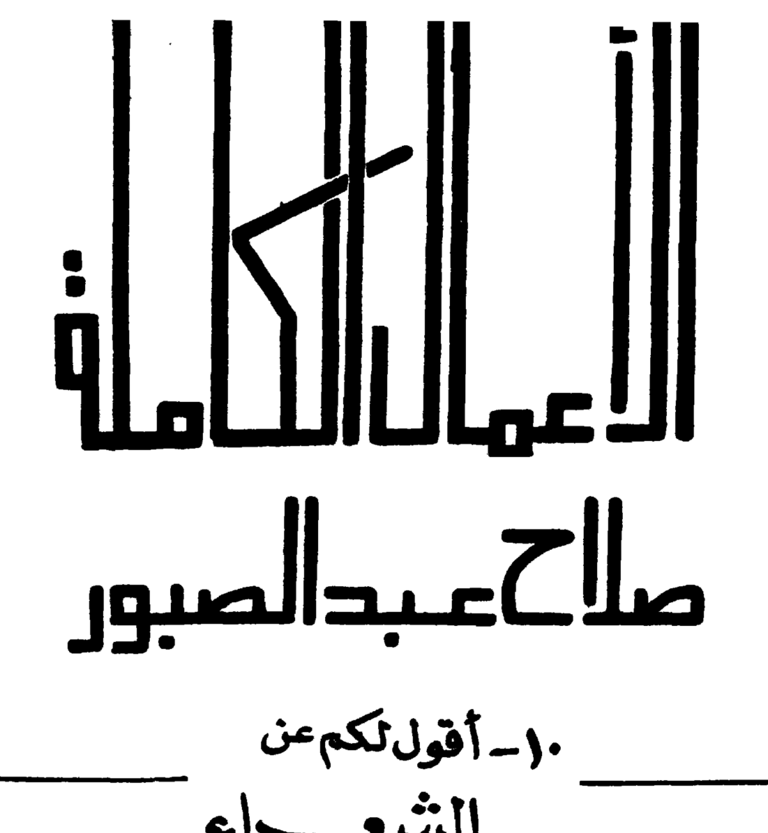

الأعمال الكاملة
صلاح عبد الصبور
١٠ - أقول لكم عن
الشعراء
Bibliotheca Alexandrina
0121412

١٠١ سؤال لكم عن الشعراء

إعداد
أحمد صليحة
محمود عبده
أسعد إسماعيل

الاخراج الفنى

راجيه حسين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

شـــكر

يتوجه المعدون بالشكر الى السادة الأستاذ الدكتور ماهر شفيق فريد والأستاذ وديع فلسطين والاســـتاذ شوقى هيكل والاستاذ سوريال عبد الملك وجمعية الصداقة المصرية الهندية لما بذلوه من عون صـــادق فى تزويد المعدين ببعض اعمال الأستاذ صلاح عبد الصبور التى نشرت فى دوريات غير مصرية

يتضمن هذا الجزء المقالات والدراسات المتصلة بالشعراء وقد رتبت تاريخنا حسب صدورها وهذا بيان بالدراســـات التى اعيد نشرها فى كتب مستقلة .

- شاعر عظيم قتله الفضاء - اصوات العصر
- كيف فهم شوقى الوطنية - اصوات العصر
- شاعر البحار الهادئة - حتى تقهر الموت
- لوركا شاعر الأندلس - مدينة العشق والحكمة
- ولقد ولدت بباب اسماعيلا - حتى تقهر الموت
- وهو شاعر ايضا - وتبقى الكلمة
- بوشكين - وتبقى الكلمة
- من المعلمة اللسوسية الى - وتبقى الكلمة
  أبى نواس الاسكندرانى
- المسرح والمرايا - رحلة على الورق
- على محمود طه الملاح التائه - مقدمة من ديوان على محمود طه

- كازانتزاكس ـ نبض الفكر
- شاعر وثلاث نساء ـ نبض الفكر
- شاعر الشمال عاش محى الدين وفاطمة ـ نبض الفكر
- تصفية حسابات اللورد وبايرون ـ نبض الفكر
- المنحنى الشخصى فى حياة ابى العلاء المعرى ـ نبض الفكر
- ايليا أبو ماضى تبركثير وتراب قليل ـ نبض الفكر
- موت شاعر عظيم ـ نبض الفكر
- على مشارف الخمسين ـ على مشارف الخمسين

ارشح « عزيز اباظة » لجائزة المتحف !

مازال بعض الناس يعيشون فى التاريخ ، وهم حين يتادبون يلوكون الفاظا غريبة يقذفونها قذفا فى وجوه الخلق : جودة السبك حسن الحبك ، اشراق الديباجة ، الحلاوة والطلاوة . ويغفل هؤلاء الناس عن أن هذه الألفاظ قد فقدت مدلولاتها ، هذه الألفاظ « التحف » يرددها رجال تحف لا ندرى كيف زايلوا أماكنهـــم ليزاحمونا فى حياتنا الحرة المتجددة .

ان قيمتنا الأولى ــ كشعراء ــ اننا عصريون . ومن هنا ينبع فهمنا للشعر . فشعرنا ليس نمنمة ولا توشية ولا غلبة بالقول .. ولكنه نوازعنا فى حيرتها وقلقها وتشوفها الى مستقبل سعيد وغد افضل ، وهو يأخذ من الحياة ليهبها مستهدفا اثراء النفس الانسانية وتعميقها ليمكن لها فى الأرض ، وليصبح الانسان ، كل انسان ، ملكا ..

ونحن متطلعون الى غايتنا وموقفنا ، لأن الزمن معنا ، ولأن أعيننا مفتوحة فلن يخدعنا أحد . ولكن هذه التحف ، التى رضينا بها تحفا لا تتحرك ، واذا تحركت ففى مجالها التحفى ــ قد اغترت ــ

وخالت أنها حية فمدت ذراعيها الحجريتين ، ولابد من القام الحجر حجرا لكى يسكت ، وقد أدلى السيد عزيز اباظة بحديث لاحدى الصحف ، وكتب مقدمة لأحد الدواوين ، وفى كلا الحديث والمقدمة اخطاء رهيبة أولها : قوله ان الشعر الحديث قد خرج عن القافية والوزن • وهذا كلام فى ظاهره الصدق وفى باطنه المغالطة • اما عن القافية فهى ليست شيئا مقصودا لذاته • ولكنها عنصر موسيقى ، ورنين القافية الموسيقى رنين بدائى ، والصورة الكاملة للموسيقى الشعرية هى الموسيقى الداخلية التى تنبعث من الانسجام النغمى بين الفاظ البيت • وتلك غاية لا يستطيعها هو بدليل قوله :

مولاى ، قل تنفر لهم   فى جحفل كالعيلم المنساب

وقوله :

ذكرتك فى فيتيس والســـكون داعم

بامضـــادية خـديه ، والليـــل نائم

وانا اتحدى اى انسان ان يكرر هذين البيتين ثلاث مرات دون ان يتلعثم ، وسلام على قبر حرب •

..سبيل هذه الموسيقى (الداخلية) ان يكون الانسان حيا بالغ الحياة • هذا الى اننا لم نهمل التقفية بل اعتمدناها كعنصر عفوى اذا استوجبها المعنى والموســيقى ، والا فلا حاجة الى التزييف والاختلاق فى سبيل هذه الموسيقى البدائية • اما عن الوزن فلا يخفى عليك ان بعض الأوزان العربية اوزان تكرارية مكونة من وحدات (فعولن ـ مستفعلن ـ فعلن ـ متفاعلن ـ فاعلاتن) وقد جعل الشعر

الحديث وحدته التفعيلة لا البيت العربى المغلق · فهو اذن لم يخرج عن الوزن ·

اما الكسب الذى جناه هذا الشعر فهو نبض الحيـــاة فيه وسريان الدم الى اعضائه ·· فلم يعد زينة المجالس وطرفة الأمراء . ولكنه اصبح شيئا عميقا ، عميقا كنفس الانسان ·

واعجب العجب أن سائلا سأل الشاعر عمن يرشح لجائزة نوبل فرشح خمسة شعراء اربعة منهم ماتوا ، شبع من الاربعة اثنان موتا ·· والخامس الحى قد نال جائزة نوبل فعلا ·· وهذا الخامس هو اليوت · وهو ان كنت لا تدرى أيها السيد من رواد الثورة على الشكل · ولايعنى مثلك برنين اللفظ واشراق الديباجة و ·· و ·· اليوت الذى تزدحم قصائده بالحوار والفاظ الحديث اليومى الى جانب الرمز الموغل والعمق الموحى ، كل ذلك فى اتساق شعرى لست منه على حظ · ايها السيد . احلال على بلابله الدوح ·· !

سيدى ، انك تفهم الشعر من خلال شوقى · لقد كان شوقى شاعر زمانه · وكان اميز مافيه سرعة استجابته لمقتضيات العصر · فكتب المسرحية · وكتب الشعر الشعبى وعنى بأن يكون قريبا الى الناس · فتعلم منه ، والا فدونك والمتحف !

وانا ارشحك لجائزة اى متحف يقام فى العالم ·

الاخبـــار ١٩٥٦/٥/٤

شاعر الريف والطبيعة والمستضعفين

تطالعنا المطبعة العربية فى هذه الأيام بدواوين متعددة أغلبها لشعراء من هذا الجيل ، تفتحت مواهبهم الشعرية اثر الهزات العنيفة التى اجتازها مجتمعنا فى السنين التى أعقبت الحرب • وكان من أوضح الخصائص التى تميز بها هذا الشعر عموما انفعاله بالحياة وتياراتها ، وأخذه لأفكاره وصوره من احداثها ، وبخاصة من تلك الحياة السياسية المندفعة التى خاضتها مصر فى السنين الأخيرة • كما أن النمو المتجدد للقومية المصرية من خلال معاركها وانتصاراتها قد أسعف الشعراء على أن يلونوا شعرهم بألوان بيئتهم المحلية محاولين عن طريق الصدق البيئى أن يوفروا الصدق الفنى ، وجاهدين فى الوفاء للاقليمية عرفانا منهم بأن فى الوفاء للاقليمية وفاء للمنزع العالمى •

وقد اقترن اسم الشعر الحديث بتغيرات فى الشكل أهمها عفوية القافية ووحدة التفعيلة • كما أن هذا الشعر قد تخلص من النزعة الخطابية التقريرية ومال الى الأداء الفنى الشعرى الذى يحاول أن يعمق التجربة البشرية بالصورة لا بالوضوح النثرى •

هذه هي الملامح الرئيسية للشعر المعاصر ، وفوزى العنتيل من أبرز الوجوه الشاعرة في هذا الجيل · وقد أخرجت المطبعة العربية ديوانه عبير الأرض ، متمثلة في هذا الديوان تلك العناصر التي أسلفت الحديث عنها ، من خلال احساس ذاتي منفرد · فللشاعر تجربته القديمة في الشعر الملتزم للنمط القديم ، وله فيه مجـــاله الواسع وطريقته في الأداء · ولذلك فان أغلب قصائد الديوان تلتزم ذلك الشكل · وربما كانت معايب هذا الشكل في هذا الديوان أقل منها عند كثير من الشعراء المعاصرين ، ذلك لأنه لم يلتزم وحدة القافية وان التزم القافية ذاتها ، فقد نوع من القوافي دون نظام مسبوق ، بل حسب ما يتوفر له من النفس الشعرى الطلق . ومايتطلبه المعنى ، أما القصائد القليلة التي مالت الى الشكل الحديث فقد توفر له فيها أسلوبه العاطفي الهامس المؤزر بالصور الشعرية دون خطابة أو افتعال ··

لن تجد ديوانا معاصرا يمثل الريف المصرى فيه بهذا الوضوح، فالنخيل والأغصان والطيور عناصر شعرية واضحة والشاعر منفعل بالريف ، مستمد لصوره منه ، حتى وهو في المدينة · فأنت تحس بأعماق قلبه رجعة الى الريف ، وخفوقا دائما اليه ، وصورة جمالية خلابة لطبيعته ، حتى لكأنه هو واحة المتعبين الطيبة ··

قـــد كان لى في قـــريتي حب أظـــل مشــــاعرى
حب ·· شــــربت بكـــوبه متـــع الصـــباح العـــاطر
هي ذكــــريات لـــم تـــزل تســـقي خـريف الشـــاعر
ياواحـــة العمـــر الجـــديب على الطـــريق الســـاحر
انـــا عـــائد يومـــا اليـــك مـــع الـــربيع الزاخـــر

ان غاية الشعر أن يحبب الحياة الى الأحياء · وأن يكشف لهم عن جمالها وأنها جديرة بأن يصنع الانسان من أجلها ما يصنع ، وأن يقول لأولئك البشر المتعبين :

من حمــرة الشـــفق الجـريح تســـــيل انـــوار الصـــباح

يا ايهـــــا المستضـــعفون ســـتولدون مــع الصـــــباح

وهذا هو قرار اللحن الذى يغنيه الشاعر فوزى العنتيل فى ديوانه عبير الأرض ·

روزاليوسف ١٩٥٦/٦/١١

شـــاعر عظيم قتله النقـــاد

فى صبيحة الرابع عشر من ابريل سنة ١٩٣٠ اخذت « فيرونيكا بولنسكايا » تطرق باب غرفة نوم الشاعر الشاب العظيم ، فلم يجب احد ، والحت فى الطرق والنداء ولكن دون جدوى ٠

وعندما دفعت باب الغـــــرفة فوجئت بجثته متدلية على حافة السرير ، وقد انحدر نصفه الأسفل الى ارض الغرفة ، وكانت المدية تلمع فى يده ٠٠ وصرخت المرأة مذعورة وتقدمت اليه ، وحدقت فى وجهه الساكن المكدود وكان على شفتيه ابتسامة ذلك الذى فرغ لتوه من عبء ثقيل ٠ وفى عينيه اصرار مفكر ، وعلى مدى ذراعه الأخرى ورقة كتب فيها كلماته الأخيرة ٠٠

« الى الجميع ، انى أموت الآن ٠ ولا أتهم احدا ٠٠ ولا اريد أدنى ضجة ، فان الموتى يبغضـــــون ذلك ، يا أمى ، يا اخوانى ، يا رفاقى ، سامحونى ، ان ما فعلته ليس مخرجا ولا أنصح به أحدا ، ولكنه مناسب لى ، ولا حل آخر غيره يلائمنى ٠

يا ليلى ، أعطنى حبك ٠٠

الى رفاقى فى الحكومة ·· ان اسرتى هى ليلى بريك ، وأمى واخواتى ، فاذا كنتم تستطيعون تسهيل حياتهم ولو قليلا ، فالشكر لكم ··

لقد ابتدأت الأشعار فأعطوها الى آل بريك فسيجدون انفسهم فيها ··

وكما يقال :

« لقد انتهى أمر تافه » ··

وزورق الحب ·

لقد تحطم على صخرة الحياة اليومية ·

لقد زهدت الحياة ··

وعجزت عن ان اعبر عن احزانها ·

وعثراتها ، واخطائها المشتركة ·

فلتنعموا بالسعادة » ·

وهكذا خبت شعلة فلاديمير مايا كوفسكى شاعر روسيا العظيم ·· لقد أطفأ الشاعر الذى احب الحياة لجميع البشر مصباح حياته بيده وهو فى السابعة والثلاثين ··

لماذا انتحر مايا كوفسكى ؟!

هل عجز عن أن يلائم بين حياته وبين النظـام الجـديد فى روسيا ؟ هل اصطدم بأولى الأمر ، أو عجز عن ان ينال رضاهم ؟

لقد قال عنه لينين مرة « بالأمس قرأت صدفة فى الازفستيا قصيدة لمايا كوفسكى عن موضوع سياسى · وقد مر على وقت لم

أمارس فيه هذه المتعة سواء من وجهة النظر السياسية أو من ناحية التصميم الفنى ٠

ففى هذه القصيدة يسخر الشاعر من الرفاق لأنهم لا يتوقفون من عقد الاجتماعات ٠ « وبرغم أنى لا أحسن الفهم فى الشعر ، الا أننى كسياسى أعتقد أن هذه السخرية فى محلها » ٠٠

أما ستالين الذى عاصر مايا كوفسكى حكمه عدة سنوات فقد قال عنه « انه أرفع وأعظم عبقرية شعرية فى زماننا ، ان التنكر لذكراه جريمة » ٠

وتمتع مايا كوفسكى بمحبة المواطنين الروس ٠٠ وكان البسطاء يقرؤون شعره ويتتبعونه ٠ وكان مما يبهجه ان يتعرف عليه المارة وسائقو العربات وهو يجوس شوارع موسكو ٠ كان الناس يحبون هذا الرجل ذا الرأس العالى والأكتاف العريضة والجمجمة الكبيرة المستديرة ، والخدين المتوردين بالصحة والعينين الحادتين ٠ وكانوا يتهامسون « هاهو ذا مايا كوفسكى ، ولقد قال هو فى مذكراته ٠٠

« لقد قال لى البحار فى الاودسا « صباح الخير » دون معرفة ، وبدلا من ان يقول لى كيف حالك فاجأنى بقوله « أطلب منهم فى موسكو أن يطبعوا قصيدتك بسعر معقول » ٠٠

اذن لماذا انتحر مايا كوفسكى ؟

ينتحر كثير من الناس ـ والشعراء بخاصة ـ لعجزهم فى الحب ٠٠

فما سر قلب الشاعر العظيم ؟

لقد كان يحب زوجته · وقد اهدى اليها كل كتبه والقارىء يحس بروحها فى كل ما كتب ·

وقد عاش فى ظل هناءة هذه السيدة سنين طويلة · وكان قلبه يخفق لها دائما حتى نزواته مع الأخريات · وكانت له نزوات ، كان يحب جميع النساء ، وبخاصة الصغيرات الجميلات !

ولقد كان هذا العملاق رقيقا مع النساء الى حد عجيب . وبخاصة حين تستحب الرقة ولكنه كان شديد الحساسية ، فهو يخشى أن يفقد احترامه أو يحرج احساسه بالزهو ، ولكن اذا قررت المرأة أن تتمنع عليه فهو يجد فى تتبعها باصرار وقوة ، وكان بعضهن يتراجعن ويفضلن ازواجهن أو احباءهن العاديين على هذا العملاق · لقد كان زوجا طيبا ، ومحبوبا من النساء · فلماذا انتحر ؟

لنبدأ قصة حياته من أولها ·

ولد مايا كوفسكى فى السابع من يوليو ١٨٩٣ لأب حطاب ، فى قرية من قرى ولاية جورجيا · ومات أبوه وهو طفل · فارتحلت الأسرة الى موسكو وهى تحمل فى حقائبها الفقر الأسود ·

وفى عام ١٩٠٦ دخل المدرسة ، وبعد عام جن بالفلسفة ، وبهيجل بخاصة ، ثم تحول اهتمامه الى التاريخ الطبيعى · وقادته تلك الاهتمامات الى الماركسية · فانضم وهو فى الخامسة عشرة الى الحزب الاشتراكى الروسى « البلشفيك » واعتقل بتهمة كتابة المنشورات ثم أطلق سراحه ليعاد اعتقاله وهرب هذه المرة من سجن موسكو · ولما قبض عليه البوليس القيصرى حوكم وظل فى السجن احد عشر شهرا · قرأ فى اثنائها كتابات العباقرة · بيرون وشكسبير وتولستوى ·

ولما اطلق سراحه عام ١٩١٠ وجد نفسه فى حيرة فكرية ٠٠

« كيف أستطيع أن أعبر عن نفسى وسط هذا الطوفان الغريب ، الا يتطلب دورى الثورى أن أدرس دراسة منظمة ؟ ذهبت لزيارة احد رفاقى فى الحزب وقلت له « انى أريد أن أخلق فنا اشتراكيا » ٠٠ وضحك منى ذلك الرفيق ضحكا عاليا ممتدا ، وقال « ان عقلك اكبر من معدتك » ٠

وعلى كل حال فانى أعتقد انه لم يقدر معدتى حق قدرها ٠٠ وأوقفت نشاطى من أجل الحزب وبدأت الدرس » ٠

واتجه الى الرسم يدرسه ٠٠ فدخل فى عام ١٩١١ مدرسة الفنون الجميلة ٠٠ ولكنه طرد منها فى عام ١٩١٤ بعد ان انذره الأمير ايفان عميد المدرسة بأن يتوقف عن النقد الجارح واثارة المتاعب ٠

كان أكبر ما يعانيه فى هذه الفترة هو الجوع ٠ ولكن ظل حاد الطبع مشغوفا بالعمل والتحدى ٠ فأسس هو وبعض أصدقائه جماعة سموها « المستقبليين » وكان جميع أعضاء هذه الجماعة يعتقدون أنه عبقرى حتى قبل أن يخط حرفا ٠ وبعد عديد من الاجتماعات والمناقشات قال له أكبر الأعضاء ٠ وكان اسمه بورليوك ، وكان رجلا أعور كبير الجثة يرتدى حلة رسمية دائما ٠٠ الآن يا مايا كوفسكى، لقد نضجت ، فاجلس للكتابة ٠٠ !

وباع مايا كوفسكى قصيدته الطويلة الأولى « ثورة الأشياء » ٠

واكتسب قدرا من المال ساعده على أن يدخل المجتمع الأدبى ٠ فارتدى قميصا اصفر حاكته له أمه ، وبنطلونا أسود جديدا ، ومعطفا ورباطا للرقبة وقبعة من قبعات السادة ٠

وابتدات الصحف تشير اليه · ولكن فى نقد مرير هو اقرب الى الشـــــتائم ·

والتقى فى عام ١٩١٤ بجوركى وقرأ له بعض اشعاره ، وملأ السرور قلب جوركى وبكى بدموع الفرح والانفعال ·

وعندما اخرج جوركى عام ١٩١٥ مجلة ليتومبيس كان مايا كوفسكى من كتابها الدائمين · واهتم به الحقل الأدبى ، وخاصـــة سنة ١٩١٦ عندما أخرج قصيدته الطويلة « الحرب والسلام » · لقد انفعل الناس بضجة الطبول المنهزمة فى المعركة وبالصـــمت الذى تتخلله الأصوات الموقعة لأقدام زاحفة ، وباليأس عندما يتمزق القلب الى أشلاء ·

واخذ مايا كوفسكى يصعد الى المجد بخطى واثقة فكتب بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢٢ قصيدته الغنائية الرائعة « ١٢٠ مليونا ·· أحبهم » و « عن هؤلاء » واستمر يكتب ويكتب حتى خبت شعلة حياته ·

وكان مايا كوفسكى صاحب مذهب جديد فى الشعر وتصويره ، فما هذا المذهب ؟

كتب مايا كوفسكى عام ١٩٢٦ مقالا بعنوان كيف يكتب المرء اشعارا جاء فيه :

ما العناصر الضرورية للعمل الشعرى ؟ اولا : وجود الانسان فى مجتمع ذى مشكلة ، يتصور الشاعر لها حلا فى عمله الشعرى ·· ثانيا : معرفة محدودة أو على الأقل احساس بحاجات المجموعة التى يمثلها تجاه مشكلة واضحة ، وثالثا : الكلمات وهى أداة العمل

الشعرى ٠ ويجب أن تكون غنيا بالكلمات الجديدة المعبرة النادرة التى تكتشفها أنت ٠ ورابعا : عادات ومنهج فى التعامل مع الكلمات ويجب أن يكون هذاالمنهج فرديا اكتسب بخبرة السنين وجهودها ٠٠ مثل كيف تتعامل مع الوزن والقافية والمجاز والتشبيه والاستعارة والأسلوب والختام والبداية والعنوان ، وكيفما كان الأمر فان الشاعر مطالب أن يصدر حكمه على كل الحوادث وكل الناس وكل الأشياء وهذا الاحساس بالمسئولية هو منبع فن الشعر ٠

ولقد كان مايا كوفسكى مجددا حقيقيا فى الشعر ، فلقد جدد فى الشكل وفى أغراض الشعر وخرج بهذه الأغراض عن دائرة قصص الأساطير والوصف الى أفق أرحب مدى ٠ فقرب الشعر الى أغراض الحياة اليومية ٠ ففى عام ١٩٢٣ مثـــلا كان شـــعره موزعا بين ميدانين : الأول أغنية حب طويلة رائقة ، والثانى الاعلانات التى ساهم بها فى تدعيم المزارع الجماعية ويدعو بها العمال الى الحرص على الانتاج ، ويبشر فيها بحركة التصنيع فكتب أشعارا يدعو بها الفلاحين الى المؤازرة فى بناء الاصلاح الاقتصادى الجديد ٠٠ وكانت هذه الأشعار تلقى فى المحافل وتعلق على الجدران فى أبنية تنظيمات العمال ٠

هذه المحاولات فى التجديد جرت عليه عداوات كثيرة ، وكان أعداؤه متعددى المشـــارب والأهواء ، ولكنهم جميعا اتفقوا على معاداته ونقده ٠٠

كان هناك أساتذة المعاهد وأصحاب الحركات الرجعية الذين أرادوا للشعر الا يتحول عن اتجاه بوشكين وتولستوى وكان هناك أولئك الذين لا يريدون للشعر أن يساهم فى الحياة اليومية ٠ وأن يظل محلقا فى سمائه العالية ٠ وكان هناك المنظمون السياسيون ٠٠ وكان هؤلاء يقولون « ما باله يتكلم عن الحب كثيرا ، وما فائدته

لقضـــية الجماهير ، ولحركة البروليتاريا ؟ » وأخيرا كانت هناك الغيرة والحسد .

وتجلى ذلك العداء كله فى صورة حرب يشنها عليه البيروقراطيون الذين يجلسون على المكاتب فى حكومة السوفييت ومقر الحزب .. فرفعوا كتبه من واجهات المكتبات ، وكان اســـمه يكفى لكى ينفر القائمين على الثقافة الشعبية فى الدولة الناشئة من كل عمل فنى حتى لو كان جليل الأثر .

والواقع أن توجيه الدولة الناشئة فى روسيا للأدب والفن . هذا التوجيه الصارم كان أمرا خاطئا ، اذ أن هذا التوجيه لم يوكل الى أدباء أو نقاد راشدين ، وانما وكل الى قادة حزبيين . وعجز هؤلاء عن فهم الدور الخطير الذى يؤديه مايا كوفسكى فكانوا حربا عليه ..

واحس مايا كوفسكى بالغربة ، وهو فى وطنه ، فى ظل الثورة التى تحمس لها ، والنظام الذى طالما بشـــر به ، فخرج فى بعض الرحلات الى الخارج ، الى أمريكا حيث الف كتابه «اكتشاف أمريكا» ثم الى مكسيكو ثم الى فرنسا ، وفى كل مرة كان يعود ليجد حملة النقاد اقسى واشد ، وصراخهم يملأ الجو بالضغينة والتجريح ، وعرف مايا كوفسكى أن لا مكان له فى وطنه ، وأن دوره قد انتهى ... فانتحر ..

صباح الخير ١٩٥٦/٧/٢٦

اصوات العصر

لوركــــا

شـــاعر الأندلس الشـهيد

فى مثل هذه الأيام منذ عشرين عاما ، كانت أجراس الموت تدق فى أرض اســبانيا ، وكان العــالم يلتقى هنـــاك على العداوة ، فالجمهوريون الأحــــرار يريدون أن يحـــــافظوا على الديمقراطية والعدالة ، أما الارهابيون الفاشيون فهم ينشرون الرعب فى كل مكان ، ويثيرون الاضـــطرابات والفتن ٠٠ كانت الحــرب الأهلية الاسبانية ٠٠

وكانت تلك الحرب أول لقاء سافر بعد الحرب العالمية الأولى بين الحـــرية والطغيان ، بين الديمقراطية والارهاب ، بين التقدم والرجعية ٠

وكان الأحرار فى كل مكان يتجهون بقلوبهم الى الصراع فى أسبانيا ، ويتغنون بالقيم الديمقراطية ٠٠ وكما رحل بيرون شاعر الانجليز الى اليونان ليساهم فى معركة استقلالها فى القرن الماضى رحل كثير من المثقفين الى اسبانيا فمنهم أودن الشاعر الانجليزى الشــاب ، ومالــرو المفكر الفرنســـى وهمنجواى وكارل ساندبرج الأمريكيان ٠

أما الفاشيون فقد كانوا يتمتعون بتأييد هتلر وموســـولينى وجميع الفاشيين فى العالم ..

وكان لوركا هو شاعر الديمقراطيين العظيم وهو أندلسى نبيل ورث عن أجداده تلك الروح السخية المتحدية ، قال عنه الشاعر البرازيلى بابلو نيرودا « لقد كان ومضة طبيعية ، وطاقة متجددة ، وفرحا متوهجا ، وحنانا فوق طاقة الانسان ، وقد كان محياه ساحرا أسمر ينادى بالهناءة » ..

وانتصر فرانكو فى الحرب الأهلية ، وأصيب الأحرار فى كل مكان بخيبة أمل ، وكان هذا النصـــر ثمرة اهمال الديمقراطيات الغربية للأمر .. وكانت نتيجته أن التحمت دول الغرب مع الفاشية بعد ثلاث سنوات فقط ..

أجل ، انتصر فرانكو .. وقتل الارهابيون لوركا ، وقال الكاتب الفرنسى لويس بارو « لقد شيد نظام فرانكو على قتل لوركا ، وان هذه الجريمة هى التى ستكون السبب يوما فى مصرع هذا النظام ، وان ذكرى الشاعر القتيل وحدها تعادل اليوم جيشا باكمله » ..

ان الحديث عن لوركا جريمة الآن فى أسبانيا ، وقد حاول حكامها أن يمحوا من الأذهان كل ما يتصل به بسبب ، فكتبه لا تطبع وشعره لا يدرس .. ومنزله لا يزار .. ولكنه رغم ذلك مازال حيا فى ضمير الشعب الاسبانى ..

حدثنى صديق عائد من اسبانيا ، قال « انك لو ذهبت الى غرناطة ، وصاحبت احد سكانها فى طريق ، فسيهمس لك بأن هذه غرناطة لوركا .. وسيريك بيته ويدلك على الطريق الذى اعتاد المشى فيه وربما غنى لك من شعره ..

الموت اى رقاد طويل هو دون احلام ودون عتمات ، اريد ان اموت لأرد عنك الموت ••

وفى سبيل المثل الأعلى الذى كان يضىء عينيك ••

ويا ايتها الحرية •• كيلا يطفىء احد شعلتك العلوية ••

أنا اهب نفسى بكليتها ••

فلترتفع القلوب عاليا ••

اما اذا لقيت عجوزا فسيحدثك عن مصرعه : كان صباحا صيفيا، وسيق الشاعر وسط جمع كبير من الضحايا الى مسيل نهر واستطاع لآخر مرة ان يملأ عينيه من نور مدينته الحبيبة وصف الجميع صفا واحدا ، ثم احضر لهم كاهن ليعترفوا ، وعند انتهاء الاعتراف نزعت القيود عن ايديهم • وامروا بان يعقدوا اكفهم على رءوسهم ولكزوا بأفواه المسدسات ، ثم صاح صائح « اركضوا » وأخذوا يتدحرجون الى أسفل التل ، ثم صوبت الى كل منهم رصاصتان احداهما فى العنق ، والأخرى فى وسط الظهر وخروا جميعا ، ومن بينهم ذلك الشاب ذو السبعة والثلاثين ربيعا الذى اسمه فريدريكو جارسيا لوركا ••

ومات الشاعر على الأرض التى احبها •• ودفن فى مهب الريح كما اراد :

عندما اموت ••

ادفنونى مع قيثارتى ••

تحت الرمال ••

عندما اموت ••

ادفنوني اذا شئتم ..

في مهب الريح ..

عندما اموت ..

* * *

لم يرفع لوركا بندقية في وجه فرانكو .. ولم يشهر سيفا ، ولكنه مع ذلك كان كتيبة من كتائب المقاومة ، كتيبة لا يقهرها الموت ، بل ربما كان الموت هو سر قوتها ، كان يحارب بالكلمة الشريفة ، بالكلمة التي تنبع من وجدان الشعب لتلتقي به مرة ثانية فتزيده غنى وثروة .. ولأن لوركا كان يحس بدور الفن في المعركة فقد كان ديمقراطي النزعة رغم منبته الارستقراطي .. ولأنه كان يحب الشعب الذي أنبته فقد حاول أن يفهمه ، وأن يلتصق به ، وأن يأخذ منه ليعطيه ، فاستوحى تراث شعبه في كل ما كتب وعاد الى اغانيه وقصص حبه وأشعاره ، والى ترنيمات الأمهات لأولادهن ، وغناء الشبان للصبايا ، وهزج الفلاحين في الحصاد ، ثم جمع ذلك كله في قلبه ، وسقى منه الناس ..

في شعر لوركا عالم من الأطفال الملائكة .. والأمهات الحنونات والصبايا العاشقات والفلاحين البسطاء والناس جميعا يتكلمون لغتهم المجنحة بالوهم الغنية بالاسطورة المتدفقة بالبراءة :

اماه ..

ليتني كنت من فضة ..

يا بني ..

سيصيبك البرد ..

اماه ..

ليتنى كنت من ماء ..

بلى ..

لن تكون فى الدفء اذ ذاك ..

اماه ..

طرزينى على مخدتك ..

نعم يابنى ..

وفى الحال ..

وقد كان لوركا مولعا بالاراجوز مسرح الشعب فكتب له كثيرا من المسرحيات .. وبلغ من ولعه به أن أقام مسرحا صغيرا للدمى فى بيته ، كانت تمثل فيه مسرحيات من تاليفه يحضرها اصدقاؤه من الموسيقيين والأدباء ..

وحين تم له النضج والاكتمال الفنى عرف أن من واجبه أن يساهم بدوره فى معركة الديمقراطية ، فعاد الى التاريخ الاسبانى لكى يبعث من بين ثناياه قصة كفاح خالدة وجعل من هذه القصة مسرحيته الرائعة « ماريانا بلينيدا » ، وزمن هذه المسرحية هو الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وماريانا فتاة أندلسية من غرناطة مدينة لوركا فى السابعة والعشرين من عمرها دعت الى الجمهورية والحرية فقبض عليها جنود الملك فرديناندو السابع .. وهى تطرز علم الثورة بحروف من ذهب : اخاء حرية ، مساواة ..

وقتلت سنة ١٨٣٠ ..

وعندما عرف حبيبها بدرو بانها ستموت ، وقف أمامها يناجيها ويقول :

« وما الانسان دون حرية يا ماريانا ؟ ·· ودون هذا الضوء الثابت المتناسق الذى نشعر به فى أعماقنا ؟ ··

وكيف يسعنى أن أحبك اذا لم أكن حرا ؟ قولى لى : كيف يمكننى أن أعطيك هذا القلب اذا لم يكن ملكى » ؟ ··

وأتم لوركا مسرحيته ، وطاف بهاالمسارح لتمثل ، ولم يجرؤ أحد من أصحاب المسارح على تمثيلها خشية عسف الديكتاتور بريمودى ريفييرا ، وأخيرا تجرأ أحد أصحاب المسارح على عرضها ، واحتشد الاسبان الأحرار جميعا لمشاهدتها ، وكانت مظاهرة كبرى ··

وأصبح لوركا حبيب الشعب ، وكرمه الناس لأنهم عرفوا فيه شاعرهم المجيد ، فرد اليهم الجميل وذهب اليهم فى قراهم وحقولهم ليصافحهم ثم يقدم اليهم شعره ومسرحه ·· فلقد كون فرقة متجولة من بعض الفنانين ·· والطلبة الجامعيين لتقدم روائع المسرح الكلاسيكى الى البسطاء ، الى الفلاحين فى أبعد قرية فى الريف ، ونجحت الجولة نجاحا غريبا واجتمعت عندها مشاعر الناس ، ووحد الفن بينهم وبين المثقفين من أبناء المدن ·· كما استفاد الفنانون من هذه الجولة اذ عرفوا وطنهم حق المعرفة ، وكان سهلا عليهم بعدئذ أن يخاطبوه بلغته ، وأن يعبروا عنه فى صدق واخلاص لكى يكونوا فنانيه بحق ··

وطاف الشاعر ببعض بلاد العالم زار الولايات المتحدة ، وروع حين رأى زنوج حى هارلم :

آى هارلم ! آى هارلم ! آى هارلم ..

ليس من هلع يحاكى عيونك المضطهدة ..

ودمك المختلج فى الكسوف القائم ..

وعنقك القانى ، الأعمى الأصم فى الظل ..

وملكك الكبير الأسير فى ملابس البواب ..

ثم طاف الشاعر بأمريكا اللاتينية ، هذه البلاد الاسبانية فى لغتها وطبائعها ، وقوبل بالحفاوة حيث حل ، فى البرازيل والارجنتين واورجواى ، ثم عاد الى وطنه ليكتب من جديد للمسرح الذى احبه ، وللشعب الذى آمن به .

وكتب لوركا ثلاث مسرحيات بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ هى عرس الدم ويرما ومنزل برناردا البا والمسرحيات الثلاث مستمدة من روح الشعب الاسبانى فمسرحية «يورما» مثلا تتحدث عن المرأةالعاقر فى مجتمع قروى يعتز بالولد وهى تريد أن تحقق امنيتها فى انجاب الأولاد من صلب زوجها دون جدوى .. واستبد بها حب الأمومة فقادها الى الجنــــون ثم القتل .. لأن الأمومة تجدد دائم وحيــاة مستمرة .. وما أبشع أن يحرم الانسان من أن يجدد حياته ..

« ان المرأة التى لا أولاد لها فى الريف .. هى بلا نفع كباقة الأشواك .. لقد أصبحت اضيق ذرعا بهاتين اليدين اللتين لا أستطيع استعمالهما فى سبيل كائن منى .. اننى أشعر بالمهانة حين أرى القمح ينبت والينابيع لا تكفعن بذل الماء ، والخراف تضع الحملان بينما احس بضربات مطارق فى الموضع الذى كان يجب أن تقرصنى فيه شفتا طفلى .. »

وفى اوائل عام ١٩٣٦ كان لوركا قد اصبح شاعر الاسبانية الأول واحد الشعراء العالميين بينما كان الصراع بين الديمقراطيين والفاشيين قد بلغ الذروة ٠٠ وكون الفاشيون كتائب من المتبطلين وضيقى الأفق نشروا بها الارهاب ، والرعب ، ومال ميزان القوى الى جانبهم ٠٠ ووضعت قائمة تحوى أسماء المشبوهين وجاءت النذر لوركا أنه ممن ضمتهم القائمة ٠٠ وحين علم بذلك غادر منزله فى غرناطة متخفيا الى منزل صديق له ممن تربطهم الصداقة بالفاشيين ، واكرم صديقه وفادته ، ومرت ايام وهو مختف فى مخبئه ينتظر أن تهدأ الحالة ٠

وفى ذات صباح طرق باب بيت الصديق ، واشتد الطرق ، وأدرك لوركا أنه الحكم بالموت واستسلم الشاعر وسيق بين الجموع ٠٠

وفى الصباح التالى ٠٠ سقط جسم لوركا الى منحدر التل وهو يتخبط فى دمائه ٠٠

وهكذا صرع ذلك الطفل الكبير ، ولكن شعره ظل خالدا ينير الطريق للأجيال الصاعدة ويثرى وجدان الأدباء والقراء فى العالم كله . ونقل الى معظم اللغات الحية ٠٠ وقد نقل الدكتور على سعد مسرحيته « عرس الدم » الى العربية مع مقدمة وافية استعنا بها فى كتابة هذا المقال ٠

صباح الخير ١٩٥٦/٨/٢٦

« مدينة العشق والحكمة »

نبى من امريـكا

عاش عيشة مضطربة حتى سن الثلاثين ·· ثم غادر مدينته واخذ يطوف بمدن الساحل ليعايش البحارة واللصوص والزنوج والتجار ، ولما عاد الى نيويورك كان قد عرف طريقه ·· وادرك انه نبى جديد ، ومبشر برسالة فيها الخلاص للبشر ··

واتخذ لنفسه سمت الأنبياء وهياتهم ·· هذا الشعر الكث الطويل ، وهذه اللحية المسبلة التى تخالطها شعرات بيض تغشتها قبل الأوان ، وذلك الجسد النظيف والبشرة الوردية وتلك الوقفة المصطنعة المتأهبة دائما للكلام او الحركة او الايماءة ·· واخيرا هذا المخطوط للذى يضعه تحت ابطه ، والذى يضيف له كل يوم نشيدا جديدا ··

وفى سن السادسة والثلاثين ، نشر على الناس كتابه ، وكان اسمه اوراق العشب ·· وكان غلاف الكتاب خاليا من اسم المؤلف ·· كالكتب المقدسة جميعا ·· ولكن بين سطوره الحارة وردت هذه الفقرة :

ولتويتمان ، عالمى ، ومن منهاتن ،

ثائر جسدى ، شهوانى ،

ياكل ويشرب ويضاجع ،

ليس ببالغ الحساسية ،ولا يسمو بنفسه

على الرجال والنساء ..

ولا يزيد تواضعه على عدم تواضعه ..

وعرف الناس أن صـــاحب هذا الديوان والت ويتمان الثائر القديم ، وأدرك الذين قرأوا الديوان أنه يبشر بأشياء جديدة تهز المجتمع من أساسه فوقفوا حياله حيارى ..

كان هذا الرجل من مواليد مدينة منهاتن وهى ضاحية من ضواحى نيويورك ، وجزء من الساحل الأمريكى المعروف بنيوانجلند ..

وحين ولد ويتمان عام ١٨١٩ بعد ما يقرب من مائتى عام على نشوء العالم الجديد ، كانت أمريكا رغم هدوئها الظاهر تحمل بين طواياها ألوانا من التناقض الذى ينذر بالأحداث .. فقد كان الملاك وأصـــحاب الأراضى يتوسعون فى الاقتناء ، وكان المغامرون منهم يحاولون أن يدفعوا الدولة الى توسع استعمارى فى المكسيك وأمريكا الجنوبية .. كما كان الخلاف بين ولايات الشمال والجنوب حول تحرير العبيد ونظام الرق يوشك أن يتبلور ويبلغ ذروته ، وكانت شريعة اللامساواة قد ابتدأت تتحكم بسلطانها القاسى فى المصائر والرقاب ..

هذا وكان الأدب الأمريكى يجتاز فترة من الرومانتيكية هى

صدى للرومانتيكية التى ازدهرت فى القارة فى القرن الثامن عشر ·· فكان صدور ديوان ويتمان فى هذا الأوان صرخة نبى ··

« يسف الصقر الأرقط ويمر بى ··

متهما لى متذمرا من ثرثرتى وتسكعى ··

ولكنى أنا أيضا لا أروض ، وأنا أيضا لا أترجم بل أصرخ : صرختى البربرية فوق سطح الدنيا ·· »

وكانت صرخة ويتمان تتلخص فى كلمة واحدة : هى الديمقراطية ومن أجلها أخرج هذا الديوان الأخضر الذى رسم على غلافه حزمة من الأعشاب ، ذلك النبات المتساوق المتساوى ، الذى لا تطول منه نبتة على أخرى وكان اسم الديوان : أوراق العشب ··

* * *

كان ويتمان يحب هذه الكلمة حبا لا حد له ويقولها كأنه يلقى بكلمة سحرية تفتح الأبواب وتزيل صدأ القلوب ، الديمقراطية رسالة الحب الجديدة فى عصر رأس المال والاستغلال ·

وحين عرف ويتمان أن الديمقراطية هى رسالته اطمأن الى طريقه وموقفه،ولكن بعد أن خاض صراعا ضد نفسهوضدقسوةالحياة وضد الحضارة الأمريكية ، فقد عاش هذا الشاعر حياة عامة عاملة جرب فيها ألوانا من المعاناة ، عمل أولا بعد أن فشل فى المدرسة صفاف حروف فى احدى المطابع الصغيرة ، وظهرت له مجموعة شعرية وهو فى العشرين ، وكانت هذه المجموعة غناء للموت وتمجيدا له ، وفيها نبرة عبرية غربية : ان مقدم الموت مؤكد ، وهذا ينبغى أن يبين للناس سخف التفكير فى الحياة المجد والمال والقوة ··

هذه الأشعار المتشائمة هى فى الواقع رد فعل لاضطراب المناخ الاجتماعى الذى لا يتيح تكافؤ الفرص على نفسية مراهق صغير ..

« وأجابنى البحر دون توقف أو عجلة ..

وهمس ، خلال الليل ،وكان صوته واضحا قبيل انبلاج الصبح.

وقال لى الكلمة الخفيفة اللذيذة : الموت ..

وكانت ذا نغم ، ليس كالطائر ولا كأنفاس

وثانية أموت الموت .. الموت الموت ..

قلب طفل ..

وعمل ويتمان صحفيا .. ومن خلال الكتابة فى الصحف ادى دوره ونما وعيه بالحياة ، ففى عام ١٨٤٥ كتب عدة مقالات هاجم فيها خطة التوسع الأمريكى « وناقش فيها منطق ارباب الصناعات الذين يدعون أن التقدم الاقتصادى هو فى استغلال العمال اكبر قدر ممكن بأقل الأجور ..

وعندما شبت حرب التوسع الأمريكية ضد المكسيك سنة ١٨٤٦ كان ويتمان محرر جريدة «نسر بروكلين» اليومية الواسعة النفوذ وكانت الجريدة لسان حال الديمقراطيين من ملاك العبيد الذين كانوا يريدون ن يجعلوا من المكسيك مزرعة عبيد أخرى ، فدعا المحرر الشاب الى وضع حد للحرب ، والقضاء على الرق البشرى ..

وخلال تلك الأعوام جميعها ،كان وعيه السياسى يتبلور .. وكانت امكانياته الفنية تتقدم الى الكمال ..

وأحس ويتمان أن من واجبه أن يعبر بالكلمة المنغومة عما يجول بذهنه من افكار وآراء ، ولاح لويتمان أن قيود القافية والوزن

قد تعوقه عن أداء واجبه المقدس فتخلى عن الوزن المرسوم وطرح القافية وكتب شعرا حرا فيه رنة الخطيب الملهم والداعية الجياش القلب بالعاطفة والاخلاص :

« معى الموسيقى تصدح ، بابواقى وطبولى ••

ولا اعزف للظافرين فقط ، للمغلوبين ••

والقتلى ايضا ••

اسمعتهم يقولون أن النصر حسن ••

اقول أن السقوط مضرجا بالدم حسن ايضا فالمعارك يخسرها اصحابها بنفس الحرص الذى به يربحونها ••

وكان ويتمان يتنبأ بالمصير الذى ستنتهى اليه حضارة أمريكا الراسمالية ، فلم يقتصر تنديده بالظلم على الفلاحين والأجراء ••

كثيرون يعرقون ويحرثون ويبذرون واجرهم هو التبن ••

وقليلون يملكون وهم خاملون ، بطلهم هو الحنطة ••

هذه هى المدنية •• وانا احد سكانها ••

وفى قصيدة «اغنية نفس» نجد انفعال الشاعر بمأساة السود ، فهو يقبل أخاه الزنجى على خده الأيمن وهو مستعد لأن يحارب ملاك العبيد حتى بالسلاح ••

وفى قصيدة « اغنية بوسطن » يعيد الشاعر الحديث عن مشكلة الرق ، ويصف « مهرجى الكونجرس » بأنهم قد خانوا مبادىء

الديمقراطية ، وعندما قامت الحرب من أجل تحـــرير الزنوج كان ويتمان هو الذى مجدها بكلماته المخلصة ٠٠

وأدان ويتمان المجتمع الأمريكى ، ورســـم فى ديوانه أوراق العشب صورة يوتوبيا جديدة يوتوبيا ينعم الناس فيها جميعا بالحياة ٠٠ ويمارسون متعة الجسد والروح دون حدود ، والمرأة والرجل فيها ينعمون بالسعادة ٠٠

« انا شاعر الجسد · وانا شاعر الروح ٠٠

لذات السماء هى ، وآلام الجحيم معى ٠٠

انا شاعر المرأة ، كما انى شاعر الرجل ٠٠

واقول أن المرأة عظيمة كالرجل ٠٠

واقول ليس هناك ما هو أعظم من الرجل »

* * *

كانت أمريكا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر تسير الى التناقض الراسمالى بخطى واسعة ، وفى أشعار ويتمان الأخيرة التى اضافها الى الطبعات المتقدمة من ديوانه نجد تمجيد الشاعر لثورة فرنسا فى سنة ١٨٤٨ فى قصيدته « يا نجمة فرنسا » وتمجيد كفاح « أرسكيولا » زعيم الهنود فى حربه ضد البيض ، وتمجيد الاخاء بين الشعوب فى قصيدته الرائعة « العالم الغامض » ومن الجدير بالذكر انه فى شعر ويتمان تظهر لأول مرة فى الأدب الأمريكى صورة الرجل العامل ، عامل المنجم وطارق الحديد والبناء ٠٠

عندما صدرت الطبعة الأولى من أوراق العشب تلقاها النقاد أسوأ لقاء ٠٠ فقد كتبت صحيفة بوسطن ان هذا الشعر خليط من

التلفيق والذاتية ، والاسفاف والعبث ، ويجب أن يضرب قائل هذا الشعر بالسوط عقابا له وأن يمنع من دخول المجتمعات الفاضلة ..

وعبر المحيط كتبت جريدة الناقد اللندنية ان معرفة ويتمان بالشعر مثل معرفة الخنزير بالرياضة ..

وكان هذا منذ مائة عام ، وخلال هذه الأعوام المائة لم يحظ ويتمان بعناية الأمريكيين الا قليلا . وكثير من النقاد المعاصرين يحاولون تشويه تراثه ، أما أولئك الأمريكيون الحريصون على تراث أمتهم التقدمى فهم يلهجون بذكر ويتمان فى كل مناسبة كأول شاعر أمريكى دعا الى الديمقراطية والاخاء ، وكان رائدا لقومه وللعالم فى دق أجراس الخطر والتنبيه لأخطار الراسمالية والاستغلال .. وقد كتب هيوارد فاست الكاتب الأمريكى المعروف ومؤلف قصة المواطن توم بين وقصة سبارتاكوس والمتهم بالعمل ضد النظام الأمريكى يقول : « ان ويتمان هو شاعر أمريكا القومى ، بل أحد الشعراء الأفذاذ الذى كتبوا للناس جميعا ..

وقال درايسر الكاتب الأمريكى التقدمى يقول « لقد كتب ويتمان ، نبى الديمقراطية منذ مائة عام أروع الأنغام ضد الحرب ..

« الكلمة فوق الجميع ، جميلة كالسماء ..

وجميل أن الحرب ، وكل افعالها فى التقبيل يجب أن توقف فى أوانها ..

وأن أيدى الشقيقين الليل والنهار ، يجب أن تغسل مرة ثانية ، هذا العالم المترب ..

لأن عدوى مات ، رجلا مثلى مات ..

تطلعت حيث يرقد ، أبيض الوجه ساكنا فى صندوقه ··

ثم اقتربت ··

وانحنيت ، وفى خفة لمست بشفتى وجهه الأبيض فى الصندوق »

ولم يشغل ويتمان قراءه بالمعميات والألغاز بل دعاهم الى التحرر · الى محبة الجســـد والروح والى أن يعرفوا قدرهم فى العالم ··

« ولأنى أقول للبشر ، لا تشغلوا كثيرا بالله لأننى أنا الذى شغلت بكل شىء ، لست مشغولا به ·· اننى أسمع الله والمسه فى كل شىء ، ولكنى لا أفهمه ·· اننى أرى بعضا من الله فى كل ساعة من الساعات الأربع والعشرين ·

فى وجوه الرجال والنساء أراه ، وفى وجهى بل فى كل دقيقة منها ··

حين أنظر فى المرآة ··

وأجد خطابات من الله ملقاة فى الطريق وموقعة باسمه ·· »

لقد كان ويتمان شــــاعرا رائدا ·· أطل بعينه النافذة خلال الأجيال فوعى أصوات الناس جميعا ، وأحب البشر ، وعلم الناس محبتهم ·

بين حناياى عـــديد من أصـــوات طويلة بكماء

أصوات أجيال لا تنتهى من المساجين والارقام

أصوات المرضى واليائسين واللصــوص والأقزام

لن تـــكاد تعـــرف من انا ، مـــا مقصــــــدى
ولـــكنى ـ مع نلك ـ ســـاكون صـــحتك الطيبة
وســـــانساب فى دمـــك ولفـــائف جســــدك
فاذا لم تجـــدنى بادىء الأمـــر ، فتشـــــجع
واذا افتقدتنى فى مكان واحد ففتش فى مكان آخر
فانى اقف فى مـــكان ما . منتظـــــرا لك ٠٠

صـــباح الخير ١٩٥٦/٩/٦

فيرنـــج

هذا العصر المجنون الذى يسحق الفرد سحقا ·· هل هو زمن بلا شعر ؟ زمن اجرد بارد الملامح ، ام أن له شعره ·· شعر الآلة الدوارة وانوار النيون التى تعشى البصر ، والكابوس الذى يربض بالليل على القلوب ··

لقد صنع الغرب حضارة الفريجيدير وتكييف الهواء والاشارات البرقية والصاروخ وآلاف المستحدثات الأخرى ، وجاد على الفنان بالآله الكاتبة وجهاز التسجيل وقلم الحبر الذى يمتلىء بمجرد غمسه فى الدواة ، ثم اخذ منه راحة البال ··

ماذا يقول الشاعر الذى يدور كالنحلة ، ويأكل عيشه بالفطنة كمندوب شركة التامين ، ويتفسخ آخر الليل كالجرادة فى النار ؟ ··

هذه هى الأفكار التى كتبها شاعر امريكى حديث فى آخر ديوان شعر اصدرته امريكا ·· والشاعر اسمه كنيث فيرنج ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، وهو ليس مبتدئا فى الفن فقد كتب قبل هذا الديوان سبع روايات طويلة ناجحة ، ولكنه وجد أن

كلمة الاحتجاج الحقيقية على الحضارة الأمريكية لا تقال الا شعرا فكتب كلاما قال عنه أحد النقاد :

« على طول الديوان ، ومن خلال قصائده التى تجاوز الخمسين تحس بحالة واحدة ٠٠ انسان حساس يجلس الى مكتبه فى الثالثة صباحا فى الدور الخامس والأربعين أو الخمسين من ناطحة سحاب، وفى أذنه أصـــداء رقصـــة الجـــاز الأخيرة ، واللمحة الخابية لاعلان النيون فى المبنى المقابل ، والتهديدات بالحرب الذرية ٠٠ ان قليلا من هذا الديوان يكفى لكى يبعث بالشاعر الى السجن » ٠٠

وقد عاش فيرنج ثلاثين سنة لكى يكتب هذه المجموعة ، وحين أراد فى المقدمة أن يطلق على هذا العصر تسمية جامعة سماه عصر التنفيذ ، كل شىء فيه حاسم وسريع كالسكين يقطع الرقبة دون مبالاة وقد قطع هذا العصر كثيرا من الرقاب ، ولكنه لم يقطع رقبة دون مبالاة وقد قطع هذا العصر كثيرا من الرقاب ، ولكنه لم يقطع رقبة الكلمة ٠٠

وبأبسط الكلمات عبر فيرنج عن مرض العصر حين قال فى قصيدة عنوانها س ناقص س :

حتى عندما يسكت صديقك ٠٠ الراديو

حتى عندما تنتهى من حملها الفتاة ٠٠ المجلة

حتى عندما تصمت دقات الرجل ٠٠ جهاز الاستقبال

حتى عندما يقفز مصير الناس ٠٠ الطريق الواسع

وبعدما تغلق تلك الجنة أبوابها ٠٠ صالة الرقص

وبعدما تطفأ انوار تلك المستشفى ٠٠ المسرح

ستظل هناك رغبتك ورغبتها وآماله وآمالهم ..

ضحكك وضحكهم ..

لعنته ولعنتك ..

فرحها وفرحهم ..

ضيقهم بالحياة وضيقه وضيقها وضيقك ..

حتى عندما يموت عدوك .. جامع الضرائب ..

وعندما ينام مستشارك .. البائع المتجول ..

وعندما تتكلم محبوبتك .. نجمة السينما ..

فسيظل ضيقك بالحياة وضيقه وضيقها وضيقهم ..

روزاليوسف ١٩٥٧/٦/٢٤

شاعر رقيق من الصحراء

الديوان اسمه الأمس الضائع ، وصاحبه من الحجاز ، شاعر لم اره ، ولكنى احسب انه من ذلك الجيل الجديد من اهل الجزيرة العربية الذى انفتحت عينه على الحضارة الجديدة ..

وهذه الطليعة من الناس لا ترضى بالحياة القديمة المأثورة التى يجرى كل شيء فيها على السنن القديم ، وهى كذلك لم تمتزج بعد بتلك الحضارة الحديثة الوافدة من الغرب ، والتى اختلطت ، وهى فى سبيلها الى الحجاز ، بروافد اخرى مصرية احيانا شامية احيانا اخرى ..

كان لابد ان يكون لهذا الجيل من اهل الحجاز شاعره ، وكان هذا الشاعر ، هو حسن عبد الله القرشى الذى لم اره ، والذى اظن انه شاب ، وانه قلق النفس متطلع الى آفاق جديدة، ربما كانت ابعد مدى من الصحراء التى يعيش فيها ..

الشاعر حسن عبد الله القرشي لا يرضى بمجتمعه الذى يعيش فيه ، فهو ينتقده ويدينه فى كلمات احتجاج ، وقد تفتقر هذه الكلمات

الى العمق ، وقد تفتقر الى أن ترتبط بنظرة كاملة فى الحياة ··
ولكنها على أى حال احتجاج شاعرى صاف ··

وما العــــزاء بدار طففت شــــجنى
واثقلتنى باغــــــلال واكــــدار
أرى بها كل جــافى الطبــع منتكس
محســــــدا ماس فى اثواب جبـــار
وكل فـــــذ كـــريم النفس منتبــذا
مــكانه بين اشــــواك واشــرار
تروم منى أن انســـى لبســــــمتها
كرامتى واضــــــحى قلبى الوارى
تروم منى تقبيــــــــلا لـــكل يد
صـــــيغت من الاثم او قدت من العـــار

* * *

أرق ما فى هذا الديوان غزله ، وهو فيه ليس متاثرا بعمر بن أبى ربيعة والأحوص كما قال أستاذنا الدكتور طه حسين فى المقدمة الجميلة التى خطها للديوان · ولكنه قد تاثر بشاعرنا المصرى العظيم الذى لم يرض عنه الدكتور طه حسين يوما ما ، وهو المرحوم ابراهيم ناجى ·

يقول شاعرنا الحجازى :

غـــــريبة روحي بهــــــذا الــورى

غـــــريبة غـــــرية أحســـــــاسى

ضــــقت بدنيـــــاى وما تحتـــوى

حتى لقـد ضــــــقت بانفـــــاسى

كم احبس الالام فى خـــــــــــافقى

وما لها فى خـــافقى من شـــــرود

تنتهى فيـــــــه نهش افعى فمــــــا

تهــــــدا آلامى حتى تعـــــــــود

عجبا ! هذه الروح الحلوة التى افتقدناها من سنين تعود الينا بسحرها الخافت وجمالها الصـــادق الوضىء ·· كل شىء حتى النغم ··

هذا احساس غمرنى وأنا أقرأ فى هذا الديوان الرقيق ، وتفكرت بعد قراءة الديوان ·· لقد كان ناجى قمة الرومانتيكية المصرية ، وكان أصدق الشعراء من نفسه ، واغتبطت لأن شاعرنا الحجازى قد وصل أو كاد الى تلك المرحلة التى يصبح كل لفظ فيها صادقا كوجه قائله ··

لقد ابتدأ الشعر فى الحجاز من حيث ابتدانا ، محافظا على التقاليد العربية معتزا بها وربما كان ماوصلنا من هذا الشعر قليل ، ولكنه الآن ـ كما يطالعنا هذا الديوان ـ يتحرر فى جســـارة من التقاليد المتوارثة ··

ويحاول أن يعبر عن ذات الشـــاعر ووقعها على مجتمعه ، ومازال هذان الغرضان يتوزعان الشعراء حتى يتم ذلك التوازن المنشود ، فيرى الشاعر نفسه فى مجتمعه ، ويصبح هو قلب هذا المجتمع ..

وسنرى فى شاعرنا الحجازى بشائر هذا الشـــاعر الجديد وربما كانت تجاربه فى التعبير عن المجتمع اقل اصالة من تجاربه فى التعبير عن نفسه ..

هذا الدخيـــل بارضـــــنا ماذا يروم ؟
كم خضبت يده الدماء دماء احرار الشعوب
يده المدماة الأثيمة تســـرق الحق الصراح
وكم اشـــــتكت منـــــه البحـــــار
قرصـــــانها المـــــرح الطـــــروب
ثقـــــلا يحط على القـــــلوب !

كنت أؤثر أن يعبر الشاعر عن هذه الأفكار فى الشكل الشعرى القديم ، فهو لم يستوعب مذاهب الشكل الحديث فى الأداء والتصرف بعد ، ويقينى أن الشاعر عندما يتكامل لديه التبنى لقضايا مجتمعه وعندما يتجاوز حدود أحزانه تلك التى غناها غناء جميلا ، فسيكون منشعراء الحجاز فى الطليعة ، وسيكون بين شعراء العربية شاعرا مرموقا ..

صباح الخير ١٩٥٧/٧/١٨

شعراء وكتـــاب من سوريا

فى كل لقاء باخواننا المواطنين العرب كانوا يعتبون علينا اننا لا نهتم بأدبائهم وكتابهم وثقـــافتهم مثل اهتمامهم بأدبائنا وكتابنا وثقافتنا .. وكان اصفى هذا العتب واعنفه فى ذات الوقت هو عتاب مواطنينا ساكنى سوريا ، واذكر ان نبرات هذا العتاب كانت تتردد كثيرا فى المؤتمر الأخير للكتاب العرب ، وكنا لا نستطيع على ذلك العتاب جوابا ولا نملك له ردا الا الابتسامة الأخوية المستعطفة ، ذلك لأننا نعرف أن أسماء كتابنا نحن من طه حسين والحكيم الى آخر جيل من الكتاب والأدباء تتردد كثيرا على لسان القارىء العربى ، وتعيش آثارها الطيبة فى وجدانه ، بينما تظل أســـماء مثل عمر أبو ريشة ونزار قبانى وحنا مينه وغيرهم من الكتاب السوريين بعيدة عن القارىء المصرى الا بمقدار .

والواقع ان فى سوريا أدبا رائعا ، فيه الاصالة العربية المشرقة .. وفيه الى ذلك سمات التحرر الوطنى الذى تواكبت فى ركبه سوريا ومصر ، وتوج أخيرا باتحادها التاريخى ..

ومن اجمل ما اقتنيت من الذكريات لقاء لى بثلاثة من أدباء سوريا

الشباب ، كان اللقاء الأول مع الشاعر الكبير نزار قبانى ، وكنت الى ذلك الحين أعرف نزارا من قصائده الجميلة التى تنشر فى الصحف الأدبية ، ومن دواوينه التى كرمنى فأهدى الى بعضها على غير معرفة لقاء ، وذات يوم كنت فى عملى بالمجلة حين دق جرس التليفون وسمعت صوتا يقول : انا نزار قبانى ·· وتواعدنا أنا ونزار على لقاء وحين رأيته لأول وهلة كانت الصورة التى تخيلتها عنه هى تماما صورته ، قامة عربية ممشوقة ، وملامح متناسقة ، وعينان متألقتان ، وبساطة رائعة محببة ، وسهرنا تلك الليلة سهرة شعرية طويلة فى مكتب الصديق الكبير الشاعر كامل الشناوى ··

لقد كنت أتخيل نزار وسيما ، وهكذا كان ، وكنت اتخيله أنيس المحضـــــر عند الحديث ، وهكذا رأيته ايضا ، أما العلة فى هذه الصورة التى رسمتها له فهو انه « شاعر المرأة الأول فى شعرنا العربى » من قراءة نزار لابد أن تتخيل أنه « دون جوان » ان الصورة التى يرسمها نزار للمرأة كلها حب ورقة وأناقة ··

يقول نزار فى قصيدة له بعنوان ساعى البريد يصف فيها فرحة رجل بخطاب أتاه من حبيبته :

وموزع الأشـــــواق يترك فرحة فى كل باب

خطواته فى درب شارعنا حديث مســتطاب

وحقيبة الآمال ترشـــح بالتحارير الرطاب

نقر على بابى أظن أم الرياح لها اصطخاب

انا قبل ان كان الجواب اعيش فى وهم الجـواب

وأكاد التهم النقاب الفســتقى ولا نقـــاب

يا انت ياســــاعى البريد ببابنا ، هل من خطاب

انبش حقيبتك التى تمت كأقبيــة الشــراب

هذا غلافى القـــرمزى يــكاد يلتهب ألتهــــاب

عنوانه عنوان منزلنا المغمس فى الســحاب

عنوانه عند النجوم الحانيات على الهضـــاب

طيبان لى،طيب الحروف وطيب كاتبة الكتاب

ولكن الأحداث الأخيرة قد جعلت من نزار شاعر المرأة ، شاعر الوطن أيضا . فهزت وجدانه ، فكتب عن كارثة فلسطين ، وعن حرب القنال ، وعن وحدة العرب ‥ كل ذلك بنفس هذا النغم الموسيقى العذب ، وحين انتهت ليلتنا الممتعة مع نزار كان قد أشجانا بنغمه الرائع من قديمه وحديثه ‥

واللقاء الثانى كان مع الأديبين الشابين شوقى بغدادى الشاعر وحنا مينه القصاص ‥ وكان ذلك فى مؤتمر الأدباء العرب ‥ اما شوقىفشاعر ثائر ، هو شاعر الوطن العربى وشاعر الكفاح أيضا فى كل مكان ، وأنغامه الحادة المتحمسة تساهم فى التبشير بجميع القضايا الوطنية والاستقلالية فى وطننا وفى عالمنا الكبير ، ولشوقى شعر فى ايران وفى الصين وفى الجزائر وفى كل مكان فيه معركة صراع بين مستعمر ومتحرر ، وهو ممتلىء تفاؤلا بمستقبل الحياة وسيرها الدائب نحو الكمال :

ستملا الشــــارع المســـــدود قافلة

من الجياع ، الا يا طول ما انتظروا

وســـوف تنطلق الاجــراس داوية

قاذ بكل مـــكان منهم ·· نفــــــر

وشوقى بغدادى حين يلقى شعره تحس بذلك الحماس يتأجج بين جوانحه ، وتندفع الكلمات من فمه فى ايقاع منفعل ·· هو شاعر جماهير بأوضح معانى هذه الكلمة ··

وأذكر فى الليلة الشعرية التى أقيمت بقصر المنيل أثناء انعقاد مؤتمر الأدباء أن كثيرا من الشعراء سامحهم الله ، اخذوا يلقون المطولات حتى غلب الملل على المستمعين ، وأوشكوا أن يستجيروا بالله من الشعر وأهله ، وما أن قدم المذيع شوقى بغدادى ، ووقف شوقى ليلقى قصيدة قصيرة عن الجزائر حتى ضجت القاعة بالتصفيق والاستحسان ، واسترد الشـــعر جمهوره ، وانتصـــرت الكلمة الجميلة ··

وشوقى شاعر غزل أيضا ، ولكنه يكتم كثيرا من شعره الغزلى حتى لا يقول قائل أنه قد انصـــرف عن التغنى للناس الى التغنى لنفسه ، ولكنى أناشده أن يخرج هذه الأغانى الغزلية الجميلة فى ديوان ·

أما حنا مينه فهو قصاص الواقعية الأول فى سوريا ، فان روايته « المصابيح الزرق » تعد علامة من علامات الطريق فى تطور القصة السورية ·· وهى الى جانب ذلك أثر أدبى عربى خالد ·

المصابيح الزرق قصة أيام الحرب الماضية ، كيف مرت تلك الأيام على حارة سورية ضيقة بأهلها الفقراء ، وكيف كانت القرية تعانى من قسوة الحياة وضنك العيش واستبداد المستعمر وتواطؤ المختار (العمدة) ··

وفى هذه الرواية الرائعة شخصيات مرسومة بمهارة ، وأحداث نتجمع لتؤدى فى النهاية الى بناء روائى شامخ ، ومغزى اجتماعى عميق .

وغير هؤلاء هناك القصاص سعيد حوارنيه ، وله مجموعة قصص قصيرة طيبة « وغى الناس المسرة » وسعيد قصاص واقعى كذلك ، جعل دأبه التعبير عن الناس ، وفى قصصه الى جانب ذلك الايمان بقدرة الانسان على فعل الخير ، والتفاؤل بمستقبل أكثر سعادة للبشر ..

هؤلاء الأربعة هم أبرز كتاب الشباب فى سوريا ، ولكن هناك جيلا آخر ، هو الجيل الذى سبق هذا العهد الذى نعيشه ، وهو الذى أرسى قواعد النهضة الأدبية المعاصرة ، وشاعر تلك الحقبة هو الشاعر الكبير عمر أبو ريشة ، ذلك الشاعر الذى تحس فى شعره بكل مميزات الشعر العربى من المهارة وقوة الدفع والاندفاع ، والذى جعل من شعره مجالا للتعبير عن آمال العرب والتغنى بأمجادهم وانتصاراتهم ..

ومن أدباء هذا الجيل الأستاذ شفيق جبرى ، وهو من أحسن الدارسين للأدب والحضارة العربية كما أن له الماما كبيرا بالثقافة العالمية ، وله كتب ومؤلفات يستفيد منها الناشئة من الدارسين ..

لقد أصبحت سوريا ومصر وطنا واحدا ، ومما لاشك فيه أن هذه الوحدة السياسية سيكون لها صداها الثقافى فى مستقبل الأيام.

صباح الخير ١٩٥٨/٢/٦

كيف فهم شــوقى الوطنية ؟

فى الاحتفال الذى أقامه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى ذكرى شوقى ، ألقيت عشرات القصائد ومئات الأبيات ··

ولكن الأبيات القليلة التى كتبها شوقى نفسه والتى وردت فى كلمات المتحدثين والمعلقين كانت هى أجمل ما قيل فى الاحتفال ·

أما الكلمات التى ألقيت فى هذه الاحتفالات فقد شملت نواحى كثيرة من حياة شوقى وشعره ، وتطرق كثير من هذه الكلمات الى دراسة اتجاهات شوقى السياسية · وحاول بعض المتحدثين أن يجعل من شوقى رائدا من رواد الوطنية والقومية العربية ·· بمعناها الثورى الحديث ولم يحاول أحد المتحدثين أن يضع شوقى فى داخل اطار زمانه ، وأن يدرس اتجاهاته السياسية بالنسبة للسنوات التى عاشها فى أوائل هذا القرن ·

لقد اشتط بعض المتحدثين ، وسحبوا جثمان شوقى من سنة ١٩٣٢ لكى يجعلوه يعيش ويتنفس فى عامنا سنة ١٩٥٨ ، ولكى يضـــعوا على كتفيه أعباء هذه الأيام ·· ويعلقوا على صـــدره شعاراتها ··

وكان هذا الموقف الذى وقفه المتحدثون فى الواقع موقفا غير اصيل ٠٠ انه « رد فعل » للتهم التى توجه الى شوقى فى وطنيته ، والتى تتخذ ذريعتها من تجسيم علاقة شوقى بالبيت المالك وولائه له ٠٠

والواقع ٠٠ وانا اقولها الآن دون أى حماس أو افتئات على التاريخ ان شوقى كان شاعرا وطنيا بمفهوم الوطنية فى عصره ٠٠ كان شاعرا قوميا كماكان الناس يفهمون القومية ، وذلك برغم علاقته الوثيقة بالبيت المالك ٠٠

يتميز مفهوم القومية فى السنوات الماضية من القرن العشرين بانتقالتين هامتين ٠٠

ففى السنوات الأولى كانت جمهرة المصريين تحس أن مصر جزء من املاك الدولة العثمانية ، وأن الولاء للسلطان فى الآستانة هو الولاء الذى يجب أن يحسه كل مصرى ، اذ ان هذا الولاء هو مفتاح النجاح فى الدنيا والآخرة ٠

كان الشعور الاسلامى الجارف يملأ القلوب ، أما بين صفوف المفكرين فقد كانت افكار ٠٠ الجامعة الاسلامية ٠٠ ووحدة العالم الاسلامى ضد الغرب المستعمر ٠٠ كانت هذه الأفكار هى المسيطرة على العقول المفكرة منذ أن دعا جمال الدين الأفغانى الى الوحدة الاسلامية ، وأيده فى هذا الاتجاه مفكرون من جميع أنحاء العالم العربى والاسلامى مثل عبد الرحمن الكواكبى الحلبى والثعالبى التونسى ومدحت باشا التركى وغيرهم ٠٠

كان هذا الشعور قويا جارفا ، وكانت قوته فى مصر اكبر منها فى أى قطر عربى آخر ، فحينما اشتعلت الشام بالثورة العربية على

مظالم حزب الاتحاد والترقى التركى ، كانت مصر مازالت تسبح بحمد الخليفة العثمانى ، وتعتبر الولاء له وطنيا قوميا ..

وكان شوقى - شاعر مصر الأول - هو أوفى معبر عن هذه النزعة الاسلامية .. فكتب شوقى يمدح سلاطين آل عثمان ويهنئهم ، ويمدح الخديو ممثل سلاطين آل عثمان ويهنئه . وفجع شوقى باندحار الدولة العثمانية كما فجع فى ذلك جميع العوام من المسلمين وكثير من مفكريهم ..

كان شوقى فى هذه المرحلة من حياته .. رجلا قوميا وطنيا بالمفهوم المتخلف الذى كان يسود مصر فى هذا الزمان ..

ثم حدثت نقلة خطيرة ، كانت الجرثومة الأولى لهذه النقلة هى الثورة العرابية التى دفنت هى وذكرياتها فى التراب فى عهد الاحتلال .. وكانت الجرثومة الثانية لها هى دعوة بعض المثقفين من المصريين كلطفى السيد وهيكل وغيرهما الى القومية المصرية ..

انفصلت مصر عن ركب الوحدة الاسلامية أوكادت . واصبحت لها معاركها الخاصة وانتصاراتها الضخمة أو هزائمها الساحقة . أصبح لمصر حياة وطنية وجدانية مستقلة ..

وعبر شوقى فى هذه الفترة عن هذه الحياة أيضا . ولكن من وجهة نظر معقولة .. فكتب عن سعد زغلول ومجلس النواب المصرى الأول والغاء الحماية والاعتداء على الاستقلال ، وغير ذلك من المناسبات الوطنية القومية ..

ولن نستطيع نحن الذين عشنا بعد شوقى سنوات ، وتفتحت عيوننا على مفهوم قومى جديد ، أن نطالب شوقى بأن يكون معبرا عن

هذا المفهوم · فان كبار الساسة الذين عاصرهم شوقى جميعا من مصطفى كامل ولطفى السيد وسعد زغلول وغيرهم ، لم يكن يدور فى اذهانهم جميعا أى مفهوم قومى عربى ، ولعل اشدهم حملة على ذلك المفهوم كان هو سعد زغلول ، أبرز الزعامات السياسية فى ذلك العصر ·

ان شوقى شاعر ضخم ، اضخم مما يلوح للناظر اليه من بعيد · ان شوقى شاعر هرمى ، قاعدته مكونة من الوف الأحجار ، وكل حجر له لونه الخاص ·· تستطيع أنت من تتبع شعر شوقى أن تجد شواهد على عروبة شوقى واسلاميته ومصريته وتركيته وعالميته ، بل اسلامه ومسيحيته بل فرعونيته ، وكل ذلك فى وقت واحد ·

ولعل هذا هو الشىء العظيم فى شوقى بالمفهوم الساذج للعظمة ·· لقد استوعب شوقى كل اتجاهات عصره ، واتسعت نفسه لهذه الاتجاهات جميعا ، وعبر عنها جميعا بالحماس والاتقان والبراعة ·

وهذا ايضا هو ما يلوم النقاد والمحدثون شوقى عليه ، انهم يتساءلون ·· اين وجهة نظره هو ؟

وجواب السؤال ، أن وجهة نظر شوقى هى العصر جميعه ، هى افكار العصر وثقافة العصر واحساس العصر ·

ولكن هناك شيئا رئيسيا ربط شوقى على طول حياته بالاتجاهين اللذين ذكرتهما ·· اتجاه الاسلام واتجاه المصرية ··

اما اتجاه الاسلام فيرجع الى وراثة شوقى وبيئته التى عاش فيها · ان شوقى كما حدث عن نفسه سليل وراثات تركية شركسية

يونانية ، ولم يكن هناك ما يستطيع أن يجمع هذه القوميات جميعها ويبلورها فى اطار واحد سوى قومية أعـم وأشـمل ٠٠ القومية الاسلامية ٠٠

ووجدت هذه القومية شكلها المتميز الحى فى الولاء للدولة العثمانية ٠

أما المصرية فقد تسللت الى نفس شوقى بعد سقوط العثمانيين ، وبعد أن أصبح الحكم الجديد فى تركيا على يد أتاتورك حكما مدنيا معاديا للدين والتقاليد ، وأصبح الاسلام أكثر ارتباطا بالقاهرة منه بأية عاصمة من العواصم الأخرى ٠٠

ان شوقى شاعر عظيم ، أعظم مما يتصور هؤلاء النقاد ، ان شوقى أعظم من أن يلقى بيت من أبياته على سبيل الاستشهاد أو أن تقود قصيدة من قصائده مظاهرة ثم تنفض هذه المظاهرة ٠

ان عظمة شوقى عظمة تاريخية ، فكما كانت السنوات الأولى من القرن العشرين سنوات عظيمة فى تاريخ الوطن ، دفعته هذه السنوات الى أن يعود الى تاريخه القديم ويستخرج العناصر الطيبة فيه دفعته أيضا الى أن يفتح عيونه على ثقافة الغرب ، وأن يحاول أن يأخذ من أشكال الحياة فيه ما يعجبه ، كذلك كان شوقى شاعرا عظيما فى عودته الظافرة الى تراثنا العربى ، يعرضه علينا عرضا جديدا ، ويأخذ من تقاليده الشعرية أحلى ما فيها ، وكانت عظمته أيضا فى انفتاح عيونه على أوروبا ، على أشكال الشعر المسرحى وقصص الأطفال وبعض القصائد التى تكاد تشابه الملاحم فى أنفاسها وبنيتها ٠٠

ان شوقى هو صورة العصر الأدبية والفنية ، هو هرمه الواسع القاعدة المرتفع القمة الذىيمثل كل حجر من احجاره شيئا من روح هذا العصر ٠

ويكفينا هذا فخرا لشوقى الذى مات فى اكتوبر سنة ١٩٣٢ ، ولم يتاخر فى شعره ومفهومه القومى عن هذا التاريخ خطوة واحدة ، ولم يتقدم عنه أيضا ٠

روزاليوسف ٢٠ ـ ١٠ ـ ١٩٥٨

اصوات العصر

شاعرة أوحت لزوجها بمذهب فى النقد

الدكتور محمد مندور يقول لنا فى المقدمة التى كتبها لديوان زوجته الشاعرة « ملك عبد العزيز » : ان شعرها هو الذى أوحى اليه باصطلاح الشعر المهموس ، وكان قد عاد من بعثته الطويلة فى أوربا ليعمل مدرسا بكلية الآداب ، وكانت هى تلميذته ٠٠ وسمع شعرها « الذى تفتحت عنه روحها الغضة » ، وأحس حين سمع بأن هذه الشاعرة تهمس ولا تصرخ ، وتناجى ولا تخطب ، فاهتدى الى مذهبه ، ثم « هدت شخصيتها روحه الظمأى الى الجمال » ٠٠ فتزوجها ، وانجبت توأمين ، وهى مازالت فى سنتها الأخيرة بكلية الآداب ٠

والديوان الذى تقدمه الشاعرة ملك عبد العزيز للقراء هذا الأسبوع هو خلاصة شعرها الذى كتبته فى عشرين عاما منذ أن كانت طالبة بالجامعة حتى اصبحت زوجة واما لخمســـة ابناء ، وأوضح ما فى ديوانها هو انفعالها الفريد بالطبيعة ، بالشفق والقمر ونجمة الغروب ٠

فالشاعرة التى عاشت فى الحب والزواج والأسرة السعيدة كانت صادقة مع حياتها ، فقصرت غناءها على الطبيعة ٠

صباح الخير ١٩٥٩/١٠/٨

ثلاث دروس من الشاعر اليوت

الضجة النقدية القائمة الآن تلوك اسم « اليوت » باسراف ولا يكلف أحد من مروجى الضجة نفسه ، عناء تقديم الشاعر الكبير وآرائه النقدية ومسرحياته الشعرية الى القراء ، لكى يعرف هذا القارىء المحايد ، ماذا عسى أن يكون موقفه من هذه الضجة العالية ؟

واليوت شاعر قدمه الدكتور لويس عوض للقارىء العربى منذ سنوات طويلة فى مقالة نقدية جيدة ، وكانت هذه المقالة هى الشىء الوحيد النافع فى كل ما كتب عنه ، ثم سكتت بعد ذلك الأقلام سواء عن ترجمة شعره أو آرائه النقدية ، حتى هبت هذه الضجة ، وتلفت القارىء يبحث عن معلومات مفيدة عن هذا الشاعر الذى يملأون باسمه وبالجدل حوله أعمدة الصحف اليومية ، فلم يجد شيئا .

اليوت وشعره ومذهبه الشعرى والنقدى حقيقة من حقائق عصرنا الأدبية الكبرى ، أن مجرد قراءة أدبه يفتح لنا مجالا خصبا للاستفادة منه ، استفادة أوسع من مجرد الاعتماد على رأى من آرائه فى خلق معركة واثارة ضجة .

فاولا : اليوت من اكثر الأدباء الذين يكتبون بالانجليزية معرفة بلغته ، واهتماما بدراستها ، حتى ليصح أن يقال انه احد فقهاء اللغة ولا زلت أذكر كلمة قالها أحد النقاد عنه « ان مستر اليوت يستطيع أن يفعل باللغة الانجليزية ما يشاء » ..

ثانيا : اليوت عالم بالفرنسية والالمانية واللاتينية واليونانية ومطلع على آداب هذه اللغات ، وعلى تراثها الفنى كله ، كما انه واسع الاطلاع على الميثولوجيا والأساطير اليونانية الرومانية ، والبابلية القديمة ، وهو لاشك ، قد أنفق سنوات طويلة من عمره لكى يعد نفسه هذا الاعداد الواسع لحمل أمانة التعبير الأدبى .

ثالثا : اليوت صاحب مذهب فى الحياة كما هو صاحب مذهب في الأدب ، بدأ اليوت حياته أمريكيا بروتستانتيا ، وانهى حياته انجليزيا كاثوليكيا ، قال عن نفسه : انه ملكي فى السياسة ، كاثوليكى فى العقيدة ، محافظ فى الأدب ، ومن يقرأ شعر اليوت ونقده يجد أن كل ما يكتبه هذا الشاعر هو تعبير عن وجهة نظر متكاملة موحدة ، كانه فيلسوف يحاول أن ينسج من الشعر خيوط مدينة فاضلة جديدة .. المدينة الفاضلة فى نظره ، هى تلك المدينة التي تدق فيها أجراس الكنيسة ، وترتفع فيها راية الايمان العميق .. وتؤمن بالروح والطهارة ..

وقد توافق اليوت على آرائه ، ومذهبه فى النقد ، أو لا توافقه عليه . ولكنك لا تملك الا أن تناقش هذه الآراء ، وأن تحترمها وأن تؤمن معه بأن فنان العصر الحديث وشاعره لابد أن تكون له وجهة نظر فى الحياة ، وذلك بعد ان يعرف لغته معرفة جيدة وبعد أن تحيط ثقافته بالتيارات الفكرية المختلفة في عالمه .

ونحن الذين نتحدث عن اليوت ·· معظمنا يعرف لغته الغربية معرفة جيدة ، ويقرأ الأدب العالمى بصعوبة ، ولا يعرف مكانه من العالم ·

ومع ذلك ، فنحن نتسكع منذ شهر أو يزيد على رصيف رأى عابر ، للشاعر الناقد ، المثقف ت · س · اليوت ·

روزاليوسف ١٦ ـ ١ ـ ١٩٦١

شاعر البحار الهادئة

أحمد رامى ، شاعر عريق فى صناعة القريض ، له فيها تجربة نصف قرن من الزمان ، فهو الآن فوق السبعين بقليل أو دونها بأقل . وغلاف ديوانه الذى صدر أخيرا لا ينبئنا بعام ميلاده ، ولكنه يتيح لنا مجال الاستنتاج حين يحدثنا فى هذه الملحوظة الصغيرة تحت صورة الشاعر على ظهر الغلاف ، يحدثنا بأن الشاعر تخرج من مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ ، وأظن العشرين أو ما فوقها هى أنسب الأعمار لاتمام الدراسة العالية . وقد عمل الشاعر بعد تخرجه فى دار الكتب ، حيث أسرت الوظيفة حافظ ابراهيم ، ثم أوفد فى بعثة الى باريس فى عام ١٩٢٣ ليدرس الآداب الفارسية فعاد محبا للخيام ، الشاعر اللغز ، الذى تنازعه أهل الطرب وأهل الطريق ، ولهج بشعره السكارى والمتصوفون على حد سواء .

وارتبط اسم رامى بتجديد الغناء المصرى فى لغته وأسلوبه وأفكاره وعواطفه منذ عودته الى يومنا هذا ، ومازال أحمد رامى حتى الآن شاعرا مغردا يطلق سبحات الوجدان ، فيزركش الموسيقيون لها البطانة الموسيقية الملائمة وتنطلق بها أصوات مطربى مصر ، وفى مقدمتهم القطبان الكبيران : أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .

وديوان رامى الذى صدر حديثا هو كل ما خطه هذا الشاعر فى نصف قرن من شعر فصيح وشعر عامى ، فضلا عن محاولة مسرحية قصيرة ، تدور حول الولادة بنت المستكفى ، والشاعر ابن زيدون ، وقصـــة غرامهما الخائب • كل ذلك فى حوالى مائتين وخمسين صفحة • والقارىء الذى اعتاد الكم الهائل للشعراء العرب قد يتساءل : أليس ذلك القدر عطاء قليلا فى جانب الســـنوات الخمسين ؟ ولكن الأصوب أن لا نقيس الشعر بالكم ، فكم من شاعر خلد بقصيدة ، وكم من بيت مفرد هو أعظم من ديوان بأكمله •

وقيمة هذا الديوان لا تخفى على القارىء ، فرامى شاعر فريد، بين شعراء القرن العشرين العرب • لأن عالمه عالم متميز ، وهو قلما يخرج من عالمه الى غيره من العوالم الأخرى بل هو دؤوب فى ميدانه ، يحفر أرض تجربته عمقا ، ولكنه لا يزيد هذه الأرض اتساعا •• وتجربته هى تجربة الحب والغناء به ووصف حالاته وتلوينها بألوان الطبيعة • وهذه الدائرة الضـــيقة التى يحلق فيها رامى لا نستطيع أن نحاسبه على ضيقها ، بل نكاد نعتبرها ميزة له لأنه شاعر عرف نفسه فى وسط الهمهمة والغموض اللذين كانا يملآن مطالع القرن العشرين •

وثمة قيمة أخرى لهذا الديوان ، وهو أنه يطلعنا على كفاح المدرسة الرومانتيكية العربية فى سبيل تخليص الشعر من أثقال التقليد ، وكيف أنهم وقفوا حينا ، وخطوا حينا ، وكيف أن أقدامهم كانت راسخة فى التقليد بحيث تتضح فى أشـــعارهم الأولى تلك الثنائية بين التقليد والابتداع ، يتضح ذلك فىثنائية اللغة المستعملة وفى ثنائية الرؤية الشعرية وترددها بين الابتداع الحر أو التقليد المتهافت •

ولاشك فى ان رامى بدأ حياته الشعرية أسيراً لمفهوم الجزالة العربى ، حريصا على اختيار أشد ألفاظ اللغة وقعا على الآذان ، وأكثرها دلالة على تمكن الشاعر من تراث الأقدمين · ولعل من التناقض الواضح أن نجد لرامى مؤلف أغنية « جددت حبك ليه » مثلا نجد له أبياتا كهذه الأبيات فى ديوانه :

يقول :

ان الحيـــــاة فـــلاة انت قاطعهـــا
وكل مرحـــــلة يوم تقضــــــيه
وأنت بالعمــــر طـــاويها على عجل
لابد للقفــــــر من تعــــريس طـاويه

وتجد له مثلا بيتين يختلفان كل الاختلاف بل يتناقضـــــان فى بنائهما وألفاظهما وهما رغم ذلك يتتابعان ، يقول الشاعر :

أنا ان عشـــــت لا اعيش لنفســـى
فمقــــــامى اسـمتزواحة لظاعـــين
انما العيش روضـــــــة أنا فيهـــا
زهــرة لا تظـــــل بين الغصــــــون

تلك الثنائية فى القاموس اللغوى ، تصحبها ثنائية أخرى ، هى ثنائية الرؤية الشعرية ، فنحن نقرأ فى انتاجه الأول أبياتا لا نملك الا بأن نتذكر أصولها فى تراثنا العربى ·· لا نملك مثلا الا بأن نتذكر المتنبى وبيته الشهير « خلفت الوفا لو رجعت الى الصبا ·· » حين

نقرأ رامى : « وأميل للاخلاص حتى للأمسى » وأن نتذكر الشعر العربى بكليشيهاته المختلفة ، حين نقرأ لرامى « ولقد صــــحبت الدهر فى أطواره » أو قوله « والناس صنفان : ريان أخو شبع ·· الخ » ·

ولاشك أن رامى قد أفلت من سيطرة هذه الثنائية الواضحة ، وخاصة بعد عودته من باريس ، والتقائه بأم كلثوم ، واهتمامه بالغناء والتطريب · فلقد ساعد الغناء على تطوير شعر رامى وتخليصه من النبرة الخطابية الجهيرة التى ورثها عن تراثنا العربى · وشعر رامى من هذه الناحية جدير باثبات تلك النظـــرة التى تربط تطور الشعر العربى بتطور وسيلة تلقيه واستقباله · فالشعر ككل الفنون لا تتم دائرته الا بالتقاء الشاعر بالمتلقى ، والمتلقى هو الذى يفرض المصطلح الشعرى فى نوع من التراضى الخفى بينه وبين الشاعر · وقد كان الشاعر الجاهلى مثلاً يقف على صخرة السوق العالية ، ويخاطب جمهورا غفيرا من الناس ولذلك كانت النزعة الخطابية لازمة من لوازمه · ومؤرخو الأدب يذكرون أن الشعر العربى قد تغير تغيرا جوهريا حين ارتبط بالغناء فى الحواضر الاسلامية مثل « مكة » و « المدينة » فى العصر الأموى ، فمال الشاعر الى الأوزان القصار والكلمات الخفيفة الوقع ، بل وتغيرت أيضا اهتماماته ، فولد الشعر العذرى الذى يتغنى بتلك العواطف الرقيقة ، ويحكى مابين الرجل والمرأة من أشجان وأشواق ·

كان الشعر العربى خطابة فى جاهليته أو فيما حفظ لنا التاريخ من شعر جاهليته وحين ارتبط بالبلاط حافظ على ذلك الطابع اللهم الا فى البيئات التى شاع فيها الغناء ، وهو الآن شعر مقروء فى أكثر الأحوال ، ومن هنا أصبح هذا الشـــعر همسا فى معظم نماذجه الناجحة ·

وقد ساعد الغناء بلاشك على تخليص رامى من هذه الثنائية المترددة بين الخطابة والترنم ، فارتبط شعره بالغناء ، وقاده الغناء الى الشعر العامى ، وظل يتأرجح بين شعر الغناء الفصيح وشعر الغناء العامى حتى الآن ·

ومن البديهى أن رامى كان من أوائل الرومانتيكيين تاريخا ووجودا ، ولعل هذا المزاج الرومانتيكى كان ضريبة العصر التى فرضها على شعرائه ، ونجد رامى يقول فى قصيدة متقدمة :

هاتى املئى كأس الشـــــقاء فاننى
أســـــتمرىء الأحــــزان يا أيامى
الحزن أدبنى ، وهذب خـــــاطرى
وانالنى افق الخيـــال الســـــامى
وأســـال أســـراب الدموع فصغتها
صـــوغ المعانى فى شـــجى نظامى
وارق احســـاسى ومد عــــواطفى
فوصـــلت كل الناس فى ارحـــامى
قاســـمتهم احـــزانهم ، وحملت من
اعبـــائهم شـــطرا من الالام

ومن الواجب أن نقف عند كلمة (أستمرىء الأحزان) ونسير على هديها فى قراءتنا لهذاالديوان ، فهو محاولة لاستخراج المعنى الحزين فى كل شىء · والحزن ليس عميقا كما يبدو ، ولكنه شفاف

رقيق . هو حزن لا يرتبط بالمعانى الكلية كمشكلات الموت والوجود والحرية وغيرها ، بل هو يرتبط بما يكون بين الرجل والمرأة من عواطف متناقضة متغايرة .

لقد آثر رامى أن يقصر شعره الا فيما ندر على هذا العالم ، عالم الغيرة والشك والنظرات والعبرات ، والكلمات القاسية والرقيقة والغمز واللمز ، فكأن هذاالحب نفسه ليس حبا لذاته ، ولكنه حب لاستخراج ما فيه من الشعر ، ولتجسيم حالاته الانفعالية والنفسية .

ويذكرنى الحب فى ديوان رامى ، بحب شاعر عباسى ، لو قلنا بتناسخ الأرواح لكان رامى هو هذا الشاعر فى صورته القرن عشرينية ، ذلك هو الشاعر العباس بن الأحنف .

كان العباس بن الأحنف يحب « فوزا » البغدادية واشتهر بحبها، وكان حريصا على أن يذيع بين الناس أن بينهما حبا ، وانه فى هذا الحب مشعل القلب مؤرق الفكر ، حتى قال أحد ظرفاء العصـــر عنهما :

اذا مـــا رمت أن تصـــــنع
شـــيئا يعجب الناســــــا

فصـــــورها هنـــا « فوزا »
وصـــــور ثم عباســــــا

فـــان لم يتقـــــاربا حتى
ترى راســــيهما راســـا

فكذبهـــــا بما قاســــت
وكــــذبه بمـــا قـــاسى

هذا الحب نصفه احساس ونصفه تربص بذلك الاحساس ، كأن الشاعر يستدعيه ، وهو حب لا ينبت الا فى الصالونات أو أبهاء القصور ، حيث يكون للاشارة معنى وللغمزة مدلول ، وحيث تكون الكلمات حافلة بالتورية والتلميح ، وحيث تولد الأحزان ثم تنقشع فى لحظات • ان فيه شيئا من « التحبب » أو اصطناع الحب بقدر ما فيه من الحب الصادق •

يحدثنا رامى فى احدى قصائده عن الغيرة ـ تلك التى صيرت عطيل وحشا وديدمونة ضحية ـ فيقول لنا انه لا يغار لأنه يريد أن يرى كل الناس جمال محبوبته ، ثم يبدأ فى توليد المعانى العقلية عن أصل الغيرة • فهو يبغى أن يعجب الناس به وبمحبوبته معا حين يرون روعة اختيار كل منهما للآخر ، ثم يختم القصيدة بهذه الأبيات المتكلفة الاحساس :

انا ان غرت لا اغار على حسنك الا من طرفك الوسنان

انه يجتلى مشاهد من حسنك يشتاق ان يراها عيانى

ويرى منك ما يرى خاطرى فيك ، ويشقى بحسرة الحرمان

هذا الحب «المدنى » يختلف تماما عن الحب « البدوى » الذى عرفناه باسم الحب العذرى فى أدبنا العربى ، وهو الذى اكسب ديوان رامى هذا الطابع •

الاهـــرام ١٩٦٢/١٢/٢٧

حتى نقهر الموت

الأفلاطونية المحدثة عند
وليم بليك

وليم بليك شـــاعر انجليزى متميز ، من يقرأ شعره ويعرف حياته لا يستطيع الا احد أمرين ، اما أن يحبه ويكلف به ، أو ينصرف عنه زاهدا • وكذلك كان حظه عند النقاد ، فان أولئك الذين اهتموا أبلغ الاهتمام بشـــعر بايرون وشللى وكيتس وورد زورث وعدوهم أعظم المواهب الشعرية فى اللغة الانجليزية بعد شكسبير ، لم يضيفوا اليهم بليك ، بينما اهتم به نقاد آخرون ، ومن أبرزهم الشاعر الناقد ت٠س٠ اليوت الذي لم يستوقفه في شعر مابعد شكسبير كله غير سوينبرن الذى انحى عليه بالهجوم وعده رومانتيكيا مشوها ، بينما عد « بليك » شاعرا ذا عبقرية • وقال ان التميز الذى نجده عنده هو تميز كل شعر عظيم ، هو شىء نجده عند هوميروس واسخيلوس ودانتى وفيون أحيانا ، وهو عميق محجب فى أعمال شكسبير •• وهو متحقق بشكل آخر عند مونتينى وسبينوزا ، ذلك الشىء هو الامانة ، فى عالم يرعبه أن يكون امينا ، هى امانة يتآمر العالم كله

ضدها ، لأنها لا تبهجه · ففى شعر بليك ما يشقى قارئه شأن كل شعر عظيم ·

وقد يكون لمقال اليوت هذا أثر كبير فى رد الاعتبار لوليم بليك · فبعده صدرت دراسات مختلفة عن الرجل وشعره لعل آخرها هذه الدراسة الجامعية التى نشرتها جامعة نورث كارولينا عن أثر الفلسفة الافلاطونية المحدثة فى شعر وليم بليك ، لدارس جديد هو جورج ميلز هاربر ··

كان بليك شاعرا ورساما ، وكان متصوفا أيضا · وكان يرى رؤى فلا يبقى أمرها سرا ، بل يكشف عنها لأصدقائه · وقال مرة لزوجته انه رأى رأس الله على النافذة وهو فى الرابعة من عمره · وكان من رؤاه المعتادة أن يشهد الانبياء والملائكة · وفى شعره كانت تتماوج نبرة نبوية تذكرنا بأنبياء العهد القديم ورؤاهم ، ولم يستطع العصر الذى عاش فيه بليك أن يفهمه · فقد كان عصرا حافلا بالنظر العلمى ، مولعا بالاقيسة المنطقية ، مقبلا على بشائر الثورة الصناعية ·· فوسم بليك بالجنون ، وعلت نبرة التهمة واستفحلت ، وعلت ازاءها نبرة النبوة والوحى فى شعر بليك ·

ورغم الغنائية الواضحة فى شعر بليك · فانك تستطيع أن تحدد له عالما فكريا متناسقا · يتحدث فيه عن الجسد والروح وعن الله والانسان ، وعن الخطيئة والخلاص وغير ذلك من النواحى التى تشملها الفلسفة ، وبخاصـــة الميتافيزيقا · ولعل هذا هو ما حدا بالمؤلف أن يختار بليك ليجعله موضـــوعا لتتبع آثار الفلســــفة الافلاطونية المحدثة فى الفكر الانجليزى فى القرن التاسع عشر ·

والمؤلف ـ أولا ـ دارس فلسفة تخصص فى الفكر اليونانى ،

ثم استوقفه ما بين الفكر اليونانى وبين بليك من نقاط التقاء وتشابه ، فحاول أن يتلمس جذورها وأسبابها ، وكان أخشى ما يخشاه حين اقــــدم على هـــذه الدراســـة الى أن من بليـــك فيلســـوفا من فلاسفة القرن التاسع عشر ، ولذلك فقد حرص فى مقدمته على أن يفرق بين تناول الفيلسوف للأفكار وتناول الشاعر لها · والخط بينما دقيق ، وهو اكثر دقة عند بليك الذى قال مرة « ان الشعر هو الفلسفة ، قديم فى الزمان ، موزون التناسق ، أسطورى بالتصور » والذى كان يعتقد بالتالى أن الفلسفة ذاتها ليست اتكاء على المعرفة اليقينية واستنباطها للقانون من التجربة ، بقدر ما هى استجلاء للمعرفة الأولية ، وكشف عن المثال الكائن فى الذهن ·

ووجه التوفيق بين الشعر والفلسفة عند بليك ، هو قول المؤلف ان المنهج الفكرى لا يصنع شـــاعرا ، ولكن الشاعر يتمثل المنهج الفكرى ، ويصبغه برؤيته · ولا تقتصر مهمته عندئذ على تحويل القطعيات Dogmas الى كلام موزون ، بل هو يخلق بناء عاطفيا تصويريا موازيا للبناء الفكرى ·

ان الفلسفة الافلاطونية المحـــدثة التى أثرت على الحـــركة الرومانتيكية ، وعلى وليم بليك بخاصة ، هى التنمية الصـــوفية لتعاليم افلاطون وآرائه · وقد كان مؤسس هذه الفلسفة « أفلوطين » فيلسوفا مصريا متحدثا باليونانية · بدأ ينشر فلسفته فى روما عام ٢٤٤ ق · م وحين مات جمع كتاباته تلميذه « بورفيرى » الذى يعرفه العرب باسم « فرفريوس الصورى » فشملت ستة كتب ، كل منها يتكون من تسعة فصول · كما كتب التلميذ سيرة أستاذه ، الذى كان كما حدثنا عنه « انسانا روحيا حتى ليبدو أنه خجل من أن يحتويه جسد · وفلسفة أفلوطين تحيط بالعـــالم الطبيعى والمادى بترتيب ظواهر الوجود فى سلم تصاعدى : المادة ، ثم الروح ، ثم العقل ،

ثم الله ، الله هو الوجود الخالص الذى برىء من المادة • وقد اثرت الفلسفة الافلاطونية المحدثة فى المسيحية تاثيرا بالغا • تبدو ذروته فى القديس اغطسين ، احد كبار فلاسفة اللاهوت •

اما بليك فقد ولد فى عام ١٧٥٧ ، فى منتصف القرن الثامن عشر الذى عرف باسم عصر العقل ، حيث ملك ناصية التاثير فيه فلاسفة العقل والتجربة من امثال بيكون ـ الذى خلف اتجاها قويا بعد موته ـ ولوك ونيوتن ، وتراجع الافلاطونيون الذين يؤمنون بالمثال والحدس عن دائرة الضـــوء • لقد انتصر بروتاجوراس السوفسطائى الذى كان يعلن أن الانسان مقياس الأشياء جميعا ، واستدارت العيون عن الخالد واللانهائى ، وأمعنت النظر فى العالم الصـــغير حولنا ، وهجرت العقول البحث عن حل للغز الوجـود الشامل ، لتبحث فى عناصره وأجزائه •

وكان هناك سببان رئيسيان لانتصار عقلانية القرن التاســـع عشر ، أما أولهما فهو اســـتعمال المنهج العلمى الجديد تجاه كل عمليات التفكير العقلى • والايمان بأن العقل وحده يســـتطيع أن يكتشف الحقيقة ، مادامت تدخل فى نطاق المعطيات الكائنة • حتى لقد قال هوبز « ان كلمة الله معناها بلا شك ، عقلنا الطبيعى » ، وثانيهما هو الرغبة فى السلم والاستقرار التى شملت النفوس بعد ثورة ١٦٨٨ وتمخض عنها ذلك التفاؤل بالتقدم العلمى ، والتوقع لمستقبل افضل من خلال منجزاته •

وقد كان الممثلون للمذهب الافلاطوني فى ذلك الوقت هم أساتذة كمبردج • ولكن لم يكن احد منهم كفئا لمنازلة تاثير بيكون ولوك ونيوتن ، وكانت الترجمات الشائعة لافلاطون ترجمات غير مدققة ، حاول اصحابها الفرار من التعارض بين وثنية اليونان ومسيحية

أوروبا ، فشوهوا النصوص الافلاطونية ، ووجهوها جهات تتعارض مع جوهرها ، حتى بدأ الفيلســـوف توماس تيلور ترجمة تراث الافلاطونية فى عام ١٧٨٠ ، واستمر ينشر هذه الثمرات الفكرية حتى عام ١٨٣٤ ٠

ومؤلف هذا الكتاب ـ جورج ميلز هاربر ـ يحاول أن يعقد مقارنة بين ترجمات تيلور لثمرات الفكر الافلاطونى ، وبين مؤلفات وليم بليك ، عاماً بعام ، وكتابا بكتاب ٠ ففى عام ١٧٩٢ مثلا ترجم تيلور « أورفيوس » و « فيدروس » و « مقال عن الجمال » وكتب وليم بليك قصيدته « زواج السماء والجحيم » وكم من نقط اللقاء بين الرجلين ٠

بل لقد يصل المؤلف الى القول بأن بليك كان يفيد من تعليقات تيلور على النصوص التى يترجمها ، فمثلا يكتب تيلور : لقد كان من عادة بيثاغوراس واتباعه ، الذين يحتل افلاطـــون بينهم المكـــان الاسمى أن يخفوا الاسرار الخالدة تحت قناع الرموز والاشكال وأن يتواضعوا بحكمتهم ازاء ادعاءات السوفسطائيين الشائعة ٠

ويقول بليك :

والآن بعد أن رأيت كهوف الجحيم ٠

كيف سأجرؤ على أن أجلوها لهم ؟

ولكن هل استفاد بليك فى رموزه وصوفيته من الافلاطونية المحدثة فحسب ، ومن ترجمات تيلور لها على وجه التحديد ٠ ان هذا القول مما لا يستطاع القطع به ٠ ولابد أن بليك أيضا قد استفاد ممن سبقه من الشعراء والمفكرين الصـــوفيين والمثاليين ، لابد أنه

استفاد من ميلتون فى فردوسه المفقود ، ومن بوهمية المتصـــرف الألمانى ، ومن سوندنبرج المتصوف السويدى الذى كان يروى رؤى ويتحدث عنها ، ومن افلوطينى لكمبردج · بل لعل له أيضا تجاربه الصوفية الخاصة التى تتجاوز مدى من سبقوه · فالى جانب رموز الافلاطونية المحدثة استغل بليك رموز التوراة بل ونبراتها المتوعدة القوية ، وخاصة فى الأناشيد النبوية ، مثلما يقول :

رأيت الغباء مســـلحا بالحديد ، والحماقة ترتدى خوذة من الذهب

والعجز بقرون ومخالب ، والجهل بمناقير كواسر

وانتفضات الفرح تدفن حية فى التراب بفخفخة الدين

ورأيت الوحى يكفر وينكر ، والعبقرية تمنع بالشرائع والعقاب

ياللرعب ! فأخذت دموعى وآهاتى وأناتى المريرة

ورفعتها الى كورى المتوهج أسبك منها سيفى الروحى

الذى يفض مكنون ما أخفاه القلب ·

ولعل أروع ما تأثر به من العهد القديم هو هذه الأمثال التى أطلق عليها أمثال الجحيم ، والتى تشبه معارضة لسفر الأمثال ·

طريق الاشراف يؤدى الى قصر الحكمة

الضعيف فى الشجاعة قوى فى المكر

لو أصر الأحمق على حمقه ، لغدا حكيما

يتهم الثعلب المصيدة ، لا نفسه

توقع السم من الماء الراكد

كل تلك الأمثال واشـــباهها تمجد الفعل والحيوية ، وتبارك الجسد كمظهر من مظاهر الروح ، منسجم معها ، محقق لرغباتها ، وفى ذلك يفترق وليم بليك ، بل يتجاوز ، حدود الصوفية الافلوطينية ٠

لقد تأثر بليك بهذه الفلسفة ، ولكنه لم يخضع لها

المجلـة مـارس ١٩٦٣

نازك الملائكة والشعر الحر

تتميز السيدة نازك الملائكة ـ بين شعراء الجديد ـ بثقافتها الواسعة ، والمامها الشامل بالتراث الأدبى العربى واطراف منتقاة من التراث الأوروبى ، وتلك الثقافة تتيح لها ان تكون الى جوار شاعريتها الخصبة المعطاء ، ناقدة نافذة الرأى والحجة فى كثير من الأحيان .

ودور السيدة نازك فى حركة الشعر الجديد دور غير منكور ، اذ كانت من أوائل من شقوا لهذا الشعر دربه ، وقد أسهمت فى توضيح صورته بدواوينها ، وكان لمقدمة ديوانها الثانى « شظايا ورماد » اهميتها البالغة فى لفت الأنظار الى خصوبة هذا اللون من التعبير ..

واهم مايرسى لنازك الشاعرة مكانتها بين الشعراء الجدد هو اصالتها التى تبدت فى قصائدها المتتالية ، اذ اتضحت رؤيتها الشعرية المتفردة ، وبدا عالمها الممتد العميق ، ونجت من تلك التأثرات التى كانت تطالعنا فى ديوانها الأول « عاشقة الليل » . وهى تأثرات

بالمدرسة الرومانتيكية الانجليزية ، وبالتحديد بالشاعرين شـــللى وكيتس ..

وحين كانت نازك تبهج قراءها بقصائدها المتلاحقة ، كانت فى الوقت ذاته كثيرا ما تنشر المقالات الضافية فى الدراسات الادبية ، وقد بدات معرفة القراء بنازك الكاتبة من خلال مقالتها « الشـــعر والموت » التى تحدثت فيها عن مظاهر الولع بالموت فى شعر الشابى وكيتس والهمشـــرى وروبرت بروك ، وكانت المقالة تفيض بروح الرومانتيكية العذبة ، التى تمزج بين حقـــائق الحيـــاة وخطرات الوجدان . وقد نشر هذا المقال منذ ثمانى سنوات ، وكان اعلانا بأن الروح الرومانتيكية عند نازك قد بلغت أوجها ، ثم تتالت مقالات نازك بعد ذلك متخذة طريقا جديدا هو طريق النقد ، فحدثتنا بعد ذلك عن الناقد العربى والمسئولية اللغوية وعن هيكل القصيدة وعن الشعر والمجتمع ، ثم تفرغت بعد ذلك لدراسة ظاهرة الشعر الجديد ، فتم لها من هذه المقالات والدراسات كلها هذا الكتاب الذى نحن بصدد التعرض له .

وكتاب « نازك » الجديد « قضايا الشعر المعاصر » ينقسم بطبيعة تأليفه الى قسمين : قسم أول تعنى فيه بقضايا الشعر الجديد ، ويستغرق حوالى ثلثى الكتاب ، وقسم ثان يعرض لقضايا متناثرة مما يهم الشعراء والنقاد .

ونازك ترفض التسميتين اللتين أطلقتا على الشعر الحر ، وهما الشعر الجديد ، والشعر الحديث ، وتؤثر ان تطلق عليه « الشعر الحر » .

والذين يدعون هذا الشعر بالشعر الجديد ، لهم فى ذلك وجهة نظر ، فلا أظن انهم يتمسكون بهذه التسمية تمييزا له عن الشـــعر

القديم ، الا اذا كانوا يقصدون بالشعر القديم كل شعر كتب قبل عام ١٩٥٠ ، وكل شعر كتب حتى الآن معتمدا فى شكله على نفس التقاليد الشعرية العربية الراسية ولكنى أظن أنهم يقصدون بهذه « الجدة » المنسوبة الى الشعر ملامح جديدة فى التعبير والتناول ، أو ما يصطلح النقاد على تسميته بالرؤية الشعرية ٠

وأنا ـ اذا سمح لى أن أكون طرفا فى محاولة تحديد الاسم ـ لا أحب هذه التسمية « الشعر الجديد » لأن فيها زعما جريئا بالتغاير والمباينة بين ماضى الشعر العربى وحاضره ، كما أن الرؤية الشعرية لاتستلزم أسلوبا بعينه فى التعبير ٠

كما أنى أحب كلمة « الشعر الحديث » لأن هذه الحداثة تعنى المعاصرة ، ونحن لا نعاصر هذا الأسلوب الفنى فحسب ، بل اننا نعاصر مختلف الأساليب الفنية ، ومختلف أوجه الصياغة ، من صياغة الجواهرى الكلاسيكية الصلبة الى صياغة ناجى الرومانتيكية العذبة ، الى صياغة الشعراء الجدد وألوانها المختلفة ٠

ورغم ذلك فانى لم أستطع أن أقبل كلمة « الشعر الحر » التى تتبناها نازك وتلتزمها دون تحفظ ، وخاصة حين أدركت أن نازك تعنى بكلمة « الحرية » الحرية فى التخلص من الصورة التقليدية للأوزان العربية ٠ وحين رأيت أنها تواجهنا صراحة « بأن الشعر الحر فى أساسه دعوة الى تغيير الشكل » ٠

الشكل ٠٠ الشكل وحده ، هو ما دعا نازك الى اطلاق كلمة « الشعر الحر » على هذاالنوع الأدبى ، وهو الذى صبغ نظرتها اليه ، ومحاولتها لدراسته ، فوقفت عند « العروض » ٠ ولم تكد تتعدى دائرة العروض الى أفق أرحب من الدراسة الفنية المتذوقة ٠

كان الوقوف عند العروض هو النتيجة الحتمية لفهم نازك لكلمة الحريه · والعروض أرض غير خصبة ، والوقوف عنده نوع من ستصار الماء من الصخر ، ولست أنفى هنا أهمية العروض ، ولكنى احاول ان اضعه فى مكانه كقالب شكلى بسيط ، هو ابسط بسائط التجربة الشعرية ، وأكثر ألوان موسيقاها سذاجة ويسرا ، وليس له عند الشاعر وانناقد أعلى من هذه المكانة · وقد كان واجب نازك كناقدة هو أن تقف عند العروض وقفة تطول أو تقصـــر ، ولكن باعتباره ، مجرد مقدمة لدراسة الشعر الحر ·

أما الدراسة نفسها ، فقد كان ينبغى على نازك أن تضع أمامها مجموعة للدواوين الشعرية التى ظهرت فى السنوات العشر الأخيرة ملتزمة هذا الشكل الجديد ، وتحاول عندئذ أن تبحث عن مبرر لهذا التغير الشكلى ، مبرر مقنع تتلمسه فى الرؤية الشعرية أو فى جدة التجارب التى خاضها هؤلاء الشـــعراء ، أو فى الواقع الثقافى والوجدانى الذين يصدرون عنه ·

كان العروض عندئذ يصبح مجرد فرشة موسيقية ، ويصبح الغرض الأوضح من تأليف الكتاب هو الفن الشعرى ، ولو فعلت نازك ذلك لانكشف لها عالم نقدى واسع أكثر سعة وخصوبة من هذا العالم التشكيلى الضيق الذى انحصرت فيه أبحاث كتابها ، ولازداد هذا الكتاب عظمة ومكانة ، بل لأصبح بحق هو الكتاب الذى نبحث عنه الآن ، فلا نجده الكتاب الذى يجيب لنا عن هذا السؤال :

ـ لماذا نبتت الحركة الشـــعرية الجديدة ، وماذا حققت من جديد ؟

* * *

ليست مهمة الناقد المنصف هى التوبيخ والتأنيب فحسب ، ولكن مهمته أيضا فى التنوير ٠

والناقد يفقد نصف اعتباره اذا أختل الميزان فى يده ، ولو مرة واحدة ، وخاصة اذا اختل الميزان لصالحه ٠

ونازك الملائكة قد أوجعت الجميع بسوط العدوان على العروض، أوجعت نزار قبانى وفدوى طوقان واســـتوصت خيرا بكاتب هذه السطور

استوصت به مرة لأنه أباح المباح ، وأدخل الزحاف على الرجز بحذف الثانى الساكن فيه ، وقالت ان هذا الزحاف ورد فى شعر أسلافنا كثيرا ، وكان وروده جميلا مقبولا لا مأخذ عليه ، وأبيح ذلك الزحاف فىوزن الرجز لأنه يدخل تنويعا وتلوينا على التفعيلة ، فلما جاءت الى بيتى الذى اســـتبحت فيه ما اســـتباح القدماء واستحسنوه ، «وحين يقبل المساء يقفر الطريق والظلام محنة الغريب» قالت ان البيت أصبح بسبب هذا الزحاف (الذى يدخل تنويعا وليونة عند القدماء) ثقيلا متعبا ركيك الايقاع ضعيف البناء منفرا للسمع (هكذا) ، ثم كأنها أرادت أن تفرش الأرض أمام حكمها الجائر برمال الحياد والانصاف ، فاستطردت تقول « وللشاعر مندوحته عن ذلك بما يملك من رهافة شعرية فى بعض قصائده الأخرى ، وكل ما يعوزه الانتباه واستكبار الخطأ » ولنسأل أنفسنا بعد قراءة هذه الفقرة ٠٠ وأين الخطأ الذى استكبره الشاعر المسكين ؟

لم أكن أبغى بايراد هذا المثال أن أدافع عن نفسى ، ولكننى كنت أريد أن أوضح أن نازك ناقدة متزمتة فيما يتصل بالعروض ، تطلب فى البيت الشعرى طهارة تامة فى التفعيلات ، ولا تكاد تبيح حتى مايباح فى الضرورات ، وهذا الدور الذى قد اختارته لنفسها

دور هام بلاشك ، فالشعراء المحدثون فى حاجة الى « مؤدب » موسيقى ٠

وقد كان من اكثر ما اغاظ نازك عند بعض الشعراء ، وبخاصة عند نزار قبانى وفدوى طوقان وعندى ، أن تفعيلة الرجز «مستفعلن»، يزاد فيها حرف ساكن فى أواخر التشكيلات فتصبح « مستفعلان » ؛ وقد قالت ان هذا شنيع ، وهو نتيجة لدوار الحرية الذى أصاب الرءوس ، ولكنها حين تعرضت لخطأ آخر ، وهو تحول تفعيلة « الخبب » الى « فاعل » بضم اللام ، قالت قولة اخرى ، واصطنعت لهجة جديدة ٠

تقول نازك :

« ثم جاء العصر الحديث ، فاذا نحن نحدث تنويعا جديدا لم يقع فيه اسلافنا ، ذلك اننا نحول « فعلن » الى « فاعل » وليس فى الشعراء فيما اعلم من يرتكب ذلك سواى ، بدأت فيه منذ اول قصيدة حرة كتبتها سنة ١٩٤٧ ، ومضيت فيه حتى الآن » ٠

ثم استطردت بعد قليل تقول :

« ان اذنى ، بما مر بها من تمرين ، تقبل هذا الخروج ولا ترى فيه شذوذا ، فليس هو خطأ وقعت فيه ، وانما هو تطوير سرت اليه ٠ وانا غافلة ، ومعنى ذلك ان « فاعل » لا تمتنع فى بحر الخبب ، لأن الأذن العربية تقبلها فيه ، واذن فلماذا لم يقرها العروضيون ، وهل من حقى انا ان اثبت تفعيلة جديدة فى بحر عربى ضبط منذ عصور طويلة ٠٠

والحق أن قليلا من التامل فى التفعيلتين « فعلن » و « فاعل » لابد أن يقودنا الى انهما متساويتان من ناحية الزمن تساويا تاما لأن طولهما واحد ، وفى وسعنا التاكد من ذلك باسلوب العروضيين ٠

فعلن : تساوى ثلاث حركات فسكون ٠

فاعل : تساوى حركة فسكون فحركتين ٠

وختمت نازك كلامها بقولها :

ورايى أن قرار ذلك قاعدة فى بحر الخبب يضيف سعة وليونة الى هذا البحر ٠

وهنا انتهى دفاع نازك عن نفسها الذى لا يملك الانسان أن يلاحقه ، وخاصة لو كان مطالبا بالطهارة الشعرية مثل نازك ، لكثرة ما فيه من أخطاء ٠

الخطأ الأول أنها تقول أن أحدا لميرتكب ذلك سواها ، وكأنها تحاول أن تسند لنفسها شرف التنويع والتوسيع والتلوين الذى ستقلب اليه هذ الخطأ فيما بعد ٠

ومبلغ علمى أن هذا الخطأ من اكثر الأخطاء شيوعا ، وهاهى ذى بعض الأمثلة له :

يقول نزار قبانى فى قصيدته « نهر الاحزان » :

ماذا اعطيك اجيبينى

قلقى ، الحادى ، (غثيانى)

ماذا أعطيك سوى قدر

(يرقص) فى كف الشيطان

ويقول أحمد عبد المعطى حجازى

انا اصغر فرسان الكلمة

فرسى لا يكبو (وحسامى) قاطع

وانا الج الحلبة

ومجاهد عبد المنعم مجاهد يقول مساهما فى هذا التوســـيع والتلوين :

وانحدرت منها عبرات فوق الخد

وتذكرت الزوج الراحل

ويقول الشاعر كمال نشات من قصيدة مليئة بهذا الاضطراب ·

مد يديك فانى اعرف هذا الجرح

انى اعرف دمى

وبرغم الريح برغم الجدب

ضحكت أرضى بالأغراس كوجه نهار

واخيرا ، هذا مثال لى :

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول منقاتله ومتى قتله

ورءوس الناس على جثث الحيوانات

ورءوس (الحيوانات) على جثث الناس

فتحسس راسك

الواقع اذن اننا كلنا شركاء فى الخطأ ان كان خطأ وشركاء فى التلوين والتوسيع اذا كان هناك تلوين وتوسيع ٠

اما قول نازك أن التفعيلتين « فعلن » و « فاعل » متســـاويتان لتساوى حروفهما وعدد سكناتهما وحركاتهما فقول غريب لا يصدر عن شاعرة تعرف أن المعول عليه فى الوزن الشـــعرى العربى هو ترتيب الحركات والسكنات لاعددها ، ولو طبقنا قاعدة نازك لكانت « فعلن » و « فاعل » و « فعول » هى هى نفس التفعيلة ، ولا أظن هذا صحيحا ٠٠

اختل الميزان اذن فى يد الشاعرة الناقدة حين تعرضت للعروض، ولم تستطع أن تقوم بدور المؤدب الموسيقى للشعراء الى آخر المطاف، وبقى لها عندئذ دور الشاعرة المجتهدة التى تشترك مع زملائها فى التجربة والخطأ ٠

ونازك تنبئنا من صفحة كتابها الاولى أنها مبتدعة هذا اللون من التجديد الشعرى ، فلتسمح لى نازك أن انبئها أن محاولات كثيرة قد سبقتها الى هذا التجديد ٠

فى عام ١٩٣٧ كتب لويس عوض قصـــيدة عنوانها « كيريا لايسون » ٠٠ يقول فيها :

ابى ابى

ابى ابى

احزان هذا الكوكب

ناء بها قلبى الصبى

الشوك فى جنبى جراح الهدب

الرزء تحت الرزء فى صدرى خبى

سلت دميعات كذوب السم من قلبى الأبى

شبت على قلبى سعيرا مستطير اللهب ٠

أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى ، أبى

ابكى دموع الناس مختارا ، ودمع الأمس لما ينضب

يا منجبى

يا منجبى

قد طال فيك عجبى

لغزك لن يهزأ بى

دنياك قبض الريح قالها نبى

اخراك آل ذو بريق ذهبى

عبد الرماد وابن دفء البدن المعذب

حنينه للفجر فى ليل الشتاء الغيهب

مائدة من نسج وهم الطيف « آريل » البهى المستبى

انا كاطفال بكوا لما أستسر النجم تحت السحب

هذه القصيدة تعتمد على تكرار تفعيلات الرجز ، من تفعيلة حتى تصل الى خمس تفعيلات ٠

للشاعر نفسه قصيدة فى ديوانه « بلوتولاند » استعمل فيها تفعيلة الرمل « فاعلاتن » بطريقة حرة ، وقد صدر هذا الديوان فى عام ١٩٤٧ ، وكان لصدوره دوى ملحوظ فى ذلك الوقت ٠

وللديوان المذكور مقدمة ، أؤكد لنازك انها لا تقل اهمية عن مقدمتها لديوانها « شظايا ورماد » ٠٠

ولويس عوض ليس مبتدعا من العدم ، بل هو متبع للموشحات ، وصهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى ، والترجمات التىقام بها فريد أبو حديد ٠

ان تحرير الشعر جهد ضخم اكبر من ان تحمل عبئه كتف واحدة ٠

* * *

ماذا كنا نريد من كتاب نازك الملائكة ؟

من الصعب ان اقترح على نازك صورة جديدة لكتابها ، الآن ، بعد ان صدر الكتاب ، وقرأه النقاد والشعراء ، ولكنى اقترح هذه الصورة لكتاب نازك القادم ، واعرف انها على هذا الجهد قادرة ٠٠

انى اقترح عليها أن تلقى من يدها عصا المؤدب ، وان تؤجل دعوى الأسبقية فى تحرير الشعر الى حين ٠ ثم تجمع دواوينها ودواوين زملائها ، السياب والبياتى وكاظم جواد ونزار قبانى وخليل خورى وادونيس ويوسف الخال وكمال ناصر وفدوى طوقان وسلمى الخضراء الجيوشى ومحمد الفيتورى وعبد الرحمن الشرقاوى واحمد عبد المعطى حجازى وملك عبد العزيز وكمال نشات

وفوزى العنتيل واحمد كمال زكى وكاتب هذه السطور ، واخرين وآخرين من الذين يضنون أنفسهم فى البحث عن التجربة الجديدة ، ثم تنظر فيها نظرة تخلو من قسوة المؤدب ، وتحاول ان تعرف من خلال هذه الدواوين ، هل حقق هذا الشكل الجديد رؤية شـــعرية جديدة ، وهل زاد التراث العربى غنى واتساعا ،فان كانت اجابتها نفيا ، فلتعد الى الشكل الذى عرفته القصيدة العربية ، واذا كانت اجابتها اثباتا ، فلتوضح أوجه النقص ، ولتوســـع دائرة المفهم ، ولتخلق لنام صطلحات جديدة يتفق عليها الشعراء والنقاد والقراء ٠

وذلك عندئذ هو الجهـــد العظيم الذى يلقى الثواب العظيم ، وتتلقاه المكتبة العربية شاكرة لتضم عليه اعمق اعماق قلبها ٠

الكاتب مــارس ١٩٦٣

.. كان ثوريا فى الأدب أيضــا

كان ناظم حكمت أحد شعراء الواقعية الاشتراكية العظام ٠ وكان وجها مشرقا من أوجه الصــــورة التى يكونها هذا الجيــــل المتفتح الخصب من شعراء التفاؤل والثقة بالانسان ، وقد استطاع بموهبته الشعرية ، واخلاصه الفريد أن يضع اســــمه الشرقى الى جوار أسماء ماياكوفسكى وأراجون وبرتولد بريخت وبول ايلوار وبابلونيرودا غيرهم ٠

وشعر ناظم حكمت ، وشعر هؤلاء جميعا درس للشعراء الذين يحاولون التعبير ، دون أن يهدروا كرامة الفن ودون أن يهدروا أيضا كرامة الواقع الذى يشغل وجدانهم ٠ انه درس لشعراء القضايا الاجتماعية ٠ والتأمل فى هذا الدرس يجعلهم مخلصين للفن والواقع معا ٠٠

كان ناظم حكمت مناضلا ثوريا : دخل السجن اكثر من مرة ، وامتدت حياته فيه ســـنوات طوالا ، وتعرض للنفى حين أعفى من اربعين عاما أو تزيد كان محكوما عليه بقضائها فى السجن بعد أن لبث فيه آخر مرة ثلاثة عشر عاما ، فقضى حياته متنقلا بين بلدان

الكتلة الشرقية حتى استقر فى بولندا ، فحياته اذن نضال متصل من اجل قضيته · ورجل مثله كان معرضا لأن يكون سفره ترديدا للهتافات والشعارات ، ولكنه استطاع بمهارة فائقة وفنية أصيلة ان يمزج القضية العامة باحساساته وأن يصل فى الانفعال بها الى مرحلة التصوف فيها : وهى المرحلة التى يجب ان يصل اليها الفنان لكى تكون هى نقطة انطلاقه ·

ان القضية العظيمة لا تصنع شاعرا عظيما ، بل لابد أن تتغلغل هذه القضية فى نفس الفنان ، وتمتزج بها كما يمتزج الماء وضوء الشمس والتراب فى النبات لتصنع كلها هذا اللون الأخضر ·

وشعر ناظم حكمت ، رغم اهتمامه بمشكلات العالم الجديد ، فى الصين والمجر وكوريا واليابان واحياء الزنوج فى أمريكا والعدوان على بورسعيد وفى بلده « تركيا » فانه يوشك أن يكون ترجمة ذاتية لحياته ، فانت حين تقرأ هذا الشعر تبرز لك شخصية ناظم نفسها من بين السطور ·

ديوانه الأول الذى ترجمه على سعيد هو حياته حتى عام ١٩٥٠ حين كان فى سجنه ، ويوشك الديوان ان يكون يوميات سجين شاعر، ديوانه الثانى ، الذى أسعدنى الحظ بقراءة ترجمة عربية له للأستاذ محمد النجار هو يوميات سنوات نفيه ، وتنقله بين المدن والبلاد ··

فى كل قصيدة من شعره تحس بموقف « الأنا » ·· فالشعر اذن تعبير ذاتى عن حقيقة موضوعية : وهذا هو ما أدركه ناظم حكمت ،ولم يستطع ادراكه كثير من صغار الشعراء الذين أساءوا فهم قضيتهم ، وصغار النقاد الذين اساءوا فهم الواقعية ··

وشىء آخر هام جدا نلمحه فى شعر ناظم حكمت ، وهو تفتحه على كل المذاهب الأدبية التى عاشتها أوربا فى هذا القرن ، ففى اشعاره الأولى نجد اثار المدرسة الدادية والسـريالية واضـحة ملموسـة ، وقد اسـتفاد ناظم حكمت الى حد كبير أيضا بخـبرة الرمزيين الفرنسيين ولم يكد يهضم هذه الخبرات جميعا ، ويضيف اليها من بنائه الخاص ، ومن تجربته التركية الشعبية ، حتى استقام له هذا الأسلوب السهل الفريد الذى نحس بجماله ومعاصرته لكل المذاهب الأدبية المحترمة أو بعالميته بمعنى آخر ، ونحس بعد ذلك بمحليته حين يضـع كل ذلك فى وعائه التركى ، ويمد جذوره الى التراث التركى ٠

مثلا :

القصيدة الأولى فى ديوانه الأول « الاحشاء المقدسة » نستطيع فيها ان نلمس اثر المدرسة السيريالية :

انت يا ايتها الأم السمراء العينين

انت يامن يقتل ويبدع

انت يامن يرقد فى ظلال الجسور

جنبا لجنب مع المياه

انت ياصوت الساحات المشتعلة

انت ياشعر الشعر « وياموسيقى الموسيقى

انت ياشقيقى

انت يا ايها العاهره الملعون

(وهذا البيت يكاد يكون بيتا لبودلير)

انت ياطريد المشانق

انت ياكل مايكون

انت ايها الجوع

اننى اقسم لك ، وانا اضع جبينى

على اقدامك العارية

اننى اقسم لك

اننى ساقاتل

لأشبع احشاءك المقدسة : احشاءك انت لا احشائى انا ، ولا احشائنا ولا احشاءه ولعل هذه الملامح السريالية هى التى قادت اليه اهتمام الشاعر تريستان تزارا أحد اقطاب المدرسة السيريالية ، فكتب يقول عنه : «ان الصورة الشعرية عند ناظم فعلشعرىاكثرمنهاتشبيها او تقريبا لمفردات متباعدة » ·

ولنذكر هنا ان كل هؤلاء الشعراء الاشتراكيين العظماءاراجون وايلوار وحكمت قد بداوا ثائرين فى الأدب وتفتحوا على المدرسة السيريالية كرد فعل على حساسية الرومانتيكية المرضية · اما ماياكوفسكى فقد بدأ حياته الشعرية « مستقبليا » ·· ثائرا على تقاليد التراث الروسى الشعرى · فالثورة اذن لا تنفصل ، ولابد للفنان العظيم من روح الثائر · حتى يستطيع أن ينسلخ عن واقعه الشعرى الى واقع أفضل منه وأكثر الهاما · ومن هنا بدا كل هؤلاء الفنانين الكبار ثوارا فى حقل التجربة والتعبير ، واستطاعت عندئذ النظرية الواقعية الاشتراكية أن تحفر لهذه الثورة مجراها وان تشذب جسورها وحوافها وقنواتها ·

وأراجون الشـــاعر الفرنسى مثلا والحديث عنه يبدو كأنه استكمال للصورة بدأ هو الآخر سيرياليا ، وظلت فى شعره حتى بعد أن ارتبط باليسار الفرنسى هذه النفحة الثورية فى الشعر ، ولنقرأ قصيدته هذه من ديوانه « عيون الزا » التى كتبها الشاعر على لسان حبيبته « الزا » التى تخاطبه قائلة :

اذا أردت أن أحبك فأحمل الى النبع الصافى

الذى فيه ترتوى رغبات المساكين

ولتكن قصيدتك لم جراحك

كبناء على السقف

يتغنى للطير التى فقدت أعشاشها

ولتكن قصيدتك فى المواطن التى اقفرت من الحب

حيث يعيا المرء ويدمى ، ويقضى من الزمهرير

مثل لحن هامس يرد الاقدام خفيفة المسير

لن تتغنى حقا ، ويعادل غناؤك الجهد

اذا لم تتغن بمن تحلم بهم اكثر اوقاتك

ومن ذكراهم مثل حفيف السنديان

يستيقظ ليلا فى عروقك

ومثل اراجون وبول أيلوار الرمز وماوراء الواضـــح عنده اوضح • ان الفنان مناضل حقا ، ولكن الكلمة هى سلاحه ، ولابد أن تكون كلمته هى كلمته هو المطبقة بنفســـه ، وفى ذلك اعطى « حكمت » الشاعر الشرقى العظيم أروع مثل •

نبع ايمان ناظم حكمت بقضيته من محبته للانسان ، ومن ايمانه بأن المستقبل يجب أن يكون اجمل من الماضى ٠

ان اجمل البحار
هو ذلك الذى لم نذهب اليه بعد
واجمل الأطفال
من لم يكبر بعد
وأجمل ايامنا
لم نعشها بعد
وأجمل ما أود ان اقوله
لم اقله بعد

وهو يعلم أن « حفلة البؤس » التى دعى اليها العالم رغم أنفه مازالت قائمة ولكنها ستنتهى يوما ما ، وفى سبيل ذلك يجب ، بكل بساطة ان يموت رجال وان يتعذب آخرون ، وأن يحرم أب مثله من رؤية زوجته وابنه ، ولكن اذا لم احترق أنا ، وتحترق أنت ، ونحترق نحن فكيف يخرج من هذه الظلمات نور ٠

أدرك ناظم من خلال تجربته الطويلة فى الشعر منذ عام ١٩٢٥ الى أن مات ، ومن خلال ثقافته المتعددة ، ومن خلال رؤيته ســـر البلاغة الشعرية عرف أن سر الوصول الى قلب القارىء هو البساطة ولكنها البساطة المعقدة ان صح هذا التعبير ، هذه البساطة التى تخفى وراءها رصيدا هائلا من الثقافة والخبرة والمعرفة الانسانية ، البساطة التى تمتلىء كل كلمة فيها بالمعانى كأنها امرأة حبلى بالتوائم،

حين يقول ناظم :

ياحبيبتى ياذات العيون الخضراء

تركت بين ذراعيك صغيرى محمد

يوم كان عمره ثلاثة اشهر

ولم يكن قد اجاد بعد

فن الضحك

لقد بدأ الآن يتحدث

فهل علمته ان يقول

بابا !

يجد القارىء هذه الكلمات البسـيطة الخالية من التلاعب والخطابية ، الشبيهة بلغة الحياة اليومية ، عامرة بالشجن والانفعال، حتى لتوشك أن تخلع القلب ٠

بل انه ليعبر عن لحظات ضعفه بنفس الصـدق والبساطة ، اللحظات التى يكاد الحنين فيها الى زوجته وطفله أن يقضى عليه ٠

يقول فى قصيدة رائعة كتبها فى براغ ، بعنوان « منزل الدكتور فاوست » :

فى ساعة متأخرة من الليل

عند اقدام الابراج تحت الأقواس

أخذت اتجول فى براج

ودلفت الى ميدان شارل

وعند الناحية القريبة من المستشفى

يقوم منزل الدكتور فاوست

وادخل حديقة

واقرع الباب

والدكتور غائب ، دون شك

فقد حمله الشيطان ، منذ قرنين من الزمان

عبر كوة فى السقف

خلال ليلة شبيهة بهذه

واقرع الآن ، فانا ايضا

سابرم بهذاالبيت

عقدا مع الشيطان

وساوقعه انا ايضا بدمى

وما انتظر منه ذهبا ولا معرفة ولا شبابا

لقد حطمنى الحنين

ولم أعد احتمله

فليحملنى الى اسطنبول لساعة واحدة

وأقرع ·· واقرع ثانية

ويظل الباب مغلقا فى اصرار

لماذا ؟

آهى رغبة عزيزة التحقيق

ايها الشيطان أولا تستحق روحى الممزقة

أن يشتريها احد

ويرتفع القمر فوق « براج » ليمونة صفراء

وانا هنا امام منزل الدكتور فاوست

أقرع وسط الليل

على الباب الذى لا ينفرج

ان ناظم حكمت أحد شعراء الصدق الانسانى الكبار : وقد مات بعد أن أجهد قلبه « لا بالنيكوتين ولا بتصلب الشرايين » بل لأن قلبه كان مع المستقبل فى مكان ، وما أحرانا أن نفكر تفكيرا جادا فى نقل تراثه الى العربية ، فهى تجربة غنية لنا ، لأن ناظم حكمت كان أحد الذين وفقوا أبلغ توفيق فى الملاءمة بين قضية الجماهير وبين التعبير الفنى عنها ·

آخر ساعة ١٩٦٣/٦/١٩

ابن الــرومى

هو أحد شعراء العربية الكبار ولد فى عام (٨٣٥ م) (٢٢١ هـ) لأب يونانى الأصل ، وأم فارسية وعاش ببغداد طول حياته ، وعاصر ســتة من خلفاء الدولة العباسية ، كان أولهم الواثق ، وآخــرهم المعتضد ، وتوفى عام ٨٩٧ (٢٨٤ هـ) على أرجح الأقوال ٠

وقد كان القرن الثالث الهجرى هو قمة الحضارة الاسلامية : فى مجال الثقافة والفكر ، وفى مجال الرفاهية والترف ، فقد كادت حركة الترجمة التى بدأت فى أواخر الدولة الأموية ، وأينعت فى عهد المأمون تبلغ غاياتها من نشـــر تراث الفرس واليونان والهند وتقريبه لمتأدبى العربية ، كما كانت المدارس الفلســـفية والدينية العربية ، كمدرسة المعتزلة ومدرســـة أهل الكلام وغيرهما تتبادل الحجج ويدون أقطابها مؤلفاتهم وآراءهم ٠ وكانت المذاهب الفقهية الأربعة قد استكملت واتضحت بما صاحبها من فكر اعتقادى وأصول فى الاستنباط والقياس ٠ وكان علماء العربية فرغوا من جمع شعر الأقدمين وروايته ، ومن تخريج مذاهب النحو وتقنين البلاغة وتحديد علوم البيان والبديع ، وكانت بغداد هى عاصمة تلك الحركة الناهضة كلها ، وفيها تصب تياراتها المتدافعة ٠

وفى هذه البيئة ولد الشـــاعر على بن الحسين بن جرجيس (جورج) لكان جده الأول كما يتضح من اسمه على دين اليونان ٠٠ وهناك شك فى معرفته باليونانية ، رغم قرب عهده بالعرق اليونانى الأصيل وابن الرومى شخصية فريدة كما هو شاعر فريد ، فقد اشتهر بالتشاؤم والتطير شهرة تكاد تخسف شهرة أدبه عند المؤلفين القدامى ٠٠ وكان أصحابه يستغلون هذا الميل الى التطير والتشاؤم فيعابثونه ويشـــتدون عليه فى العبث ، ولم يقف القدماء الا وقفة قصـــيرة عند هذه الظاهرة النفسية ، فقال عنه المعرى فى رسالة الغفران : (ان أدبه كان أكثر من عقله) وقال المسعودى : « انه كان الأغلب عليه من الأخلاط افرازات الجسـم السـوداء » ويبدو أن سـببب تطير ابن الرومى هو مواجهته للموت فى أحبابه وأسرته اكثر من مرة ٠٠

فمن ديوانه يتضح لنا أن اباه مات وهو صغير ، وأن شقيقيه ، وكان أحدهما اكبر منه ، بل كان بمنزلة أبيه ، ماتا متعاقبين والشاعر شاب ، ثم رزىء ابن الرومى فى ثلاثة من أطفاله ، بدأ الموت باختيار أوسطهم :

توخى حمام الموت أوســـط صــبيتى

فلله كيف اختـــار واســـطة العقــد

ثم مات الأكبر منهم ، وكان صبيا على مشارف الشباب

ياحســــــــرتى فـــارقتنى فننـــا

غـــدا ثــم لم يتمــــر لى الفــن

ثم مات ابنه الثالث ، وتلتهم زوجته :

انا ذاك الذى ســـقته يد الســـقم

كئوســـــا مـــن المــــرار رواء

ورايت الحمام فى الصــور الشــنع

وكانت لولا القضـــــاء قضـــــاء

ورمـاه الزمـــان فىشـــقة النفس

فاصـــــمى فؤاده اصـــــماء

قد تكون تلك المواجهة القاسية للموت هى سبب تشاؤم ابن الرومى ، فاذا أضفنا اليها ما عرفناه فى ديوانه من مزاج حسى ، وولع بالمأكل واللذة والسماع ، مع قلة حيلته وضـــعف بنيته ، ثم طموحه الى تولى المناصـــب ومجالسة الخلفاء والوزراء مع ماهو عليه من انقباض يعرض له فلا يستطيع له دفعا ، أدركنا أى شخصية فريدة كان هذا الشاعر الفريد ، واســـــتطعنا فهم ظاهرة تطيره وتشاؤمه ٠

وقد يشتهر انسان بعيب من العيوب ، فيأبى معاصــــروه الا استغلاله والسخرية به ، وهكذا أولع معاصرو ابن الرومى بالسخرية من حساسيته ، فبادلهم السخرية بســـخرية مرة ، لا تستطيع أن نسميها هجاء ، لأنها تكاد تخلو خلوا تاما من عنصر الشتم الواضح الصريح الذى نراه فى نقائض جرير والفرزدق مثلا ، بل هى صورة مركبة واضحة ومريرة معا يقول مثلا :

يقـــــتر عيسى على نفســـــه

وليس بيـــــاق ولا خـــــالد

ولـــو يســـــتطيع لتقتـــيره

تنفس مـن منخـــــر واحـــــد

وله من أمثال ذلك كثير · وابن الرومى صاحب أسلوب شعرى يختلف عن أسلوب معاصره البحترى ، أو أسلافه مثل بشار وأبى نواس وخلفائه مثل المتنبى وغيره ، فالشعر العربى يميل الى الايجاز والاختصار والتركيز ، ولايعنى الا قليلا بالتجسيم وتصوير الأمور المعنوية فى هيئة حسية ملموسة ، أما ابن الرومى فهو مولع بالتطويل والتداعى وتوليد المعانى كما أن المعنويات تتحول عنده الى حسيات مثال لذلك قصيدته المشهورة التى يعاتب فيها صديقه أبا القاسم الشطرنجى ويمثل فيها الهنوات (الأخطاء) بشرا تبادله الكلام والرأى :

كشفت عنك حاجتى هفوات
غطيت برهة بحسن اللقاء
ليتنى ما هتكت عنكن سترا
فاويتن تحت ذاك الغطاء
قلن : لولا انكشافنا ما تجلت
عنك ظلماء شبهة قتماء
قلت : اعجب بكن كاسفات
كاشفات غواشى الظلماء

وابن الرومى هو أحد الشعراء الذين أولعوا بتجسيد الطبيعة وبث الروح فيها كما عمر شعره بالألوان والروائح والأصوات ، ومن أبدع قصائده ماقاله فى وصف مغنيات بغداد ومطرباتها والحديث عن احساسه بجمال أصواتهن وأدائهن ·

وديوان ابن الرومى لم يطبع طبعة كاملة منقحة حتى الآن ·

ومن الدراسات العلمية الهامة عنه دراسة الأستاذ العقاد بعنوان : « ابن الرومى » ·

الاهرام ١٩٦١/١/١٦

بــلاء أيــوب

كنت أسمع انباء دائه الطويل وطلبه للشفاء فى بيروت ولندن وغيرهما من عواصم العالم ، فأظن ما به مرض من امراض الصدر التى يطول علاجها ولكنها تبرأ بعد حين من النقاهة والتزام القصد فى الحياة ، حتى انبانى صديق شاعر ان داء المريض الطويل ليس الا مرضا غريبا خبيثا مداورا ، يبدأ دون بداية ويذوى الجسم معه عضوا عضوا من الساقين الى ما فوقهما فاذا تمكن استشرى فى المخ وهزمه ورفع عليه أعلامه السوداء ، وان هذه المعركة قد تطول شهورا أو اعواما بقضاء الله وقدره ٠

وأنبانى الصديق الشاعر ايضا أن هذا المريض الذى كنت اتتبع أخباره قد طلب الشفاء فىلندن وهى عاصمة من عواصم الطب فى العالم ، فنصحه الطبيب المداوى هناك أن يعود الى وطنه وأن هذا المريض قد عرج على بيروت حيث عاده طبيب المانى بارع ونصحه الطبيب الالمانى ان يعجـــل بالعودة الى بغداد مدينته او الى قرية صغيرة يربض بين نخيل البصرة طالما تغنى بها المريض فى شعره حتى أوشكت أن تصبح من امهات القرى ٠

هكذا عرفت أخبار الشاعر العربى الكبير،وأحد رواد الشعر العربى الحديث ، الصديق بدر شاكر السياب حين أنبأنى بها الصديق الشاعر اللامع الدكتور خليل حاوى فى زيارته الأخيرة فى القاهرة ٠

وليس هناك أشد مشقة على النفس من أن تعلم أن صديقا لك يتعذب هذا العذاب الجسدى دون أن يجد له دواء وبخاصة اذا كان هذا الصديق شاعرا موهوبا ، وأملا رائعا من آمال الشعر الحديث ٠

عرفت بدر شـــاكر السياب قبل أن نلتقى حين تجادلنا على صفحات مجلة (الآداب) منذ عشر سنوات ، وكانت هذه المجلة فى ذلك الوقت هى النافذة الوحيدة التى يطل منها شعرنا الحديث من شتى أقطار العروبة : العراق ومصـــر والشـــام ولبنان والمغرب وغيرها ٠

وقد تخاصمنا عندئذ بدر شاكر السياب وأنا حول بعض أبيات شعرى(*) ٠ ولكن هذه الخصومة كانت قد خلت من الشدة فقد كنت أحس من بعض ما قرأته لبدر أن هذا الصوت صوت شاعر كبير ملهم ومالبثت الخصومة أن همدت حتى التقينا لقاءنا الفريد فى بغداد ١٩٥٨ ٠

وكانت ثورة العراق قد نشبت عندئذ ٠ فرحب بى الشـــاعر العربى المؤمن ترحيب الشقيق بالشقيق ثم سمعت عن اضطهاده فى عهد قاسم الدموى ، وقرأت أشعاره بالتنديد بالطغيان الهائج الذى صاحب ذلك العهد اللعين ٠ ونمت الى أخبار مرضه منذ عام ، وظننته ما ظننت حتى فوجئت بهذا الخبر اللاذع الشديد الوقع ٠ وعذاب الشعراء سنة من سنن الحياة ٠ وهو مهذب وجدانهم وهو أيضا طريقهم الى الابداع ولكن ذلك هو شـــأن عذاب الروح التواق الى الاستشفاف والسمو لا شأن عذاب الجسد المهين ٠ ان عذاب الروح

(★) انظر الجزء التاسع من مجموعة الأعمال الكاملة .

هو السبيل الى الفرحة الغامرة · اما عذاب الجسد فهو طريق الألم الأخرس الذى يستوى فيه البشر وغيرهم من الكائنات ، اشفقت اذن ايما اشفاق على الصديق الشاعر الحساس من عذابه ·

ولكن حين قرأت ديوانه الأخير (منزل الأقنان) عرفت أن الشاعر قد فلسف عذابه حتى يستطيع احتماله ، ومن أعماق الضمير الانسانى استلهم الشاعر أروع قصة لعذاب الجسد وهى قصة (أيوب) الصابر حين ابتلى فى جسده وثروته وأبنائه ولاشك أن بلاء أيوب كان عظيما، ولكن أعظم ما فيه كان بلاؤه فى جسده الذى نهشه المرض عضوا عضوا ووجد الشاعر بلواه وفلسفته فى (سفر أيوب) بل لقد أحس بنفسه أيوب هذا العصر والآوان :

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الألم

لك الحمد ، ان الرزايا عطاء

وان المصيبات بعض الكرم

الم تعطنى انت هذا الظلام

واعطيتنى هذا السحر

فهل تشكر الارض قطر المطر

وتغضب ان لم يجدها الغمام ؟

شهور طوال ، وهذى الجراح

تمزق جنبى مثل المدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل اوجاعه بالردى
ولكن ايوب ان صاح صاح
لك الحمد ان الرزايا ندى ،
وان الجراح هدايا الحبيب
اضم الى الصدر باهاتها
هداياك فى خافقى لا تغيب ،
هداياك مقبولة ، هاتها
اشد جراحى ، واهتف بالعائدين :
« الا فانظروا واحسدونى ، فهذا حبيبى »
وان مست النار حر الجبين
توهمتها قبلة منك ، مجبولة من لهيب

هكذا يتحمل الشاعر عذابه كما تحمله أيوب المبتلى ، ولكن انتصر أيوب المعجز ولكن الشاعر يسعى الى المعجزة ، ويغترب عن وطنه ويفارق زوجته وأطفاله حيث يرقد فى ظلام مستشفيات لندن ٠

ولولا الداء ما فارقت دارى ، ياسنا دارى
واحلى مالقيت على خريف العمر من ثمر
هنا لا طير فى الأغصان يشدو غير اطيار
من الفولاذ تهدر او تحمحم دون خوف من المطر
ولا ازهار الا خلف واجهة زجاجية

تراح الى المقابر والسجون بهن والمستشفيات

الا ٠٠٠٠٠ الا يابائع الزهر

اعندك زهرة حية ؟

اعندك زهرة مما يرب القلب من حب واهواء ؟

اعندك زهرة حمراء سقتها شموس استوائية ٠

فى (سفر ايوب) ، من اسفار العهد القديم أن الله الكريم تحنن على أيوب وعفا عنه بعد طول عذاب ٠ قال له الله الكريم (الآن شد جفونك كرجل ٠ تزين الآن بالجلال والعز عرائس المجد والبهاء ٠٠ فرق فيض غضبك ٠ وانظر كل متعظم واخفضه ودس الأشرار فى مكانهم) ٠

وشفى الله قروح ايوب ورد اليه ماله واولاده ، وعاش ايوب بعد خلاصه من بلواه مائة واربعين سنة رأى بنيه وبنى بنيه الى اربعة اجيال ، ثم مات أيوب شيخا وشبعان من الأيام ٠ فاللهم بحق ماعفوت عن أيوب ، أعف عن الشاعر المريض ٠

قالوا لأيوب : جفاك الاله

فقال : لا يجفو

من شد بالايمان لا قبضتاه

ترخى ، ولا اجفانه تغفو

قالوا له :والداء من ذا رماه

في جسمك الواهي ومن ثبته

قال : هو التكفير عما جناه

سيهزم الداء من اغفو

ثم يفيق المعين من غفوة

فاسحب الساق الى خلوة

اسال فيها الله أن يعفو

عكازتى فى الماء ارميها

واطرق الباب على اهلى

الاهــــرام ١٩٦٤/٤/١٧

لوركا شـاعر الأندلس

كان صبيا ، صغيرا ، سليل أسرة لابأس بثرائها ومكانتها ، ولكن فى قدميه عرجا خفيفا يعوقه عن اللعب مع الصغار ، والعدو معهم فى حقول وادى غرناطة وعلى ضفاف غدرانه ، ولذلك جعل عرائسه هى عالمه والعابه ، ولما كانت العرائس لا تستطيع أن تتكلم ، فقد الهمه خيال الطفولة الخصيب ان يؤلف لها كلاما ، وان يجعل الحياة تجرى فى القطن والورق ٠

وكان الطفل يمشى ذات يوم فى احد شوارع المدينة حين رأى فى واجهة أحد المتاجر مسرحا صغيرا بعرائســه المتباينة الأزياء المختلفة الملامح ٠ عالم كامل من الرجال والنساء والأطفال ٠ تظل الحياة ساكنة فيهحتى تحركها يد فنانة تلعب بالمصائر ، كما تفعل يد القدر بانسان الحياة ٠ واشترى الطفل هذه اللعبة واصبحت هى عالمه الفاتن المستغرق لحيويته الدافقة ٠

وكبر الطفل ، فاستبدل بالعرائس شقيقه وشقيقته ومربيته وخدم بيته ٠ كان يؤلف لهم أدوارا ، ويخرجها ، ويشترك فى تمثيلها ٠٠

والجمهور هو بقية أهل المنزل الأندلسى الذى فيه من ملامح منازل اثرياء الريف كثرة الأهل والأقارب والخدام ٠

ودخل الطفل الجامعة فى مدريد ٠ ولكن طبعه المغرى بتتبع الحياة وهى دافئة فىوجوه الناس ، وقراءة الأفكار وهى مجنحة على الشفاه ، بدلامن تتبعها وقراءتها مجمدة مصلوبة على الورق ، هذا الطبع عاقه عن اتمام حياته الجامعية ، فانطلق فى المدينة بمقاهيها الصغيرة وحواريها القديمة وميادين المصارعة ومجتمعات الأدباء ، يسمع الأغانى الشعبية ويتأمل الحركات التشكيلية للرقص ٠ كل ذلك وصلته لم تنقطع بسهل غرناطة الذى التقى فيه بطوائف الغجر الرحل أو الخيتانو كما يسميهم الاسبان ، وتلقى عنهم أن الفن يجب أن يكون متعة لجميع الحواس ، للروح والعين والأذن معا ، فهم ينشدون أشعارهم شفاها فتجرى فيها الموسيقى جريان الماء فى العود ، وتمتلىء بالاسجاع والتوريات والاشارات ٠ وهى فى نفس الوقت قريبة كل القرب من قلب الانسان ، وهم ينشـــدونها وهم يتحركون حركة موقعة راقصة فيمتزج الرقص والغناء معا وهم بعد أن ينشدوا اشعارهم يحسون بالراحة والهناءة كأنهم رفعوا عن كواهلهم عناء العيش الشديد ٠

وبين العشرين والسابعة والثلاثين أعطى لوركا الشعر عطاء سخيا ، جعله فى طليعة شعراء القرن العشرين ، فكتب عديدا من المجموعات الغنائية اهمها أغانى غجرية وشـــاعر فى نيويورك ٠ و « ديوان فى تأماريت » وست مسرحيات ناضـــجة كاملة ، منها مسرحية « يرما » التى يقدمها مسرح الجيب القاهرى الآن ٠

كان أوضح ما فى شاعرية لوركا هو هذه المصالحة القوية بين التراث والجديد ٠ فهو حين اهتدى الى ينبوعه الأول ، وهو الأغانى الغجرية لم يدع موهبته الشعرية ومقدرته على الخلق الجديدتتضاءلان

امام اغراء التراث وجاذبيته · بل أخذ من هذه الأغانى الغجرية جوهرها وأسرار روحها هذا العالم الحسى الملىء بالرؤية الجديدة لكل مظاهر الحياة ، المتفتح للالوان والظـــلال والروائح والملمس تفتحا شبقيا ، والحزين فيالوقت ذاته لحضور الموت فى كل لحظة ، وتوقفه على مفرق الطريق القادم · أخذ لوركا هذه الروح وصاغها صياغة جديدة هى صياغة انسان معاصر مثقف قرأ شكسبير وهيجو وكالدرون وغيرهم ، ففى احـــدى قصـــائده المبكرة يقول بعنوان « أغنيات جديدة » :

الأصيل يقول·· انى ظمآن للظل ··

القمر يقول ·· انى ظمآن للنجوم اللامعة

النبع البلورى اللامع يطلب شفاها

والريح تطلب تنهدات

وانا ظمآن للشذى والضحكات

وظمآن لأغان جديدة

بريئة من الأقمار والليالك

وبريئة من الحب الذابل

اغنية للغد تثير

مياه المستقبل الهادئة

أغنية تصل الى روح الأشياء

والى روح الرياح

اغنية تستقر فى نهاية المطاف

فى فرحة القلب الأبدى

ذلك كان طموحه ، أن يحقق بالشعر امتزاجه بقلب الحياة ، وقصيدته لكما ترى عامرة بالرؤية الحسية ، وبمفاجأة التشبيه والاستعارة كأنه يخلط العالم كله فى كأس واحدة · وذلك هو ما استفاده من أسلوب أغانى الغجر ·

أما العالم الغجرى الشعبى فقد استقطر موضوعاته وحكاياته · يقول فى قصيدة له بعنوان « الزوجة الخائنة » :

وأخذتها نحو النهر

معتقدا انها عذراء

ولكن تبين ان لها زوجا

كان ذلك ليلة القديس جيمس

كانت انوار الشارع تخبو

وفراشات الليل تتوهج

وفى حنيات الشارع الاخيرة

لمست نهديها النائمين

وتفتحا لى فجاة كانهما

سنابل الخزامى

وكان حفيف ثوبها

يرن فى الثلى
كأنه قطعة من حرير
تمزقها عشرة خناجر
والاشجار ، دون ضوء فضى
على قممها ، غدت أطول
وأفق من الكلاب
تعوى بعيدا من النهر
بعد أن اجتزنا أشجار البوص والشوك
وتحت عنقود شعرها
صنعت فجوة فى الرمل الناعم
خلعت رباطى فخلعت ثوبها
وخلعت حزامى بالمسدس •
وخلعت هى صداراتها الأربعة
لا زهرة المسك ولا الصدفة
لها مثل هذه البشرة الرقيقة
ولا مرايا الزجاج تشع
بمثل هذا البريق
فى تلك الليلة
عدوت فى أجمل الطرق

ضعدت على اجمل المهارى

دون شكيمة او ركاب

وكرجل لن اكرر

الأشياء التى قالتها لى

ضوء الفهم قد جعلنى اكثر حصافة

مبللة بالرمل والقبلات ، اخذتها

بعيدا عن النهر

وسيوف السوسن

تتصارع مع الهواء

لقد تصرفت كما انا

كغجرى تماما

اعطيتها ملء سلة من الكرز الأحمر

ولم أرد لنفسى ان تقع فى حبها

لأن لها زوجا بينما قد قالت لى

انها عذراء ، وأنا آخذها الى النهر ·

تلك هى احدى قصائد « اغنيات غجرية » ، واصـــل الأغنية شعبى والأبيات الثلاثة الأولى من أغانى الغجر المتوارثة ، ولكن لوركا ملأها شعرا مستوحيا نفس التقاليد مع اصالته الخاصة · وحين صـــدر هذا الديوان ظن معظم النقاد الذين اســـتقبلوه بالترحيب والاعجاب أن لوركا قد اصبح شاعر الغجر · ولم يفزعه وصف

مثلما أفزعه هذا الوصف · انه ليس شاعر الغجر ، بل هو شاعر تجربته الخاصة · وفى ذلك الوقت التقى لوركا بسلفادور دالى زعيم المدرسة السيريالية فى الرسم وتوطدت بينهما صداقة متينة · ووجد لوركا نفسه يدافع عن دالى ، ويتأثر بالاتجاه السـيريالى تأثرا كبيرا ·

صادفت تلك الفترة أيضا زيارته لأمريكا عام ١٩٢٩ ، وهو فى الحادية والثلاثين من عمره · والتحق هناك ببرنامج لتعليم اللغة الانجليزية فى جامعة كولومبيا ، ولكنه هجره بعد أسبوع حين أيقن من عجزه عن تعلم تلك اللغة ، وهناك قرأ شاعر أمريكا الديمقراطى العظيم « والت ويتمان » مترجما للاسبانية ، ولونت السـيريالية وقراءة ويتمان رؤيته لأمريكا ·

جئت لأرى الدم العكر

الدم الذى يسحب الآلات الى السدود

ويسحب الروح الى فم الأفعى

ان مجموعة لوركا « شاعر فى نيويورك » هى عطاء الفترة السيريالية فى حياته · لقد فوجىء بالثراء الفاحش والآلية المسرفة والاضطهاد الفظيع لواحد من كل عشرة من السكان ·

زنوج ، زنوج ، زنوج ، زنوج ·

الدم لا أبواب له فى ليلكم المنكفىء

لا تورد فى الدم

دم يغلى تحت البشرة

يعيش فى شوكه الخنجر

وفى قلب الاصفاع الممتدة

تحت مقراض قمر السرطان العلوى

هنا يبدو تأثر لوركا العميق بالسيريالية وتبدو المجموعة عسيرة الفهم شأن أشعار السيرياليين ، حتى لمن كتبت لهم • وقد استنفدت تلك المجموعة تأثراته السيريالية وعاد لوركا بعدها يفتش عن نبع جديد • فوجد بغيته فى بعض الأشعار العربية الأندلسية القديمة والى الشعراء العرب اهدى مجموعته التى اختار لها اسما عربيا « ديوان من تاماريت » ، فعاد بذلك الى التراث مرة ثانية •

هذه المصالحة القوية بين التراث والمعاصرة هى أوضح ما يميز لوركا ، وثمة مصالحة أخرى فى شعره هى المصالحة بين المسرح وبين الشعر الغنائى • فلوركا لم يدخل المسرح بعد ان أجدبت موهبته كشاعر غنائى شأن بعض الشعراء المحدثين ولكن المسرح والغناء امتزجا بأيامه معا • ففى أول حياته الأدبية يخرج « اغانى غجرية » ومعها مسرحيته الأولى «تعويذة الفراشة » وفى آخر أيامه بعد نجاح مسرحيته العظيمة « منزل بارناردا البا » يكتب مجموعة من الشعر عن « السونيتات » • ومسرحه هو سليل المسرح الاسبانى القديم برمزيته الممتزجة بالواقعية وبحضور الموسيقى والرقص على المسرح، بل واندماجها العضوى فى الأحداث المسرحية • ومسرحه يستحق حديثا طويلا لا يتسع له المقام وقد عرضنا له فى القاهرة « منزل برناردا البا » ويعرض له مسرح الجيب الآن « يرما » فلعلنا بعد ذلك ندخل عالم لوركا الرحيب الجميل •



الأهـــرام ٢٤/٧/١٩٦٤

مدينة العشق والحكمة

.. ولقد ولدت بباب اسماعيلا

مرت ذكرى موته الثانية والثلاثون هادئة جيية ، وكأنه لم يكن يوما ملء السمع والبصر ولم يلقب بالأمير على قبيلة الشعراء ، ولم يسع الى بيعته أهل الأدب وأحبابهم من كل الأرجاء ، ولم يلهج بشعره القارئون من تلامذة المدارس وأساتذة الجامعات .

ولست فى هذا المقام الوم ، ولكنى أحاول أن ألقى السؤال : لماذا تخفت ذكري شوقي عاما بعد عام ، وتخفت معها أصداء شعره .. أذلك هو الزمن وما يفعل بالأموات ؟ اذن فكيف يعيش بعض الشعراء عشرات السنين ومئاتها وسيرتهم مازالت نضرة ، وشعرهم مازال متورد القسمات ، أذلك طبع فينا ان ننسى عظماءنا لأن عناصرنا امتزجت بنكران الجميل . وكيف ذلك ونحن شديدو الجفاوة بالماضي حتى ليكاد ينسينا ذكر الحاضر بل اننا لنغالى احيانا فى تقييم السلف حتى ليبدو الخلف الى جانبهم أقزاما ونكرات .

لماذا إذن لم يتحدث الكثيرون عن شوقي في يوم ذكراه التي مرت منذ أسبوع هادئة جيية ، ان القول في الشاعر العظيم لا ينفد

عادة ، بل ان الناقد يستطيع أن يضيف اليهحياة جديدة بما يصطنعه من المفاهيم لشعره وفكره ··

الواقع أن العيب ليس فينا ولا في شـــوقى ، ولكن فى هذا الطريق المغلق الذى سارت فيه معظم الدراســـات التى كتبت عن شوقى بعد موته · فقد كان معظم الدارسين يختارون الطريق الأسهل وهو طريق تتبع أغراض شعره ، وكأن كل هدفهم أن يحاكموا وطنيته، فبعضهم يجعل منه شاعرا وطنيا يلهج بالاستقلال والحرية والفداء والتضحية ، ولذلك بعد أن يحجب أو يحاول أن يحجب عن القراء شطرا ضخما من شعر شوقى لا وطنية فيه ولا استقلال ولا حرية ولا فداء ، وكان البعض الآخر يحاول أن يجعل منه شاعرا مطعونا فى وطنيته ، يمدح الانجليز ، ويرتبط ولاؤه بالترك ويغير من مواقفه السياسية مع هبوب الريح ، وذلك بعد ان يحجب هؤلاء ، او يحاولوا حجب شطر آخر منشعر شوقى هجا فيه الانجليز أو والى فيه مصر وحدها ·

والآن ، ومعظم الدراسات النقدية مستعجلة مغامرة ، ومعظم النقاد يتخذون سمت القضاة الذين يحاسبون على العقائد لا على الفن ، لا يجد احد فى نفسه الشجاعة على أن يتهم شوقى أو يبرئه . لأن أدلة الاتهام تعادل ادلة البراءة ، بحيث لا ترجح كفة على كفة · ومن هنا كان ذلك التوقف والارجاء ·

ولا سبيل الى بعث شوقى ، بل لا سبيل الى بعث ماضينا الا بالبدء بالدراسة الفنية التى قد يتسع مداها لتستعين بدراسة الواقع الاجتماعى والفكرى الذى عاش فيه الشاعر أو الفنان ، ولكن بالقدر الذى يلزم لتفسير فنه والقاء الضوء الكاشف على نتاجه ·

ليكن شوقى أذن شاعر الوطنية والبعث أو شاعر السـراى والترك ، فذلك ليس قصدنا الأول ، ولكن قصدنا الأول ، هو كيف عبر عن موقفه وعن ذاته بهذا الانتاج الضخم الذى يتمثل فى أربعة مجلدات كبيرة وعدد من المسرحيات ·

* * *

من كان شوقى الانسان ، وهل طابقت الصورة التى نعرفها له شعره ؟ ما أقل ما نعرف من الحقائق عن الحياة الخاصة لشاعرنا الكبير · ولد شوقى بباب اسماعيل خديوى مصر ، من أرومة تركية ، ولعل من أعجب العجب فى حياة شوقى أن يتمكن هذا الرجل البعيد الأصل عن العربية من أسرار اللغة العربية ، بل والعامية المصرية كل هذا التمكن ·

سافر شوقى الى فرنسا فى أواخر القرن التاسـع عشر ، والحركة الرومانتيكية فيهاقد بلغت ذروة نضوجها التى تؤذن بالانهيار فيما بعد ، فهل عاش فى فرنسا معيشة أبناء الذوات الفارغين ، أم معيشة الدارسين المتأملين ، أم انه اختار حياة ثالثة ، وهى أن يعيش معيشة الشعراء الذين تندفع الحياة فى عروقهم ويستلهمون حكمتها من التجربة لا من الكتب ·

عمل شوقى بعد عودته بسراى عباس حلمى شاعرا لبلاطه ، ومعظم قصائده فى تلك الفترة تدور فى محورين ، محور عباس حلمى حين يقيم حفلاته الراقصة فيشدو فيها شوقى بأغانيه الراقصة ، ومحور سيده وسيد عباس حلمى الخليفة العثمانى الذى كتب فيه شوقى ثمانى عشرة قصيدة فى بضع سنوات ·

هل كان شوقى صديقا لعباس حلمى مثل صداقة المتنبى لسيف الدولة بحيث يرى فيه صورة بطل من أبطال الأمة ، ويخلع عليه كل القيم الكريمة التى يؤمن بها ؟ أم أن الأمر كله كان أمر عمل وظيفى ؟ وللجواب على ذلك نتذكر أنه حين خلع عباس حلمى ، وتولى الأمر من بعده حسين كامل أسرع شوقى يمدحه بالقصيدة التى يقول فيها :

« أأخون اسماعيل فى أبنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا »

ولم يفته فى آخر القصيدة أن يعرض بعباس حلمى والاضطراب الذى عرفته مصر فى عهده ·

كان شوقى اذن يرى فى الشعر وظيفة رسمية وسبيل الى الوجاهة الاجتماعية « شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب » كما يقول فى احدى قصائده التى يحيى بها حفلة الرقص الخديوية ·

وليس من حقنا أن نلوم شوقى على هذا الوضع ، فهو امتداد لرؤية العرب للشعر ، ومحاكاة لنظرتهم الى دور الشاعر الاجتماعى فالشعر عندهم لون من القول يستدر به المعروف وتقضى به الحوائج وخير الشعر أبيات يقدمها المرء بين يدى حاجته · وأهم أغراضه المدح ومعكوسه الهجاء وثالثهما الرثاء بأن تبدل الفعل من المضارع الى الماضى ، وتقول كان بدلا من « انه » ·

ينبع شعر شوقى من هذه النظرة لا فى الرؤيـــة الاجتماعية فحسب ، بل فى الرؤية الفنية أيضا · فمما لاشك فيه أن شوقى لم يصطدم بالحضارة الغربية الا قليلا · لم يكن مفتوح الذهن والصدر مثل مواطننا العظيم رفاعة الطهطاوى الذى سافر الى باريس قبله بنصف قرن · فعاد وقد مزج مزجا موفقا بين عروبته ومصـــريته واسلامه وبين باريس العلمانية التجريبية المتقدمة ، بل عاد شوقى وليس فى جعبته من تذكارات باريس الا غابة بولونيا واللهو الدائر فيها · ومما لا شك فيه أيضا أنه لم يصطدم بالأدب الأوروبى الا قليلا

•• فظل أسير تلك النظرة التقليدية الى الشعر ، ولكن شوقى كان موهوبا رفيع القدر فى المملكة الشعرية • فلم يدر فى الفلك الذى كان يدور فيه بعض شعراء عصره من التقليد والضحالة بل طمع الى أن تكون عودته بالشعر العربى الى أزهى عصــوره فى الصــياغة والأداء •

كان شوقى سلفيا ، ولم يكن محافظا والفرق بين الســلفى والمحافظ هو أن السلفى يريد العودة الى عصور الماضى الزاهرة فيلبس لباسها ، ويتحدث بلغتها ويفكر بطريقتها ، أما المحافظ فهو يريد الجمود على التأخر • وذلك هو الفرق بين شـــاعر كشوقى وشاعر كالشيخ الليثى نديم اسماعيل •

والعودة الى السلف الصالح ، وهم فى الشــعر أبو نواس والمتنبى وابن الرومى وأبو تمام والبحترى وغيرهم ، سبيل سار فيه البارودى خطوات قبل شوقى ، ولكن خطى شوقى كانت أكثر اتساعا وأحر شبابا •

من هذه العودة وما تقتضيه من نظرة للشعر ، نستطيع تفسير اضطراب مواقف شوقى السياسية ، ونستطيع أيضا تفسير تألقه على شعراء عصره فى الصياغة والتعبير ، ولعل هذه العودة أيضا هى التى تستطيع تفسير هذه المعارضات الشائعة فى شعر شوقى •

وتستطيع هذه السلفية تفسير شىء محير فى شعر شـــوقى أيضا • ذلك هو اختفاء شخصيته • فلن تجد غزلا أسخف من غزل شوقى فى دواوينه ، فهو يحرص على أن يبدى مهارته لا شخصيته ، ولعل هذا هو التقليد السلفى الذى ورثه شوقى عن الشعر العربى •

ان شوقى وجهان ومرحلتان :

لقد تغير شوقى كثيرا بعد عودته من منفاه بالأندلس · لم تغير من طبعه بضعة سنوات فى أوروبا قضاها فى مطلع الشباب ، ولم تغير من طبعه سنوات عاشها على أعتاب الأمير ، ولكن غير من طبعه ما لمسه فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ من انتفاض وغليان ·

وكان بعض ذلك الانتفاض والغليان فكريا وأدبيا · اذ خرجت المدارس العليا بعض أبنائها ، وعاد بعض الموفدين من أوروبا ، وتغيرت لغة الكتابة فى الصحف والمجلات وولدت كلمة « الأدب الجديد » و « المدرسة الحديثة » على لسان العقاد وزميله ، ثم اشتد الهجوم على شوقى وبلغ ذروته فى كتاب « الديوان » للعقاد والمازنى·

ولابد أن شوقى سمع كلمة « الأدب الجديد » تلك كثيرا ، ولابد أنه فكر وأعاد التفكير فيما قد يكون هذا الأدب الجديد · فقد كان ذلك هو حديث العصر فى مجال الأدب ، ولنذكر أن الشيخ محمد عبد المطلب اضطر فى ذلك الوقت ان يصف الطيارة ليكون عصريا ، وان حافظ ابراهيم يقول فى احدى قصائده « ودعونا نشـــم ريح الشمال » ويقصد ريح الأدب الأوروبى ·

وبدأت محاولات شوقى ليجدد نفسه · بدأ السلفى يتحول الى عصرى ، ولا شك أن مما ساعده كثيرا على ذلك ان كثيرا مما يربطه بالماضى قد انهار ، فقد انهارت صلته بالأمير ، وانهارت الخـــلافة العثمانية بل وتغيرت صورة الحياة كلها ، وهنا أيضا تغيرت الصياغة الشوقية ، فصارت اقل ضخامة واكثر موسـيقى وتخلصـــت لغته من هذه الألفاظ الغريبة التى كان يحشرها حشرا ·

ثم كانت الملامح الثلاثة العظيمة لشوقى ·· المسرحيات ·· شعر الأطفال ·· اغانى العامية المصرية ·

وما أحرى شوقى أن يدرس فى هذا الضوء ··

الاهـــرام ١٩٦٤/١٠/٢٣
حتى نقهر الموت

بين الشعراء ولجنة الشعر

لنبدأ من البداية .. فى مصر لجنة تسمى لجنة الشعر ، وهى احدى لجان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وقد كان رئيسها عباس محمود العقاد ، فلما توفاه الله آلت رياستها الى عزيز أباظة ومعه فى هذه اللجنة فئة من الشعراء نذكر منهم احمد رامى ومحمود حسن اسماعيل وصالح جودت وكامل الشناوى ومحمود غنيم الذى لابد أنك قرأت له شعرا فى كتاب المحفوظات وطائفة أخرى لن يزيدك ذكر أسمائهم معرفة بهم . ومع هؤلاء جميعا أستاذ فلسفة بالجامعة هو الدكتور زكى نجيب محمود .

وقد كان للأستاذ العقاد ــ يرحمه الله ــ رأى فى الشعر الجديد، اذ رآه غير جدير بالدخول الى عالم الشعر ولكنه كان يكتفى للتعبير عن رأيه بان يرد هذا الشعر عن المسابقات وأن يمنع أصحابه ــ جهد طاقته ــ من حضور المهرجانات . وتخطى أصحاب هذا الشعر الجديد راضين عن أمجاد لجنة الشعر بالمجلس الأعلى ، ومسابقاتها ومهرجاناتها وجوائزها ، وايقنوا أن التصاق قرائهم بهم هو أجدى عليهم من كل ذلك الضجيج ، ولكن الرئيس الجديد للجنة الشعر ،

وبعض اعضاء لجنته من ورائه طمعوا فىالقراء أيضا ، ورأوا أن افضل وسيلة لتحقيق ما يبتغون هو استصدار قرار حكومى يمنع نشر الشعر الجديد وتداوله فلعل ذلك يرد اليهم قراءهم الهاربين ٠

وقدمت لجنة الشعر مذكرة الى الدكتور عبد القادر حاتم رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب تحمل ذلك المطلب ولم يكن من حقنا أن نتعرض لهذه المذكرة وهى مازالت معروضة على الدكتور رئيس المجلس ، لولا أن أعضاء اللجنة سارعوا بنشرها فى احدى المجلات الأدبية فأصبحت بذلك مقالا علنيا من حق الأدباء جميعا أن يتعرضوا له بالنقاش ٠ لم يفت ذكاء اعضاء اللجنة أن مطلبهم ساذج فحاولوا اخفاء سذاجته بمقدمة طويلة يبدو فيها اثر التكلف المنطقى واعياء العقل اللاهث وراء الحجج الهاربة الملفقة ، ولم شتات الهجوم من كل جهة والاستعانة بالتصورات الخاطئة لدين الدولة وسياستها لسوق ذلك كله والقائه فى طريق اصحاب الشعر الجديد ، تبريرا لطلب المصادرة ومنع النشر ٠ وحين انتهوا من المقدمة صـــاغوا مطلبهم فى عبارة متواضعة تخفى وراء تواضعها بشاعة الظمأ الى السلطة الأدبية وفظاعة الرغبة فى التنكيل بحرية التعبير ، قالوا ـ غفر الله لهم ـ بنص عبارتهم :

ولهذا تقترح لجنة الشعر أن يكون لها نوع من الاشراف على كل مايتسم بميسم الدولة من وسائل نشر الشعر فبمثل هذا الاشراف تضمن اللجنة حقها فى رعاية الشعر ، مسددة له الخطى محققة له سلامة الهدف » وما وراء عبارتهم المتواضـــعة هو انهم يريدون الاشراف على ما ينشر من شعر فى المجلات الادبية الخمس التى تصدرها الدولة وماينشر من شعر فى دور النشر التى تمولها الدولة مثـــل الـــدار القوميـــة ، والـــدار المصـــرية ، وما ينشـــر من شـــــعر فـــى الصـــحف اليوميـــة ، اذ أن ملكيتهـــا قـــد

انتقلت الى الشعب ؛ وما يقال من شــعر فى الاذاعة والتليفزيون وبالاجمال كل نفس شعرى يتردد فى أرجاء مصر لابد أن يحصل على اذن لجنة الشعر ، فبذلك تضمن اللجنة حقها ـ كما تقول ـ وكأن المسألة مسألة سلعة ودائن ومدين وحق يستوجب الضمان ٠ فما الأدواء التى رأت لجنة الشعر أن علاجها لا يتيسر الا بجثومهم على صدر الشعر العربى الحديث ٠ ذلك هو حديث المقدمة الطويلة التى ساحاول تلخيصها ملتزما جانب الامانة البالغة ٠

تقول لجنة الشعر ان مهمتها (هى ابراز الطابع القومى فى الفن واحتفاظ الأمة بشخصيتها وطابعها المميز ، وبديهى انه اذا أريد لشخصية الأمة أن تظل محتفظة بطابعها المميز فلا مناص من قيام اطار يدوم على مر التاريخ ليكفل لها الثبات برغم تنوع الموضوع داخل هذا الاطار عصرا بعد عصر ٠

ولكن أصحاب المحاولة الجديدة فى الشعر عندنا قد خرجوا عن هذا الاطار ، ولجنة الشعر ـ كأى مجمع من مجامع العلم والفن ـ تقيم عملها على الأسس المستقرة لأنها مسئولة على القيم الثابتة ، تاركة للأفراد أن يحاولوا الجديد الذى يتفق مع أذواقهم ، فاما أن يتمخض عن نزوة عابرة تجىء وتذهب واما أن يثبت مع الأيام ويرسخ وعندئذ يضاف الى القيم الفنية التى منها تتكون شخصية الأمة وعندئذ كذلك يعترف به عند المجامع الرسمية ، وتمضى المذكرة لتقول : وانه لما يلفت النظر فى الداعين الى موجة التهديم هذه أنهم كانما يؤنبهم أن يروا الشكل التقليدى المراد تحطيمه متمثلا فى قمم الشــوامخ القــريبة الأقدمين والمحدثين فتراهم يجعلونه جزءا من خطتهم أن يطيحوا بتلك القمم ٠

ان مراجعة سريعة لكثير مما يسمى بالشعر الجديد لتغنى للدلالة على أن أصحابه واقعون تحت تأثيرات اذا حللناها وجدناها منافية لروح الثقافة الاسلامية العربية ·· من ذلك ميلهم الشديد نحو الاستعانةفى التعبير بعناصر يستمدونها من ديانات أخرى غير العقيدة الاسلامية بل ربما تأباه تلك العقيدة كفكرة الخطيئة وفكرة الصلب وفكرة الخلاص ·· ذلك فضلا عما يستبيحونه لأنفسهم بالنسبة لكلمة (الاله) كأنما هى ماتزال عندهم كلمة بمعناها الوثنى، ولم تتخذ فى الاسلام معنى خاصا يجب احترامه مهما كان السياق الذى ترد فيه ·· هذا هو هيكل المذكرة ، والقوام الفكرى له هو ذلك الخاطر الغريب الذى يدور حول اطار يدوم على مر التاريخ ، وفكرة الاطار الثابت فكرة خاطئة أدبيا واجتماعيا وسياسيا فمنذ أن قال الفيلسوف اليونانى القديم (انك لا تنزل النهر الواحد مرتين) والعالم يؤمن بالتغير والصيرورة كما كان الأقدمون يقولون ·

ولو آمنا بقيام اطار يدوم على مر التاريخ ، لما كان هناك مجال لأى تقدم تحرزه الانسانية ولما انتقل الانسان من الاقطاع الى الرأسمالية الى الاشتراكية ، ولما تطور المجتمع من الصيد الى الزراعة الى الصناعة ولما تحولت الملحمة الى الرواية وأغانى الأعياد الدينية الى المسرح ولما وجد الشعر المرسل الذى كتبت به مسرحيات شكسبير ولما تحول كثير من الشعر العربى من القصيدة الموحدة القافية الى الربعيات والخمسيات والموشحات ولما آثرت بعض البيئات العربية فى صدر الاسلام الأوزان القصيرة وآثر غيرها المقطعات الغنائية ، ولو التزمنا بنظرية الاطار الثابت فى أدبنا العربى لما ولدت الرواية العربية واكتفينا بالمقامات ، ولما ولد المسرح العربى الحديث وكفانا مخايلات خيال الظل وهو مستورد على أرجح الآراء ، ولو التزمنا بنظرية الاطار الثابت لظللنا نرتدى الجلاليب والنعال وانى

لاعلم أن كثيرا من أعضاء اللجنة ابدلوا اطـــارهم فى منتصــف عمرهم·فخلعوا العمائم والقفاطين واستبدلوا بها البدلةورابطةالعنق فهل تغيرت بذلك شخصيتهم ومقوماتهم ؟ ان الثبات هو أبغض كلمة الى أى مفكر مستنير وليس الثبات دليلا على عظمة الأمة ولكنه دليل على اضــــمحلالها وفطريتها · وهل هنا مجتمعات اكثر ثباتا من المجتمعات المتخلفة التى قد يعنى بها علماء الانثروبولوجيا (علم الانسان) مثل مجتمعات الاسكيمو والهوتنتون والوشـــمان والانكا والازتك وغيرها ·

هذه هـــــى المجتمعات الثابتة التى تحجرت شـــخصيتها على مدى التاريخ وانى لأخيب ظن أعضاء اللجنة حين أقول لهم ان مجتمعنا المصرى العربى لم يعرف الثبات قط ·· لم يعرف الثبات فى السياسة حين قام بثوراته المتلاحقة ، وكان آخرها هو تغير نظام الحكم من الملكة الى الجمهورية وتغير المضمون من الاقطاع الى الاشتراكية واظن أن أعضاء اللجنة يدركون أنه كان من المحال أن يولد المضمون الاشتراكى فى الاطار الملكى ولم يعرف الثبات فى حين ولدت الرواية والمســـرح المصـــريان وحين تطورت اللغة النثرية بالاستعمال لتصبح لغة ملائمة لاغراض العصر ، كل ذلك دليل على أن الثبات سواء فى الاطار أو فى المضمون مناف لطبائع الأمور ··

فاذا آمنا بان التطور هو طبيعة الآدب لا الثبات فكيف يتم التطور دون محاولات منشورة نتلمس صـــداها عند الرأى العام القارىء ، وكذلك سلك أصحاب الشعر الجديد ، حين نشروا شعرهم خلال السنوات العشر السابقة فلاقت ترحيب قرائهم وأجمعت ناشئة الشـــعراء فىالأمة العربية فى الخليج الى المحيط على التأثر بها والصدور عن هذا العالم الذى فتحته التجربة الشعرية الجديدة ·· وأصحاب الجديد لم يزعموا أن جديدهم ينفى وجود القديم ، بل هم

يؤمنون بان كل الأطر الأدبية تستطيع أن تتعايش وأن الزمن هو الحكم . والشكل القديم يتمثل كما تقول لجنة الشعر فى قمم شوامخ، ولم يدع أحد الى تهديم هذه القمم بل الي دراستها دراسة ادبية متانية للاستفادة من تجربتها الشعرية ولكن يظهر أن اعضاء لجنة الشعر - تبعا لنظريتهم العرجاء عن الثبات والاستقرار - يفضلون تحنيطهم ولف جثمانهم الأدبى فى الاكفان المعتمة ، ولعل هذا فى صالحهم حتى لا يقرن القارىء بين عظمة الماضي متمثلة فى قمم الشوامخ وبين زيف الحاضر متمثلا فى بعض اعضاء لجنة الشعر .

ونأتى بعد ذلك للفقرة الأخيرة ، وهي الحديث عن اصحاب الشعر الجديد وأن اعضاءه واقعون تحت تاثيرات منافية لروح الثقافة الاسلامية العربية ولنسأل : ماهي روح الثقافة الاسلامية والعربية ؟ هل هي متزمتة أم متفتحة . هل من روح الثقافة العربية ان تدين اتجاها باكمله لأنه يستعمل الفاظها مثل (السلب - الخطيئة - الخلاص) ان أكبر ما اضافته الحركة الشعرية الجديدة هو الاستعانة بالرمز فالصلب عند كثير من الشعراء - رمز لتضحية الانسان فى سبيل القيمة التى يؤمن بها . والاسلام يعرف كلمة الخطيئة كما قال القرآن الكريم (والذى اطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) وفى ظنى أن هذه الفقرة الأخيرة من بيان اللجنةمماحكة لفظية لا يليق صدورها عن مثقفين يعرفون أن الشعر الجديد استعان بكثير من العناصر الرمزية مثل السندباد الجوال وسيزيفيوس الذى يدحرج الصخر ، وبرمثيوس الذى سرق النار للبشر فعاقبته الآلهة ، وايزيس واوزيريس ووفاء الزوجة للزوج ..

لا يعنى ذلك أن اصحاب هذا الشعر قد صاروا اغريقا او فراعنة او انتقلوا من قاهرة القرن العشرين الى بغداد القرن العاشر بل هم يبحثون عن رمز لتجربتهم الشعرية يتيح لها غنى وامتدادا

(اما كلمة الاله فقد استعمل القرآن اله وآلهة بغير المعنى الاسلامى وطالما اطلق النقاد على شاعر كالبارودى (رب السيف والقلم) وبعد فلقد كنا ناخذ للجنة ماخذ الهزل وهاهى ذى قد كشفت عن مخالبها التى لابد من تقليمها ، بل لابد من نزع فكرة الاطار الثابت من عقول أعضاء اللجنة ، فان لميستطيعوا أن ينقدوا أنفسهم نقدا ذاتيا وينزعوا من عقولهم فكرة الاطار الثابت فعليهم أن يتنحوا فورا عن أماكنهم لغيرهم ممن يؤمنون بالتغير وبان المجتمع يتطور نحو الأفضل وأن الشعراء هم اصحاب تجربة الشعر الذين يضعون لها القوانين ويسنون لها الشرائع ٠

الأهـــرام ١٩٦٤/١١/٢٧

سكت الصــوت الصارخ فى البرية

ما أكثر ما تردد اسم الشاعر الناقد ت · س · اليوت فى معاركنا النقدية حتى أصـــبح به عندنا علما على النزعة المعادية لارتباط الأدب بالحياة ، وتأثره أو التأثر به دليلا على الانطاء عن تيار الجموع · وليس من شك فى أن اليوت قد اتخذ لنفسه هدفا اجتماعيا قد لا يرضى الكثيرين ·

وقد أجملت لنا برقية طيرتها احدى وكالات الانباء بعد موته ، ولم تنشر فى الصحف المصرية لأنها لم تجد لها مكانا ، وكان لى أن أقرأها ، أجملت هذه البرقية التى احتوت حديثا خيرا له مع الصحفى الأمريكى سيالز برجر موقف اليوت من قضايا المجتمع من حوله،قال اليوت أنه لا يستغل مكانته ككاتب فى تأييد قضايا لا يختص بها الكتاب مثل التسلح أو حروب التحرير ،بل يترك هذا المجال لرجال السياسة ، وانه التزم موقفا محايدا فى أثناء الحرب الأهلية الأسبانية وانه لم يخرج عن ذلك « الالتزام » الا مرتين احتجاجا على ماساتى الكاتبين تيبور ديرى فى المجر وباسترناك فى الاتحاد السوفيتى لأنه يعتبر أن من واجبه الدفاع عن حرية الكاتب ككاتب بغض النظر عن

النظم السياسية وعقد سالزبرجر فى برقيته الموجزة مقارنة قصيرة بين ت · س · اليوت ، وبين عدد من أشهر معالم العصـــر وهما برتراند راسل وجان بول سارتر ، فالأخيران استخدما كل وزنهما الأدبى فىخدمة القضايا السياسية سواء بالكتابة أو بالاشتراك فى أعمال الاحتجاج الجماعية والتوقيع على العرائض وما شابه ذلك من ألوان العمل السياسى بينما ظل اليوت عاكفا على كتابة شعره والقاء محاضراته فى الجامعات والمجامع ·

واليوت لا يعتذر عن هذا الموقف ، بل يراه انسب المواقف لرجل الفكر ، ولاشك أن هذا الموقف موقف متخلف حين يتخذه أحد أئمة الكتابة فى هذا القرن العشرين ، قال : وماجدوى أن يجتمع مائة أو مائتان من رجال الأدب والفكر ، ويبعثوا باحتجاجاتهم وتوقيعاتهم ويصرخوا بأعلى أصواتهم ، ان ذلك كله لن يفلح فى اقناع رجال السياسة بعدالة مطلب من المطالب ولكن الحق أنهم عندئذ لا يبحثون عن جدوى الحل بقدر ما يؤدون الواجب ودع كلمة الأدباء تفعل بعد ذلك فعلها البطىء الأكيد فى ضمير العالم ، وتحول تيار الفكر والعمل معا ·

ولكن دراسة اليوت من هذه الناحية فحسب دراسة ناقصة بل ان دراسته من حيث فكره السياسى الذى أجمله فى كتابه«نحوتعريف الثقافة» دراسة ناقصة أيضا فلاليوت جـوانب متعددة أخرى فهو شاعر اهتدى الى رؤية جديدة وأسلوب خاص للتعبير الشعرى ·

هذا الأسلوب التعبيرى الجديد الذى اهتدى اليه شاعرنا الكبير أفاد منه جل الفائدة معظم الشـــعراء المتقدمين فى العالم ، كما استخدمت الرافعة الميكانيكية التى اســـتعملت أول مرة فى اطلاق القذائف المحرقة فى بناء الحضارة الانسانية فيما بعد ·

لقد ابتعد اليوت فى شعره عن عالم التراجيديا القديمة ٠٠ عالم الانسان الأولى ليكتشف عالم الحياة اليومية المعاصرة ٠ فكأنه أدار أحداق الشعراء فى هذا العالم، وكانت رؤيته الشخصية رؤية دينية متشائمة تؤمن بعبث العلم فى سباق الانسانية المتواصل طوال عشرين قرنا هى عمر الحضارة المسيحية فى الوصول الى الله ، فصبغت هذه الرؤية مشاهد الأشياء من حوله ولكن شعراء آخرين كثيرين تأثروا به فى اقترابه من الحياة اليومية المعاصرة ، ولونوا مشاهدها برؤيتهم المتفائلة أو المؤمنة بالانسان ٠

واليوت نفسه ناقد كلاسيكي يحتل مكانة رفيعة فى تاريخ النقد ، وسيذكر تاريخ النقد الحديث اسمه الى جانب كولردج وماتيو أرنولد وريتشارد وغيرهم ، وقد أجمل اليوت آراءه النقدية فى حوالى سبعين مقالة ومحاضرة ومراجعة جمع بعضها فيما بعد فى كتابين له ، وأولى مقالاته النقدية المهمة هى مقالته « الموروث والموهبة الفردية » التى نشرها عام ١٩١٧ ، وتعد كلمة « الموروث » احدى مفاتيح نظرته النقدية ، وهو يعنى بالموروث تاريخ الانسانية الأدبى ، وينظر الى هذا التراث كله ، وكأنه قد تصادف وجوده بأجمعه فى زمن واحد ، واذا كان الماضى يؤثر فى الحاضر ، فان الحاضر أيضا يستطيع أن يؤثر فى الماضى بتوضيحه واعادته الى الحياة ، وتلك هى غاية النقد ومهمته ٠ فليست مهمة النقد هى تدوين تاريخ الأدب او القاء الأضواء على الجمال والقبح ، ولكن مهمته هى اكتشاف تراث أدبى يمتد عبر القرون والأجيال ، ويستطيع تمييز الصلة المستمرة النامية بين حاضره وماضيه وكل شاعر معاصر هو حلقة من سلسلة طويلة من الآباء والأجداد فى عالم الأدب والتجربة الأدبية ، وقد تخير اليوت أسلافه الأدباء ، فوقف عند دانتى وشكسبير وجون دون وبليك وأسقط رومانسيى القرن التاسع عشر ، وانعكست

هذه النظرة الى الموروث ءى شعره فحفل بالاقتباسات والاحالات الى نصوص قديمة ، فكأن التجربة الشعرية كلها على اختلاف عصورها معين واحد ومظهر واحد ·

وما أحوجنا نحن الى نظرة اليوت للموروث فى تناولنا لتراثنا الأدبى ، فنحن نؤثر فى المتنبى والمعرى بقدر ما يؤثران فينا ، نحن نعرضهما للامتحان الدائم ونلقى عليهما الأضواء الجديدة ·

وما أجل الفائدة لو أحسسنا بانهما يجريان فى عروقنا وأننا أيضا نمتد أمامهم بدلا من تلك النظرة الضيقة التى يصطنعها بعض أدبائنا حين ينظرون فى تراثنا فيتناولونه بتسليم متزمت أو اهمال خاطىء ·

وقد أقترح اليوت معنى جديدا لكلمتى الرومانسية والكلاسيكية فالرومانسية تعنى عند النقاد بعامة غلبة الخيال على الفكر ، بينما تعنى الكلاسيكية سيطرة العقل على الخيال · واليوت يقول ان الرومانسية هى أدب المشاعر الفجة المهوشة وأن الكلاسيكية هى أدب العاطفة الواضحة المصقولة الناضجة · ومن التفرقة بين المشاعر والعاطفة اهتدى اليوت الى نظريته فى المعادل الموضوعى كما ترجمها بعض نقادنا أو البديل الموضوعى كما يقترح آخرون من النقاد ·

الشعور حالة غامضة لم تقترن بعد برؤى وأحداث ، ولم تنظم بحيث تصبح منبعا لعمل فنى ، يجب تخليصه من زوائده وشططه لكى يرقى الى مرتبة العاطفة ، فالفنان قد يشعر بالحزن أو بادبار الشباب مختلطا بعديد من الأشياء الأخرى ، منسكبا مهوشا على سطح النفس ، وبعد معاناة هذا الشعور الذى قد يخطىء الشعراء الرومانسيون الانفعاليون فيعبرون

عنه بسذاجته تلك ، يتحول هذا الشعور الى عاطفة مركزة تنفى عنها ما يميعها من الاحساسات الأخرى ٠

ولما كانت كل عاطفة ترتبط بعديد من التداعيات التى تمس كل انسان ، وبعديد من الصور التى تستثير لو ذكرت عاطفة مشابهة عند القارىء ٠ فان مهمة الفنان اذن أن يبعث هذه الصور والتداعيات ليعطى بها لعاطفته عمقا واتساعا ونفاذا ٠ وليست هذه التداعيات والصور الا المعادل الموضوعى لعاطفته ٠

الشاعر اذن لا يتحدث عن ذاته ، ولكنه يهرب منها الى ذات كونية عامة يخاطبها أو الى شىء قريب من اللاشعور الجمعى الذى تحدث عنه يونج ٠ ومن هنا تستمد التجربة الأدبية والتعبير عنها عموميتها وشمولها ٠ ونظرية المعادل الموضوعى ثورة ذكية على الانفعالية أو السنتمنتالية التى شاعت فى أدب القرن التاسع عشر ، وما أحراها أن تكون ثورة على المجاز والتشبيه فى شعرنا العربى ، وهذه النظرية هى مفتاح فهم شعر اليوت ٠

لقد سكت صوت من أرفع أصوات القرن العشرين وأكثرها ذكاء ، وأحدها احساسا ٠ صوت أطلق على أولى قصائده وأشهرها « البرية » أو الأرض الخراب ، فكانت اعلانا برؤيته الممتدة اليائسة للعالم ٠

الأهـــرام ١٩٦٥/١/٢٢

ثم جـف المطـر

تسعة وثلاثون عاما عاشها الشـــاعر بدر شاكر السياب ، واثخنته جراحها حتى أسلمته للتراب شيخ الروح والجسد ، فكان كل عام من هذه الأعوام عبئا مضاعفا وثقلا ثقيلا ٠

وبدر شاكر السياب ـ حين ينجلى تنافس الأحياء على المجد الذائع والصيت المبذول ـ سيشرق اسمه فى حقل الشعر العربى الحديث ، فهو أحقنا نحن الشعراء العرب المحدثون بكلمة الريادة ووصفها ٠ وفى حقل الشعر العربى الحديث الآن أعلام كثيرة فى العراق ومصر وسوريا ولبنان ، وغيرها فى أرض العرب ، ولكل منهم طابعه وعقله وزاوية رؤيته وشعرهم يثمر فى القلب كما تثمر الأشجار الخضراء،ولكل ثمرة مذاقها٠ولكن هناك اضافات فىالشكل والتعبير لايكاد يدركها الا من جرب أصـــول الصنعة ووقف على أسرارها ، ولبدر شاكر السياب من هذه الاضافات مايفوق الحد الادنى ٠

وحركة التجديد الشكلى فى الشـــعر حركة تضرب فى تاريخ الشعر العربى ، ومن البديهى أن الشعر الجاهلى فى نشأته الأولى

كان أكثر تسامحا فى الوزن والقافية مما تلاه من شعر،ولعل الشعر العربىلم يبلغ هذه الدرجة من الاحكام الموسيقى الا حين استخرج الخليل بن أحمد قواعد علم العروض والقافية من النماذج المروية من العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، ومنذ ذلك الحين تشعب الطريق طريقين ، أحدهما يرعى ذلك الاحكام الموسيقى من حيث وحدة القافية وتكرار حرف الروى واستكمال الصيغة العروضية بكل تفعيلاتها ٠ وثانيهما يحاول التخفيف كما فى الاراجيز وبعض أشـــعار ابى العتاهية ، والموشحات الأندلسية ونماذج قليلة من الشعر المطلق ونماذج أخرى مما اصطلح على تسميته « بالجاد » وهو ما أوردت أمثلته الناقدة الشاعرة نازك الملائكة فى كتابها عن الشعر الحديث ، وبلغ الاتجاه الى الاحكام مداه فى لزوميات ابى العلاء ، ووقف الاتجاه الثانى عند الموشحات والبنود ، وقد تكون الحاجة الى تعتيق الثوب أو كسر الاناء لم تبلغ مداها فى العصـــور الماضية ، ولكن العصـــر الحديـــث بمـــا ملأ به وجدان الشـــعراء وعقولهم ، قـــد أوقف الشـــعراء على مفـــرق طـــريق ٠ لقد ضـــاق الازار هذا العصر قد أوقف الشعراء على مفرق طريق ٠ لقد ضاق الازار عن استيعاب الجسد الممتد أو ضاق الاناء عن احتواء السائل الفوار، فكان لابد أن يتمزق الازار ليعاد تشكيله ويستوعب من جديد ، وجدان الشـــعراء ٠

وقد بدأ هذا التمزق عند مدرسة الديوان فمعظم شعر العقاد المبتكر مثلا رباعيات وثنائيات وخماسيات ٠دعك من مدائحه وقصائده فى المناسبات ــ ومعظم شعر مدرسة ابوللو ــ من بعد ــ رباعيات وثنائيات وخماسيات ، ولقد أصبحت القافية الموحدة عبئا بلا جزاء ٠ وأصبح مجزوء البحر أصفى موردا من البحر ذاته ، ونجد شاعرا كابراهيم ناجى ــ ينتقل فى قصيدة واحدة « الاطلال » من الرمـــل الى المتدارك استجابة لتغير الصوت الذى يتردد فى القصيدة ٠

لكن هذا التمزق الجزئى لم يستطع أن يستوعب الوجدان الجديد ، ومن هنا خرجت الصورة الجديدة للعروض العربى وأصبحت التفعيلة التقليدية وحدها وحدة عروضية قائمة بذاتها ، وصارت القافية عنصرا عفويا يستعمله شاعر كأداة من أدواته الموسيقية دون الزام ٠

ولعل السياب كان أسبق ابناء هذا الجيل الى ملء الشكل الجديد بالمضمون الجديد ، ومن هنا استمدت التجربة جدارتها بالحياة ، فقد كانت معظم التجارب التى سبقتها مثل تجارب عبد الرحمن شكرى وغيره تحقق حسن النية ولكنها لا تحقق الشاعرية بنفس المقدار ٠

لم يلجأ السياب الى هذا الشكل الجديد هربا من تبعات الشكل القديم ، وماكان له أن يهرب وقد توفرت له سليقة لغوية نافذة ، واطلاع واسع على الأدب العربى وبمقدوره ان ينظم كما ينظم سابقوه فيحكم اللفظ ويصيب القافية ويرسل القول ارسالا غير متوجس من انقطاع النفس أو كلال الذهن ٠ ولكن الآفاق التى كان يريد ارتيادها كانت تريد جناحا جسورا لم تقيده أغلال السليقة التقليدية التى تمت على المحاكاة ، كان يريد أن يقص قصة « المومس العمياء » و « حفار القبور » وان تتردد فى داخل القصيدة أصوات متداخلة متراوحة ، وأن ينتقل حرا من الوصف الى التقرير الى الاثارة الى التلوين ، وان يقف بالبيت حيث أراد لا حيث تريد القافية واحكام العروض ولابد للرؤية الجديدة اذن من عروض جديدة ٠

وقد بدأ السياب يرسل أنغامه الجديدة فى أوائل الخمسينات وقد تكون المحاولة الأولى للعروض الجديد أسبق من الخمسينات بعامين أو ثلاثة ، ولكن النغم لم يرق ويعذب الا فى أواسط

الخمسينات ، وكانت فاتحة ارتقائه لقمة الأداء قصـــيدته الرائعة « أنشودة المطر » وهى التى أطلق اسمها على ثالث دواوينه وأكبرها « أنشودة المطر » ٠

فى تلك الفترة كان السياب قد تغرب عن وطنه العراق الى شاطىء الخليج العربى هربا من طغيان حكومة نورى السعيد ، ولعل فترة النفى تلك قد أفادته استجلاء لنفسه وتعميقا لاحساسه وثقافته ولكن بدرا لم يكد يبلغ مشارف السماء حتى أذنته الاقدار بالمحلق ، فابتلاه الله بمرض قاس لا يرحم ، مرض احتار فيه الأطباء ظل يميته عضوا عضوا حتى همد القلب فى الخامس والعشرين من ديسمبر الماضى ٠

فى هذا العمر القصير المتعب أعطى الســـياب الشعر وأجزل العطاء ، فقد ظل حتى آخر نفس من أنفاسه يكتب ويترنم ، وهو ملقى على سرير أحد مستشفيات الكويت بعد أن طاف بدائه يطلب البرء على أطباء لندن وبيروت وعاد خائب المسعى ٠ وتحت ظلال الموت كتب السياب ثلاثة من دواوينه « المعبد الغريق » و « منزل الاقنان » و « شناشيل ابنة الشلبى » ٠

وقد صدر الأخير منها ببيروت قبل وفاته بأيام وتمت بصدوره الدائرة السحرية لعالم السياب ، الشاعر الذى بدأ حياته الشعرية ملتزما كأعنف ما يكون الالتزام وأدقه وانهاها عائدا الى أحــلام الطفولة والصبا بعد أن خاض الحياة فهزمته وأثخنت روحه وجسده جراحا ٠ فى أشعار السياب الأولى (المومس العمياء) و (حفار القبور) نجد الموضوعات الاجتماعية فى صياغة شعرية ، وقد اقترن فيها الموضــوع الخارجى بوجدان الشاعر فالمومس العمياء بطلة القصيدة المسماه باسمها ابنة فلاح يقتل لأنه سـرق تحت ضــغط

الحاجة ، فلجأت الى البغاء حين خلفت القرية الى المدينة ، وتفقد بصرها ويستهلك البغاء عافيتها حتى يمر عليها الليل دون أن يطرق بابها ضيف يدفع ثمن الحياة وموضوع المومس موضوع رومانتيكى ازدحم عليه الفنانون ، والسياب يضيف له بعدا اجتماعيا ملتزما حتى ليكاد يصرح بل هو يصرح بالفعل بهدفه الاجتماعى فيقول : حتى ما عليها أن تعيش بعرضها وعلى سواها ٠

من هؤلاء البائسات ، شاء رب العالمين ٠٠

أو يقول :

ومن الذى جعل النساء

دون الرجال ،فلا سبيل الى الرغيف

سوى البغاء

وليقارن بين هذا التقرير الواضـــح وبين قوله فى (أنشـودة المطر) تلميحا دون تصريح :

اصبح بالخليج ٠٠ يا خليج

ياواهب اللؤلؤ والمحار الردىء

يرجع الصدى كانه النشيج (ياخليج)

ياواهب المحار والردىء

وينثر الخليج من هباته الكثار

على الرمال : رغوة الاجاج والمحار

وما تبقى من عظام بائس غريق

من المهاجرين ظل يشرب الردى

من لجة الخليج والقرار
وفى العراق الف افعى تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندى
واسمع الصدى
يرن فى الخليج
مطر ·· مطر ·· مطر
فى كل قطرة من المطر
حمراء او صفراء من اجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراء
وكل قطرة ، تراق من دم العبيد
هى ابتسام من مبسم جديد
او حلمة توردت على فم الوليد
فى عالم الغد الفتى واهب الحياة
وسيهطل المطر ··

كان ذلك التلميح دون التصريح هو آية نضوج الشاعر الفنى وقد يستهويك هذا التلميح باكثر مما تستهويك بعض المناظر الصارخة و (حفار القبور) حين يسترد الحفار من حبيبته الميتة ما كان اعطاها من نقود · ولكن السياب ماكاد يدرك حدود التزام الشـــاعر حتى اضطراب العالم فى عينيه كما اضطرب داخله ، ثم فاجأته العلة ، فلجأ الى داخل نفسه عائدا خطوة خطوة الى الماضى الذهبى للصبا السعيد ·

وقبل تلك العودة للصبا مر السياب بحرقة الآلام فعلق عذابه على عذاب النبى أيوب مثال الصـــبر على البأســاء والى الذين يستطيعون البكاء للشعر الجميل اهدى هذه الأبيات من أروع ما أهدى لنا السياب :

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الألم

لك الحمد ، ان الرزايا عطاء

وان المصيبات بعض الكرم

الم تعطنى انت هذا الظلام

واعطيتنى انت هذا السحر

فهل تشكر الأرض قطر المطر

وتغضب ان لم يجدها الغمام

شهور طوال وهذى الجراح

تمزق جنبى مثل المدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل اوجاعه

لك الحمد ان الرزايا ندى

وان الجراح هدايا الحبيب

اضم الى الصدر باقاتها

هداياك فى خافقى لا تغيب

هداياك مقبولة هاتها ·

اشد جراحى ، واهتف بالعائدين

الا فانظروا واحسدونى ،

فهذى هدايا حبيبى

الا ما أكثر ما أهداه الله ، بلاء وصبرا وذكرا سيتردد مادام للعربية شعر ·

الاهـــرام ١٩٦٥/١٢/٢٥

وهو شــاعر ايضــا

وكأن القاهرة فوجئت حين عرض فيلم « زوربـــا اليناني » بمؤلف قصته ، وكان كازانتزاكس اسم جديد على أسماعها مثلما كان صامويل بيكيت وجان جينيه منذ سنين · وليس ذلك الا دليلا على ارتجال حركة الترجمة عندنا · فان نيكوس كازانتزاكس من ألمع روائيي القرن العشرين · ولن يخفف من عبء عدم تقديمه للقارىء العربي أنه يكتب باللغة اليونانية فقد ترجمت رواياته الى لغات اكثر حياة من اليونانية،ولعل علة اهمال ترجمته هي أن الترجمة فيبلادنا يلزمها أن ينعقد لها مجلس من « العقلاء » ، يفكر فيما يترجم وما يدع ، وما يقدم وما يؤخر ، ولكن ·· ما علينا ، فلندع ذلك للزمن الذى يحقق الأماني ويلهم الى الصواب ·

ولست أدعي لنفسي معرفة تفوق معرفة غيرى بهذا الأديب العظيم ، فما أنا الا مطالع لبعض ما يقع في يدى ، ويعجله الوقت والعجز عن قراءة كل ما يشتهي · وقد أسعدنى الحظ أن أقع على بعض مؤلفات كازانتزاكس منذ سنين ، كما يقع القارىء العربي ـ بالصدفة الكثيرة والاجهاد القليل في معظم الأحيان ـ على أحد

أعلام الفكر الأوروبى ، فيفتن به ، ويلهج بالحديث عنه · وقد اطلعنى ما قرأته له على مكانته الروائية ، وذلك حظ شائع من شهرته فى العالم الأوروبى القارىء · ثم اطلعنى أيضا على مكانته العظيمة بين شعراء القرن العشرين ، وذلك ما أردت أن أقول ·

والمعجزة اليونانية الحديثة معجزة جديرة بالتسجيل ، فاليونان ــ مثلنا نحن المصريين ، ومثلنا أيضا نحن العرب ــ أمة تصدرت التاريخ زمنا ، ثم غبرت القرون فطمرت الأمجاد وأعقمت الينابيع حتى كأن الجد العبقرى والحفيد الخائب لم يتسلسلا من أرومة واحدة · وفجأة يبرز العرق الأصيل وينبت ويزدهر ، وتنجب اليونان الحديثة ثلاثة ــ على ما نعرف ونسمع ــ من عباقرة الشعر والفن أولهم كازانتزاكس ثم كفافيس شاعرنا اليونانى السكندرى ثم سفيرس الحائز لجائزة نوبل منذ عامين ·

وقبل أن أتحدث عن أعمال كازانتزاكس الشعرية ، أريد أن أبسط حياته وفكره ، معتمدا جل الاعتماد على مقدمات الترجمات الانجليزية لأعماله بعامة ، وعلى المقدمة المسهبة ، التى كتبها كيمون فريار مترجم ملحمته « الأوديسة » الجديدة الى الانجليزية بوجه أخص ·

ولد كازانتزاكس بكريت ــ موطن بطله زوربا ــ فى عام ١٨٨٣، وتلقى تعليمه الأول بالجزيرة ، ثم حاز درجة فى القانون من جامعة أثينا ، وأنفق بعدها خمس سنين متجولا فى طلب المعرفة بأوروبا أتقن خلالها خمس لغات حديثة فضلا عن اللاتينية والاغريقية ، وتتلمذ بباريس على الفيلسوف الفرنسى العظيم هنرى برجسون ، وفى سنوات أخر من عمره زار مصر وفلسطين والصين واليابان ، وقضى عامين فى روسيا القيصرية · وفى عام ١٩١٩ عين مديرا عاما

لوزارة الخدمات أو الشئون الاجتماعية بتعبيرنا ، وفى تلك الفترة ، أشرف عندئذ على ترحيل حوالى مائة وخمسين ألفا من اليونانيين من القوقاز وجنوب الروسيا وتوطينهم فى مقدونيا ٠ ومرت السنوات وهو يعمل فى ترجمة الياذة هوميرس وأوديســـته وكوميديا دانتى وفاوست جوته الى اليونانية الحديثة ، ويخرج رواياته وكتب رحلاته، فلما احتل المحور اليونان هجر أثينا الى جزيرة صغيرة من جزر الأرخبيل اليونانى حيث عاش فى فقر مدقع ٠ وحين حررت اليونان عمل فترة قصيرة فى عام ١٩٤٥ وزيرا للتربية ثم وزير دولة ٠ وفى عام ١٩٤٧ عمل مشرفا على الترجمة بين اللغات العالمية بمنظمة اليونسكو ، ولكنه اعتزل العمل بعد عام واحد ونذر نفسه للعمل الأدبى وحده ، وأقام منذ ذلك الوقت فى مدينة من مدن الريفييرا الفرنسية ٠ حتى مات فى عام ١٩٥٧ فى مدينة فرايبورج بألمانيا ٠

ومن الخطابات التى تبادلها كازانتزاكس مع مترجم ملحمته كيمون فريار يتضح أثر فيلسوفين كبيرين فى فكره ٠ أما أولهما فهو الفيلسوف الالمانى نيتشه الذى كتب عنه أولى رسائله العلمية فى عهد التلمذة الفلسفية ، فقد اختار أحد أفكار نيتشه ليجعلها محورا لعمله الفنى ٠ وهى الفكرة التى تقول ان الديونيزيوسيه تقوم فى مواجهة الابوللونية ٠ والديونيزيوسية « نسبة الى الاله ديونيزيوس » اله الخمر والحياة البهيجة ورمز النشوة والالهام ٠ أما الابوللونية فهى رمز العقل والسلام والتوائم ٠ ونيتشه يقول أن الديونيزيوسية هى منبع الفن ، وان الفنان الحق هو من يترك عنان أفكاره ينطلق حرا حيث يشاء ، فرحا بالحرية مفتونا بها ٠ بل هو من يتحدث بلغة اللحم والدم ، فان لغة اللحم والدم هى فى ذات الوقت لغة الروح ٠

ويحدثنا كازانتزاكس أيضا انه حين يجلس على مكتبه ، لايضع فى ذهنه خطة سابقة لما يريد أن يكتب ، بل يترك شخصياته تختار

مواقفها وتصرفاتها · ويضيف الى ذلك · أن الأدب العظيم هو لون رفيع من ألوان الاعتراف ، وهو يستشهد بكلمة لجوته يقول فيها « اذا أردت أن تصنع أدبا يفيد الأجيال القادمة فما عليك الا أن نعترف » ·

ولكن هل يعنى ذلك أن نتخلى عن العقل تخليا مطلقا ، وأن نهجر « أبوللو » اله التصميم والاحكام هجرا بائنا ؟ لا بل ان العقل يجب أن يسبق الالهام ، ولكن ساعة الالهام نفسها ساعة مقدسة ، تلقائية ، عفوية ، مليئة بالبهجة والعذاب معا ·

ومن نيتشه أيضا راقت لكازانتزاكس فكرة اعتبار التراجيديا بهجة الحياة ، وهى بهجة مشوبة بالحزن والماليخوليا لأنها بهجة رجل قوى يرى سعادته فى معاندة قانون الحياة وايقافه · وتتردد فى كتابات كازانتزاكس هذه النغمة التى يجملها قول الفيلسوف الألمانى الساحق التأثير « عيشوا فى خطر ، ابنوا مدائنكم بجوار البركان ، ابعثوا بسفنكم فى البحار التى لم تستكشف بعد ، عيشوا فى حالة حرب » ·

وبجوار نيتشـــــه ـ هكذا يحدثنا فريار ـ تأثر كازنتزاكس بالفيلسوف الفرنسى هنرى برجســـون ، صـــــاحب كتاب «التطور الخلاق » ويقول النقاد ان برجسون أثر فى كازانتزاكس بقدر ما اثرت فلسفة أرسطو وتوماس الاكوينى فى دانتى · فقد استمد منه فكرته المحورية عن الوثبة الحيوية ، فالحياة خلق مستمر ، خطوة الى الامام ، ثم وثبة دافعة ،وكل تاريخ الحياة حتى ظهور الانسان ليس الا وثبات عملاقة للارتفاع بالمـــادة ، لكى تخلق كائنا يتخلص من الحتمية الميكانيكية ·

ويضيف كازانتزاكس الى ذلك أن الحياة بالنسبة للمادة هى كالالهام بالنسبة للقصيدة . فالكلمات تنفجر من الهام القصيدة .. ولكنها لا تصنع القصيدة كأحس ماتكون ، بل لابد من الذكاء البشرى لكى يوجد الكلمات ويعيد تنسيقها ، وهنا نعود الى نيتشه ، فنجد ذلك التوحيد بين ديونيزيوس وابوللو ، او بين الالهام والصقل ، بل والصقل الملهم .

ولكن هل نيتشـــه وبرجســـون وحدهما هما منبع نظـــرة كازانتزاكس ؟ ان بعض نقـــاده يتتبعون فى كتاباته اثار كثير من عمـــالقة الفكر الآخرين . وهم « خلطة » غريبة من ذوى المذاهب والآراء . فلينين قد أثر فيه كثيرا كما اثر فيه بوذا ، والمسيح استهواه شخصية وسلوكا كما استهواه داروين بنظريته ، وسبينوزا ودانتى وشبنجلر يضيئون كثيرا من نواحى انتاجه ، وكتاب « الغصـــن الذهبى » للعلامة فريزر قد أمده بزاد لا ينفد من الفهم الأسطورى ومن التمثل لفكر الأقدمين . وذلك كله دليل على أن النفس الكبيرة تأخذ باقتدار وتستوعب بقوة ، فهى كالمعدة القوية التى تطحن كل شىء ، وتتمثله فى بناء الجسد ، أو كشجرة أسطورية تمد جذورها الى اميال بعيدة عمقا واتساعا ، ولكنها لا تنبت الا ثمرها ونوارها .

والعمل الشعرى العظيم الذى اســـهم به كازانتزاكس ، هو ملحمة جديدة عن اوليس . بطل الالياذة الهومرية يبلغ طولها ثلاثة وثلاثين الف بيت ، اى ثلاثة اضعاف الملحمة الهومرية . وهو يبدأ محلمته بحرف العطف (و) ، وكان هومير يستانف حكايته .. ماذا حدث لأوليس بعد عودته الى ايتاكا .. هل استقرت به الحال وهدأت النفس ؟ لقد لوث سيفه بدماء خطاب بنيلوبى ، ثم عانقها ، ورأى اباه العجوز وابنه الشجاع ، ونام فى فراشه واكل طعامه .. فهل انتهت الحياة عند هذا الحد ؟

ان أوليس ملول لا يستقر ، ويستهويه البحر كنز الأسرار المغلقة ، ويتوق الى المغامرة ، فيخرج مرة ثانية ويحق عليه قول دانتى فى جحيمه ، وهو يتحدث بلسان مشقوق ملتهب « لا أحب ابنى ولا الحفاظ على أبى العجوز ، ولا الغرام الخالص الذى قد يبهج بنيلوبى ويستطيع أن يقهر فى نفسى توقى الى اكتساب المعرفة ، معرفة العالم ، ومعرفة فضائل البشر ورذائلهم ، فلأخرج الى البحر العميق بسفينة واحدة ، ومعى حفنة من الرفاق الذين لم يهجرونى » ·

وهكذا خرج أوليس فى رحلته الطويلة ، التى تبلغ ثلاثة وثلاثين الف بيت ، وتحتل ترجمتها الانجليزية ثمانمائة صفحة ·

* * *

ما أشق تلخيص الجمال الكثير فى كلمات قليلة ، وأصعب الحديث عن الشعر الجيد بالنثر الردىء ، وتجميد الحياة كلها على رأس دبوس · أما الحياة التى يصعب تجميدها فهى ملحمة كازانتزاكس المسماة باسم جدتها الكبرى العظيمة « الاوديسا » لمؤلفها جده الأكبر العظيم هوميروس · وأما رأس الدبوس فهى هذه الأسطر القليلة التى يخطفها الطرف فى دقائق معدودة ·

والأوديسا هى حكاية عودة « أوليس » أو أوديسيوس من طروادة الى ايتاكا مدينته بعد انتهاء الحرب ، وبعد أن انتصر القواد والملوك الأوروبيون من حكام اليونان وأرخبيلها على اخوتهم من سكان ساحل آسيا الصغرى أو اليونان الأوروبية ، واستردوا هيلانة الجميلة زوجة منيلاوس من أحضان باريس الجميل أمير طروادة وأشرع كل منهم سفينته للرحيل ولكن الأقدار كانت لأوليس بالمرصاد، فلم يعد لايتاكا الا بعد مغامرات وأهوال ، حدثنا عنها هوميروس فى

ملحمته المكونة من أحد عشر ألف بيت من الشعر · اما ملحمة كازانتزاكس فهى حكاية مابعد وصول أوليس الى ايتاكا ولقائه بأبيه لايرتس وولده تليماك أو تليماخوص وزوجته الوفية بنيلوبى التى علمنا من هوميروس أنها كانت تنقض بالليل ماغزلته بالنهار هربا من الحاح الثقلاء الذين احتلوا قصر أوليس واكلوا طعامه ، ونعوه الى زوجته ، وطمعوا فى ان تتخذ بنيلوبى من أحدهم زوجا لها بدلا من البحار الضال · فكانت تقول لهم انها لن تتزوج من أحدهم الا بعد ان تفرغ من غزلها ، ولات حين نهاية ··

وفى الكتاب الثانى والعشرين من ملحمة هوميروس يعود أوليس الى بلده فيفتك بالخطاب فتكا ذريعا مستعينا بابنه تليماك وتجده حاضنته العجوز وسط الجثث ملوثا بالدم كأنه أسد كاسر قد ولغ فى قطيع أحد الرعيان فتأمر اثنتى عشـــرة خادمة ممن لم يثبت اخلاصهن بازالة آثار المذبحة ،ثم تأمر بعد ذلك بشنقهن · ومن هنا يتناول كازانتزاكس حبل الحكاية ، ويسقط الكتابين الثالث والعشرين والرابع والعشـــرين · وينتقل بنا الى لقاء الزوجة والزوج · أما الزوجة فقد أفزعها منظر زوجها ، وأما الزوج فقد بحث فى نفسه بهجة اللقاء فلم يجدها . وفى أثناء ذلك تجتمع أرامل قتلى حرب طروادة ، وآباء الخطاب المذبوحين والمصروعين ، وأشباح الرجال القتلى ليحضوا الناس على الثورة على أوليس فيستعين أوليس بابنه ·· ولكن الابن المهذب قد فصلت المذبحة بينه وبين أبيه فهو يتمنى لو لم يعد هذا الجزار الوحشى من طروادة · ويواجه أوليس الناس وحده ، ويأخذ فى استلانتهم بما جبل عليه من حيلة ودهاء ، ثم يعود لينام فى حضن زوجته ·

ولكنه مايكاد يلج الى فراش زوجته حتى تداهمـــه ذكريات رحلته ، فلقد رأى الكثير وقد أصبح حنانه الى الرحلة يأخذ عليه

أطراف نفسه بل سويداءها • وماهو بمستطيع أن يقنع بهذا القدر من المعرفة ولذة الاكتشاف بعد أن ذاق حلاوة الضرب فى المجهول ، وينبو به مضجعه فيخرج الى شاطىء البحر •

وينبىء أوليس زوجته بعزمه على الرحيل الى اكتشاف العالم ، ويعد سفينته وفى أثناء فترة اعداد السفينة يموت أبوه الملك لايرتس، فيدفنه فى الأرض التى أحبها ، وتزداد عزلته ، ويختار زملاءه فى رحلته ، وأولهم القبطان « كلام » وصانع البرونز (فلم يكن الحديد قد عرف بعد) هارديهود ، وهو يمنيه بأنه سيقوده الى اله الحديد • ثم « كمثور » السكير ، وسرعان ما يستهوى عملهم وخبزهم وخمرهم « أورفيوس » العازف فيضمه أوليس الى الطاقم ليمتعهم بغنائه •• وذات يوم ينضم اليهم غريب جديد هو « جرانيت » • وذات فجر تخرج السفينة الى البحر دون وداع •

وهنا تبدأ رحلات أوليس الجديدة • ومن شبه المستحيل أن أقص عليك مغامراتها واحدة واحدة • ولكنى سأخول لنفسى الحق أن أشير الى ما قصده كازانتزاكس • لقد مرت الانسانية ـ وهذا الكتاب سجل لتطور الانسان الروحى ـ بمراحل متعددة بعد أن انقضى زمن الالياذة • أما أولها فهو سقوط الآخيين بهجوم القبائل الدورية المتبربرة على اليونان القديمة ، وبناء الحضارة الاغريقية الزاهرة بعد ذلك • وبسقوط الآخيين أمام هجمات الدوريين انتهى العصر الأسطورى الذى تحكيه الالياذة والأوديسا ليبدأ عصر العقل الذى تمثله الفلسفة والفكر اليونانيان ، أما رمز الفترة الآخية فهو هيلانة بجسدها الفائر المليء بالنزوة والاغراء • وقد قصد أوليس أول ما قصد فى رحلته الجديدة الى اسبرطة ليعيد اختطاف هيلانة من قصر الملك منيلاوس ، دون أن يعبأ بحسن ضيافة الملك ، وصداقته له وصحبتهما القديمة فى الحرب • وينتهز أوليس فرصة سكرة الملك بعد المأدبة ليختطف هيلانة ، ويفر بها الى كريت •

وفى كريت ، وهى رمز اليونان القديمة ، كان ملكها بودومنيوس قد ادركه العقم ، وهنا استعان كازانتزاكس بطقوس حفلات الاخصاب عند الشعوب البدائية كما حكاها جيمس فويزر فى كتابه العظيم «الغصن الذهبى» لينظم للملك « بودومنيوس » حفلة من هذه الحفلات وقد كان المقدر أن يضاجع الملك بودومنيوس هيلانة الجميلة .. ولكن الصدف جعلتها تضاجع أحد البرابرة الشقر القادمين من الشمال من أبناء القبائل الدورية ، وهكذا حملت هيلانة فى بطنها جنينا يظنه « بودومنيوس » ابنه ، وهو ابن البربرى الدورى .

ويبحر أوليس بعد ذلك الى مصر ليحدثنا عن هذه الحضارة المنهارة ، وكيف أهلكها الفقر ، ووجود ملك على رأسها يتغنى بأمجاد جده المحارب ، وبمؤامرات فى قصر الملك يشترك فيها أوليس . وفى أثناء ذلك ينبت فى ذهن أوليس عند رؤية مظاهر الفقر والشقاء بذور الوعى المسيحى . كان أول ما أيقظ بذور المسيحية .. فى اقرارها لمسئولية كل انسان ازاء الجنس البشرى جميعه ، ما رآه أوليس فى حفلة اخصاب الملك العقيم . فبين غناء العاهرات المقدسات ورقصهن لا يفوتنا أن نشهد مظاهر بؤس العبيد فى مواجهة الانحلال الشهوى للبلاط . وحين يعطى الملك اشارته تنطلق سبعة من الثيران القوية فى الحلبة ويدور الرقص الجنسى وعند الظهر يوضع بعض الطعام للعبيد ، ولكن امرأة واغلة ومعها طفل صغير تزاحم الناس لتنال طعاما لابنها فلا تكاد تصل الى الطعام حتى يكون الطفل قد مات . وكان هذا المشهد تحت بصر أوليس وهو وحده الذى سمع صرختها وسط ضجة الرقص . فيحس بالألم ، بل بالمسئولية ، وكأنه هو المخلص الوحيد لهذا العالم .

أما قمة وعيه بدوره الانسانى كمخلص للعالم فقد كانت عندما رأى الفقر والكآبة بمصر القديمة ، ويشترك عندئذ فى مؤامرة فاشلة ، ثم يقرر التوغل فى افريقيا ليرى منابع النيل .

وتكون محاولاته عندئذ أن يبنى مدينة فاضلة ، فيضع أساسها . ويذبح ستة من الديكة وستا من الدجاجات فى أساسها رمزا لنهاية آلهة الأولمب الاثنى عشر ويقســـم الناس فيها الى ثلاث مجموعات : الحرفيون ، والمحـــاربون ، والحكام ، فكأننـــا ازاء تحقيق عملى لجمهورية أفلاطون . ولكن الروح التى تسودها هى روح فناء الفرد فى الكل ومسئولية الفرد عن الكل فى ظل التبشير بالمحبة . فكأن فيها الى جانب تنظيم جمهورية أفلاطون بعضا من أقباس مدينة الله التى نادى بها القديس أوغسطين و « يوتوبيا » توماس مور . ولكن ما أشق الحياة فى هذه المدينة . ففكرة الله فيها كأنها فكرة « القائد العام » وما الناس كلهم الا أنفار فى معركة عليهم أن يتعلموا الطاعة . وعلى كل منهم أن يتصرف كأن خلاص العالم يتوقف عليه وحده ، بل يتصرف كأنه لا يعنيه أن يكسب أو يخسر بل عليه أن يصارع فحسب . وذات يوم رأى أوليس جيشا من النمل يقود جملا ميتا ثم طفلا بشريا محتضرا ، فاحتفظ بهذه الرؤيا فى بصيرته ، فوصـــل عندئذ الى قبول تراجيدى للحياة كما هى . أو أيقن أن البهجة هى حقيقة الحياة ، فاعتزل المدينة ليقيم على هاوية ويعظ الناس .

وهنا يبدو أثر فلسفة نيتشه ومراجعاته للنظرة المسيحية ، وذلك هو موضوع الكتاب السابع عشر ، وهو من أرفع أجزاء الملحمة .. فقد اختلطت فيه الحقائق بالتصورات ، وبخاصة فى ذهن أوليس، الذى يعزف على نايه،فتبدو له ألوان من المخلوقات،وتدوربينهاقصص وقصص ، والمؤلف هنا يشير الى دور الفن ، وكيف أنه ينبع من بهجة الحياة ، ومن عشوائيتها وتخبط أقدارها . يخلق ناى أوليس أمراء وعذارى وملوكا ولصوصا وتدور بينهم قصص يتأمل أوليس العبرة فيها ، ثم يودعها ليستسلم الى تأملاته .

وفى عزلته يقصد اليه أمير من الشرق هو بوذا الذى يتسمى هنا باسم موثير فيتبادلان التأملات .

ويرى أوليس موته ، يرى صورته وهو يموت ، لأن موت أى انسان هو جزء منه ، ولكنه يســـتلهمه حتى يقضى بعض أعماله وتذوب صرامة الموت أمام ابتسامته ، وتهب الرياح الأربع فتفتح ابواب عقل أوليس الأربعة • فمن باب الشمال تندفع الأشجار لتلقى بســـوقها العميقة • ومن باب الجنوب تندفع الحيوانات والطيور والحشرات لتنقذ أرواحها • ومن باب الشرق تندفع الأفكار والأحلام ومخلوقات الخيال ، ومن باب الغرب تندفع كتائب الرجال من كل جنس ولون • وكلها تجد لهامكانا لتعيش فى ذاكرة أوليس قبل ان يموت •

وهكذا تنتهى رحلة أوليس الثانية ، رحـــلة مغامرة فى الزمن والأفكار بعد رحلته الأولى فى أهوال الجزر ومخاوف البحار • وليت عربيا منا يوهب جلدا كجلد المؤلف الذى استغرقت هذه الرحلة من عمره خمســـة عشر عاما أو جلدا كجلد المترجم الانجليزى الذى استغرقت هذه الترجمة من عمره أثنى عشر عاما ، لينقل الى العربية هذا الكنز الحديث العظيم •

الاهـــرام ١٩٦٥/٥/٢٣

الاهـــرام ١٩٦٥/٥/٢٨

وتبقى الكلمة

بوشـــكين

يستاثر فن من الفنون لأمة من الأمم بانتباه القراء ودارسى الأدب ، فيصرف ذلك الفن نظرهم عن غيره من الفنون ، وكأن شهرة هذا الفن تقتات من حظ الفنون الأخرى · وكذلك صنعت الرواية الروسية فى القرن التاســـع عشر ، اذ استاثرت باهتمام القراء والدارسين حتى حجبت الضوء عن غيرها من الفنون ، فعرف العالم كله أسماء هذا الرتل العظيم من الروائيين : جوجول وتورجنيف وتولســـتوى ودستويفسكى وتشيكوف الذين يكونون معا الخماسى العظيم المتنافر الألوان فى تآلف ، المتغاير الاتجاهات والآراء فى وحدة خصبة غنية · فجوجول هو الأب الموهوب للقصة الروسية ، ومن معطفه خرج القصاصون الروس جميعا ، وهو الواقعى دون تعمد : الهادف دون ضجة ، الساخر الموجع ، يمتزج عنده الرفيع والدانى ، والشعر بتفاصيل الحياة اليومية والطبيعى وفوق الطبيعى، وتورجنيف هو الغناء والاحكام والرقة والســـلاسة ، وهو اقرب الروائيين الروس الى أوروبا · اما تولستوى فهو الرجل الاخلاقى الذى أراد أن يكون نبيا فلم يفلح الا فى أن يكون فنانا ، وديستويفسكى

عاصفة الرواية وجبلها العاتى ، فيه احتداد العاصفة ونتوءات الجبل ، لا تجد فيه تنظيم الفن ، بل اضطراب الطبيعة وعمقها وسموها ، ثم تشيكوف العظيم عدو التفاهة والحماقة والاسفاف ٠

تجمع كل هؤلاء العباقرة فى ثلاثة أجيال لا اكثر ، فأولهم جوجول كتب كتابه الأول « أمسيات قرب قرية ديكانكا » عام ١٨٣١ ، وخامسهم تشيكوف توفى فى عام ١٩٠٤ واتجه الى المسرح كلية قبل وفاته بعشر سنوات ٠ ومن هنا عدت الرواية الروسية ظاهرة ادبية بل ووثيقة اجتماعية يستطيع الدارسون أن يتأملوا فى ثناياها صورة روسيا القيصرية ٠

ومن الرواية الروسية نفسها ـ نستطيع أن نعرف سمات الانسان الروسى فى القرن التاسع عشر ، بل نستطيع أن ندرك سمات تلك الروح السلافية التى تكاتف على احيائها مجموعة ضخمة من الكتاب الروس على رأسهم ديستويفسكى فى مواجهة محاولة « تأريب » روسيا أى جعلها أوروبية ، وهو الاتجاه الذى كان يتزعمه تورجنيف ، وقد دارت بين الفريقين معركة فكرية وفنية ممتعة وعنيفة معا ٠

وأول سمات الروح السلافية أنها روح ولوع بالشعر ، ففى الرواية الروسية نجد السمر حول المدفأة أو قرب السماور فى الليالى الباردة ، ولا يحلو هذا السمر الا بانشاد الشعر واستنشاده ٠ فالشعر جزء من الحياة فى المجتمع الروسى فى القرن التاسع عشر ، وأغلب الظن أنه مازال كذلك ، فالانباء الصحفية تحدثنا عن عشرات الألوف الذين يجتمعون الآن فى ساحات الرياضة الواسعة لسماع قصائد ايفتشنكوا أو فوزنسنكى أو غيرهما من شعراء السوفييت الجدد ٠٠

وقد حفلت روسيا فى القرن التاسع عشر بالشعراء الموهوبين ، ولكن شهرة الروائيين الروس حجبت شهرتهم ، فضلاً عما يختص به فن الشعر من صعوبة النقل والترجمة ، ولم يفلت منهم من هذا الستار الضبابى الا بوشكين ٠

وقد جرت بعض محاولات لتعريف القارىء الاوروبى بالشعر الروسى ، ومن اهمها كتاب « مختارات من الشعر الروسى » الذى حرره وكتب مقدمته كبار دارسى الشعر وهو الأستاذ سى ٠ ام ٠ باورا وصدر بلندن فى عام ١٩٤٣ ٠ وعلى المقدمة الضافية التى كتبها الأستاذ الكبير لهذه المختارات سيكون جل اعتمادى فى هذا المقال ، الى جانب بعض اندراسات عن بوشكين ٠٠

والشعر الروسى وليد القرن التاسع عشر ، فقبل هذاالقرن لم تكن اللغة الروسية قد استوفت انطلاقتها كلغة أدبية ٠ وكانت بعض الملاحم الشعبية تتردد فى سهول روسيا الواسعة ٠ وقد حفظ لنا التاريخ ملحمة روسية بعنوان « غارة ايجور » عرفها القرن الثانى عشر ،ولكن اللغة الروسية لمتعرف الضبط اللغوى الا فى أواخر القرن الثامن عشر ، فوطن لها بعض كتاب النثر اسلوبا ونحوا وتصريفا ٠ أما تطويعها للشعر فهو ثمرة موهبة شاعر عظيم ، هو اسكندر بوشكين ٠ ففى أى طريق اجتازه الشعر الروسى بعده نستطيع أن نلمح اثاره ومعالم خطاه ، فى الشعر الوصفى والقصصى والمسرحى وقصص الأساطير والبالاد والغنائيات ٠ ذلك هو دوره فى توطين الأشكال الأدبية ، أما دوره فى محتوياتها فهو أوضح وأكبر ، فقليل هم الشعراء الذين فهموا روح مواطنيهم مثل بوشكين ، حتى ليبدو كأنه لكتب عن كل ما يعنيهم ، وما يهم قلوبهم وأرواحهم ، ومن الحق أن شعراء من تابعيه قد أضافوا الى موضوعاته ، أو

صنعوا « تنويعات » عليها ، ولكن بوشكين هو نقطة الانطلاق الوضيئة المضـــــيئة ٠

ويقول الأستاذ باورا فى معرض المقارنة بين الشعر الروسى من ناحية والشعر الانجليزى أو الفرنسى أو الايطالى من ناحية أخرى ان الشعر الروسى بالمقارنة مع غيره أكثر هدوءا فى الصـــوت والنغمة ، وأشد ثباتا فى الألوان ، وأقل مغامرة فى الموضوعات ، وأضيق فى مدى التجربة الشعرية ، وليس ذلك لأن الروسيا القيصرية لم تعرف فترة ميلاد جديد أو « رينسانس » أو فترة ثورة فنية يجدد فيها الفن نفسه ، أو لأنها عاشت قرونا طويلة بعيدة عن الحضارة الغربية ، فلم تعرف الكلاســيكية ، ثم احتجاج الرومانتيكية على الكلاسيكية ٠ بل لأن الشعر الروسى ــ فى ذاته ــ كان وثيق الصلة بالانسان ، ورغم ان رائديه الأولين : بوشكين ولرمنتوف عاشا حياة لا تقل رومانتيكية عن حياة بايرون او شللى ، وقتل كلاهما فى مبارزة عاطفية ،فان شعرهما اكثر صدقا ونفاذا من شعر الرومانتيكيين الأوروبيين ٠ فالشعر الروسى يخلو من الخطابية والمبالغة والخيال الجامح الحاد ٠ وكان هؤلاء الشعراء قد جمعوا مميزات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ففيهم ذلك الصقل وتلك السهولة المحكمة التى تميز بها عصر العقل ، وذلك دون تعاظمه وخطابيته الى جانب الخيال والعاطفة اللذين تميز بهما غلو الرومانتيكية ٠

ولكن الشعر الروسى فى مدى قرن واحد خاض تجارب كثيرة حتى استطاع أن يثبت أصالته وان ينوع ثمراته ، فبعد الموجة الأولى التى أثارها بوشكين وزميله لرمنتوف الذى قتل فى عام ١٨٤١ ، والتى مزجت بين الروح الرومانتيكية والتعبير الكلاسيكى ، ولدت موجة متاثرة بالثقافة الفرنسية ، وبخاصة النزعة البارناسية التى تدعو الى الصقل والتجويد الفنى مع ضبط العواطف واحكام التعبير

عنها ، وتمثلت تلك النزعة فى الشعراء مايكوف وتولستوى وفت ، ثم تلتها موجة متاثرة بالنزعة الرمزية وجدت تعبيرها القوى فى الشاعر بلوك • وقد بدأت تلك الموجة مقلدة للرمزية الفرنسية ، ولكنها مالبثت أن أصبحت روسية صرفا •

ورغم اختلاف طرائق التعبير فان الشعر الروسى لم يتخل عن ارتباطه بالانسان ، فهو قد نما فى وجه مقاومة سياسية • وبوشكين نفسه ظل تحت الرقابة الشخصية لنيكولا الاول سنوات حياته الأخيرة ، وقد حافظ الشعراء الروس حتى البارناسيون منهم ، وهم دعاة الفن للفن ، على ارتباطهم بالانسان •

وحين قامت الثورة عام ١٩١٧ ، كان الشعراء الروس فى طلائع الثوريين ، وبرز فى سنوات ما بعد الثورة الشاعر الروسى الكبير فلاديمير ماياكوفسكى الذى انتحر عام ١٩٣٠ ، وتعد تجربته فى مزج الشعر بالثورة تجربة رائعة •

تلك جولة قصيرة مع الشعر الروسى نعود بعدها للحديث عن بوشكين •

ارومة بوشكين خليط من الروس والاحباش ، فاسرة أبيه من صغار النبلاء ، أما أمه فقد كانت حفيدة أحد أمراء الاحباش الذى قدمه ملك تلك البلاد رهينة لسلطان القسطنطينية ، فقدمه السلطان هدية لبلاط بطرس الاكبر فى عام ١٧٨٣ ، ومن لقاء العنصرين السلافى والافريقى الحبشى ولد اسكندر سيرجيفتش بوشكين فى عام ١٧٩٩ ، وتولى تربيته فى منزل الاسرة سلسلة من الفرنسيين المهاجرين الى روسيا ، فقد كانت الثقافة الفرنسية هى المثل الأعلى للثقافة حينذاك ، كما كان النبلاء الروس يحرصون على الحديث بالفرنسية ــ ولو اخطاوا ــ كما نشهد ذلك فى روايات تورجنيف • وكان عمه فاسيلى بوشكين شاعرا ضئيل الموهبة ، ولكنه

يستمتع بملكة طيبة فى الارتجال جمعت حوله فى منزل أسـرة بوشكين طائفة من عشاق الادب ومحبى الكلام الجميل ٠

وفى عام ١٨١١ أنشأ اسكندر الأول قيصر روسيا مدرسة تجمع أبناء النبلاء لتعد ضباط الجيش وموظفى الحكومة ، ولمع الصبى فى هذه المدرسة بمخايل ذكائه وفصاحته وقوة ذاكرته وحبه للكسل أيضا ٠ وحين أتم دراسته فى هذه المدرسة كان قد كتب مجموعة من الشعر ، تتكىء كلها على قراءاته الفرنسية ٠ وهى مثل شعر الناشئين مليئة بالتعليمات واستباق التجربة والقاء الحكم والمواعظ واصطناع الذكاء ٠ وهى أيضا متنوعة الاتجاهات ، فمنها شعر الغزل التقليدى العنيف وشعر الشهوة الابيقورية ، ومنها القصائد الغنائية والابيجرامات (الابيجرام تركيبة شعرية لا تزيد عن بضعة أسطر ، فيها فكاهة ذكية أو حكمة باهرة) ٠

كان ذلك هو شعر الصبا الذى لم يفلت بعد من أسر التقليد ، وان كانت بعض قصائده تشير ببساطتها وعفويتها ، وتخففها من أثقال التقليد وادعاء الثقافة الى الطريق الذى سيختاره بوشكين فيما بعد ، ومن أهم قصائده تلك قصيدة القوزاق :

كان قوزاقى جسور يمتطى جواده،منتصف الليل،على شط النهر ، عبر الضباب والظلمة

قبعته السوداء مائلة ، ومعطفة مغطى بالتراب ، ومسدساه بجانبى كعبيه ، وحسامه الطويل يمس الأرض

جواده الجرىء لا يحس بلجامه ، ويتحرك فى خطى بطيئة بينما يتدلى عرفه ، متقدما فى اعماق الليل

كان امام القوزاقى كوخان او ثلاثة ، وسور متهدم ٠ هذا هو الطريق الى القرية الصغيرة ، خلف غابة الصنوبر الكثيفة

« لن أجد عذراء فى الغابة » هكذا فكر القوزاقى الجسور ، فالعذراى الصغيرات قد صعدت الى الغرف العليا حين جاء الليل

وشد القوزاقى اللجام ، ونخس الفرس بمهمازه ، فقفز الفرس كالسهم ، متجها نحو الأكواخ

كان القمر فى الغمام يفضض السماوات النائية ،وكانت فتاة جميلة تجلس ساهمة فى شباكها

ولمح الصديق الجسور الفتاة الجميلة ، ودق قلبه ، واستدار جواده الى اليسار ٠٠ الى اليسار برقة ٠٠ انه الآن تحت شباكها

الليل غدا أشد ظلمة ، والقمر قد اختفى ٠٠ اخرجى ياحبيبتى ٠٠ اسرعى ٠٠ احضرى ماء لجوادى

لا ٠٠ اننى أخشى أن اقترب من شاب ٠٠ اخشى ان اترك البيت وأقدم ماء لجوادك

« آه ، لا تخافى ، يا أجمل العذارى كونى ودودا نحو محبوبك » ٠٠ « الليل يحمل الاخطار للجميلات » ٠٠ « يافرحى ٠٠ لا تخافى ٠٠

« صدقينى يا محبوبتى ٠٠ لا شىء هناك ، تجنبى الخوف الزائف ! انك تضيعين وقتا ذهبيا ، يا أعز مالدى ، لا تخافى ٠٠

اركبى حصـــانى الســـريع فسأذهب بك الى أرض بعيدة ، وستسعدين معى ٠ مع محبك ، اينما حللت ستكونين فى الجنة

ماذا فعلت الفتاة ؟ لقد اذعنت ، وقهرت خوفها ، ووافقت حجلى على الذهاب ، وكان القوزاقى سعيدا ·

وعدا بهما الجواد هاربين ، وأحب كل منهما الآخر ، وكان القوزاقى مخلصا لها اسبوعين وفى الاسبوع الثالث لم يعد مخلصا ·

* * *

ولكن هذه القصائد المبتدئة جنت له شهرة طيبة حتى انه انتخب عضوا فى جمعية أدبيه كونها بعض متحررى الشباب من الادباء لتقف فى وجه جمعية أخرى تقليدية ، وقد حلت هذه الجمعية بعد ثلاث سنوات من انشائها ، وكان بوشكين عندئذ فى التاسعة عشرة من عمره ·

منح بوشكين بعد تخرجه من مدرسة القيصر وظيفة اسمية صغيرة فى ديوان الخارجية ، وأنفق عندئذ فى العاصمة سان بطرسبرج ثلاث سنوات من السكر والصعلكة والشعر ، فكتب عددا من القصائد أهمها قصيدته الطويلة « روسلان وليودميلا » وقصيدته الصافية « عروس الماء » :

على شط بحيرة ترقد فى الغابات الكثيرة ، كان راهب يبحث عن خلاصه ، مستغرقا فى رياضات قاسية ، فهو يصوم ويصلى ويكدح ، ويحفر لنفسه قبرا بجاروف صغير ، ويدعو القديسين أن يستجيبوا لشوقه نحو الموت ·

وذات صيف ، على مدخل كوخه الأحدب ، كان الناسك يصلى لله ، حينما أشتد ظلام الغابة وتكاثف الضباب على البحيرة ، وتدحرج القمر القرمزى المغطى بالغمام عبر السماء · فسرح الراهب بنظره الى المياه ·

أنه لينظر ، ممتلئا بالخوف القاهر ‥ لا يســـتطيع أن يلم شتات نفسه ‥ وهو يرى المياه تفور ، ثم تهدأ فجأة ، وفجأة تنبثق من الماء امرأة عارية ، عارية ، خفيفة كظلال الليل ، بيضاء كثلج الفجر على التلال ، ثم تجلس صامتة على الشط ٠

وهي تحدق في الراهب العجوز ، وتمشط شعرها الرطب ‥ ويرتعد الراهب المقدس خوفا وهو يتأمل مفاتنها ، وتومىء اليه بيدها، وتحني رأسها بسرعة ، وفجأة ، كأنها نجم هاو ، تختفـــي تحت الموجة النائمة ٠

لم يستطع العجوز أن ينام ليله كله ، ولم يصل نهاره كله ‥ والأفكار تتغالبه ، فهو يرى طول وقته ظلال المرأة الرائعة ٠ وعادت الغـــابة تظلم ، وانطلق القمر بين الغمام ، وعادت الفتاة الجميلة تجلس فوق الماء ، جميلة وشاحبة ٠

لقد نظرت ، وحنت رأسها ، وبعثت بالقبلات من بعيد ، وبطبطت في الموج ، وضحكت وبكت ، كطفل ، ونادت الراهب برقة « أيها الراهب ! تعال الى ‥ تعال الى ! وفجأة غرقت في الأمواج الشفيفة، في صمت عميق ٠

وفي اليوم الثالث كان الراهب الذى مزقه الشوق يجلس بجوار الشــط المســحور ينتظر الفتاة الجميلة ، بينما تسقط الظلال في الغابات ‥

وحين طرد الفجر ظلمة الليل ، لم يكن الراهب هناك ، بل رأى بعض الصبية ذقنه الرمادية غارقة في الماء ‥

* * *

وشهدت تلك الفترة أيضا انضمامه الى جمعية أدبية ثورية تدعى « المصباح الأخضر » وكانت هذه الجمعية على صلة بالمتآمرين على القيصر من جماعة الديسمبريين ، وبث هؤلاء فى بوشكين بعض الأفكار السياسية الثورية التى ظهرت فى قصيدته المشهورة «الحرية» التى كتبها عام ١٨١٧ ، والتى مطلعها :

ارتعشوا ·· ياطغاة العالم

وأنتم ايها العبيد الساقطون ·· انهضوا

وتلتها العديد من القصائد الثورية التى تناقلتها الأيدى ، حتى نفى الى احدى مدن غرب الروسيا ثم الى الأوديسا فى عام ١٨٢٠ ، وظل هناك سنتين ونصفا كتب اثناءها عديدا من اجمل قصائده ، وقرأ فيها الشاعر الانجليزى اللامع لورد بايرون ، وتأثر به تأثرا بالغا ، ولم ينج من اساره الا حين كتب أول قصائده البوشكينية كما يقول النقاد وهى قصيدة « الغجر » ، فهو لم يأخذ فيها من بايرون الا بعض الخدع البايرونية فى البناء الفنى ، وأضاف اليها ملمحين عرفا بعد ذلك فى الشعر الروسى ، وهما موهبة وصفية نقية خالية من التهويمات والتشبيهات الغامضة ، ومشكلة أو مشكلتان يترك جوابهما للقارىء · فقصيدة الغجر حكاية بسـيطة ، تدور حول سؤالين : ما الحرية ؟ وما القدر ؟

وفى الأوديسا بدأ بوشكين قصته الشعرية الذائعة الصيت « افجينى أونيجين » ثم انتقل بعد ذلك الى ضيعة والده فى شمال غرب روسيا ، ليقيم فيها تحت رقابة البوليس ، وكانت اقامته هناك شهورا طويلة من الملل والشوق الى الفرار ، ولكنها كانت غنية بالانتاج والخلق الفنى ، فقد كتب فيها بعض القصائد محاولا السير على نهج الشعر الشعبى الروسى ، ومن اجملها قصيدته « العريس »

كما قرأ فى اثنائها شكسبير ، فاتجه الى الدراما التاريخية ، وكتب مسرحيته « بوريس جوودرنوف » ٠

وهنا ترجمة لقصيدة « العريس » رغم طولها :

افتقدت أسرة التاجر ابنتها « ناتاشا » ثلاثة أيام ، وفى الليلة الثـالثة اندفعت الى البيت فى ذهول قاهر ٠ وبدأ أبوها وامهـا يمطرانها بالأسئلة ، ولكن ناتاشا لا تسمعهما ، فهى ترتعد وتتنفس بصعوبة ٠

وحزنت أمها وحزن ابوها ، وطالما امطراها بأسئلتهما ، واخيرا يئسا دون أن يعلن سرها ، واسـتردت خدود ناتاشـا حمرتها ، وأصبحت مرحة كما كانت ، وعادت تجلس مع شقيقتها عند البوابة ٠

وذات مرة كانت الفتاة تجلس مع صديقاتها على قرميد البوابة حين اندفعت امامهم عربة خيل مسرعة يقودها رجل جميل ٠ ووقف الرجل فى المركبة فجاة ، وازاح الأغطية عن الخيل ، وشتت شمل الواقفين ، بل دهم بعضهم ٠

ونظر دونه ، وحدق ، وحدقت ناتاشـا ، ثم مر من امامهن كالريح ، وارتعدت ناتاشا ، واندفعت الى داخل المنزل : انه هو ٠٠ انه هو حقا ٠٠ أوقفوه يا أصدقائى أنقذونى ٠٠

وانصتت أسرتها حزينة ، وهى تهز رؤوسها ،وقال لها ابوها : يا عزيزتى اكشفى عن نفسك ٠ اذا كان هناك من ضـايقك فقولى لنا ٠٠ دلينا على أثره ، ولكن ناتاشا تبكى ولا تنبس بكلمة ٠

وفى الصباح ، دون توقع ، جاءت خاطبة لمنزلهم ٠ وامتدحت جمال ناتاشا ، وتحدثت الى والدها ، لديك السلعة ولدينا المشترى ،

والشاب صغير جميل ، رشيق متين البنيان · ليس بشرس ولا سيىء السـمعة ··

غنى ، ذكى ، لا ينحنى لأحد ، ومع ذلك فهو يحيا دون أن يعبأ بالعالم ، وقد يهدى عروسه فجأة معطف فرو ثعلب ، او لؤلؤة ، او حلقا ذهبيا ، او اثوابا مخملية ··

وامس · عندما كان يركب فى المدينة لمحها جنب البوابة · الآن نشد الأيدى ، ونذهب فورا من المنزل الى الكنيسة ، ونأخذ الايقونات معنا لنبارك العروسين ، بالتلميحات والعبارات المسهبة بينما كانت الفتاة المسكينة تتململ فى جلستها ·

قال الأب ، اوافق ، اذهبى الى المذبح يا ناتاشا ، فمن الغباء ان تظلى جالسة وحدك فى الغرفة العليا · ولا ينبغى ان تقضى حياتك وحيدة ، فالعصفور لا يقضى حياته كلها يغنى ، بل وقد حان الوقت لكى تبنى عشك · لتطعمى صغارك ·

واتكات ناتاشا للحائط ، وكانت على وشك ان تتكلم · وفجأة بدات تشنج وترتعد وتبكى وتزأر بالضحك · وفى اضطراب اندفعت اليها الخاطبة وأعطتها ماء باردا لتشرب ، وصبت بقية الكاس على رأسها ·

وبكت الأسرة فى حزن عميق ، وعندئذ جاءت ناتاشا وقالت « ساطيعك · فارادتك مقدسة » ادع الناس لخطوبتى ، واخبز الأرغفة لكل الناس · وحضر الشراب، واداما للجميع ·

طبعا ياناتشا يا ملاكى · فانا اضحى حياتى من اجلك ، واعدت الوليمة الفاخرة ، وخبزوا وطهوا باسراف · ووصـــل الضيوف ،

واحضرت العروس للمائدة ، وغنت وصيفاتها وبكين ، وبعد برهة ، رنت سنابك الخيل ثم وصلت عربة ·

انه العريس ـ وجلس الجميع للمـــائدة · ورنت الكئوس وصفقت ، ودارت الانخاب · كل ما حولهم ضــــجيج ، وقد ثمل الضيوف ·

العـــريس :

حدثونى يا أصدقائى الأعزاء لماذا لا تشرب عروسى الجميلة ولا تأكل ولا ترعى الماشية · ما الذى يحزن عروسى ؟

واجابت العروس عريسها : سأخدمكم جميعا بقدر ما أستطيع · ان روحى تعرف الهدوء · وأبكى ليلى ونهارى حلما فظيعا يتملكنى · وقال أبوها : بماذا حلمت ؟ · حدثينا ياطفلتى العزيزة ·

قالت : حلمت اننى توغلت فى غــــابة كثيفة · وكان الوقت متأخرا · والقمر يلمع واهنا خلف غمامة ، وضللت عن النبع · ولم يكن يسمع فى أعماق الغابة الا حفيف قمم الأشجار ·

وفجأة ، وكأننى فى حقيقة لا منام ، بدا أمامى كوخ قصدت اليه · وطرقته فلم أسمع جوابا · وكانت صلاتى على شفتى حين فتحت الباب · ودخلت · وفى الكوخ كانت شمعة تحترق · ونظرت كان كل ما حولى فضة وذهبا ، كل ما فى الكوخ لامع وفخم ·

العريس :

وماذا يسوؤك فى هذا الحلم · قولى · من الواضح أن حياتك ستمتلىء بالغنى ·

العروس :

صبرا ياسيدى ، فلم أتم الحكاية بعد · فى هدوء متعت عينى بالفضة والذهب والملابس والبسط والمخمليات والحرير من نوفجورود، وتهت فى الدهشة ·

وفجاة ، سمعت صياحا وضجة خيل ، كان بعضهم قد اقترب من الساحة ، وبسرعة رددت الباب واختفيت خلف المدفاة · والآن ·· اسمع اسمع عدة أصوات · اثنا عشر شابا دخلوا ، ومعهم فتاة بريئة جميلة ·

لقد دخلوا ، فى جمـــع دون انحناء ، ودون ان ينظـروا الى الايقونات ، وجلسوا الى المائدة دون أن يصلوا أو يخلعوا قبعاتهم · وفى راس المائدة جلس الأخ الأكبر ، والى يمينه الأخ الأصغر والى يساره الفتاة البريئة الجميلة ·

صيحات ، ضحك ، غناء ، طنين ، وقعقعة ، واصوات السكارى المعربدين ·

العـــريس :

وماذا يسوؤك فى هذا الحلم ؟ انه فأل بالمرح

العـــروس :

صبرا ياسيدى ، فلم اتم الحكاية بعد · لقد انطلقت أصوات السكارى ، واستمر الطنين والشغب ، اما العذراء فقد كانت تبكى ·

كانت تجلس فى صمت ، لا تأكل ، ولا تشرب ، وتسفح الدموع كالسيل · بينما استل الأخ الأكبر سكينة ، وصفر بفمه وهو يشحذها،

ونظر الى الفتاة الجميلة ، وفجاة أمسك بغدائرها ، وقتل الشرير الفتاة وقطع يدها اليمنى ٠

ما هذا ـ قال العريس ـ هذا هراء متهافت ! ولكنه لا يجلب الحزن ، فحلمك ليس شرا ، صدقينى ياحبيبتى ، ونظرت العروس فى وجهه ، ثم قالت فجاة : ومن يد من اتى هذا الخاتم؟،وبدا الجميع يقومون عن مقاعدهم ٠

وانحدر الخاتم من اصبعه ، وتدحرج على الأرض ، واصفرت العروس وارتعدت ، وسقط الضيوف فى هوة الاضطراب ٠ واعلن القاضى ـ الذى كان من حضور المادبة ـ « أوقفوا الشرير ! اوثقوه» وكبل الشرير وحوكم ، بسرعة ٠ واصبحت ناتاشا شهيرة ! وهذه هى نهاية اغنيتنا ٠

* * *

وفشلت محاولة الديسمبريين لاغتيال القيصر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وحين فشلت المحاولة اضطر بوشكين أن يتهاون مع القوى الحاكمة ، وفى سبتمبر عام ١٨٢٦ عاد الى موسكو ، حيث استقبله القيصر نيقولا الأول ، وعفا عنه ، وأعلن انه سيكون رقيبا شـخصيا على ابداع بوشكين ، بحيث لا تنشر قصيدة الا بعد موافقة القيصر ، وشهدت تلك الفترة بعض مدائحه للقيصر ٠

ولكن حريته كانت ضربا من الوهم ، لانه وضع تحت رقابة رئيس البوليس الذى كان هو الوسيط بينه وبين القيصر ٠ وفى هذه الفترة سكر بوشكين وقامر ، وأهلك بدنه هربا بنفسه من ذلك السجن الحريرى ، وطلب أن يؤذن له بالسفر للخارج اكثر من مرة ، وانتهز فرصة الحرب مع الأتراك ، فانضم الى الجيش اربعة اشهر ، ثم عاد

لموسكو ليصدر صحيفته الأدبية الخاسرة ، ثم تقدم لخطوبة الفتاة الجميلة الساذجة الفارغة العقل ناتاليا كونشاروف ٠

جلب له زواجه قدرا قليلا من السعادة ، فقد كانت زوجته غنية بطبعها ، مبذرة ، بعيدة عن الاهتمام بمطامح زوجها الفنية ، وأنجبت له هذه السيدة طفلين ، وكتب عديدا من أعماله أهمها قصته النثرية « حاكايات بلكين » ٠

وكانت السنوات الثلاث الأخيرة من حياته سنوات شقاء متصل ، فقد أحكمت عليه رقابة القيصر ، وزادت متاعبه المالية ، وتفاقم الأمر حين منحه القيصر وظيفة « وصيف البلاط » وهى وظيفة تعطى عادة للأحداث من أبناء النبلاء لاجبارهم هم وزوجاتهم على حضور حفلات البلاط ٠ ثم بلغ الانزعاج به مداه حين بلغه أنباء عن علاقة زوجته بأحد ضباط الحرس ، فدعا هذا الضابط الى المبارزة ، واخترقت الطلقة معدته فى يناير عام ١٨٣٧ ، وودع الحياة وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره ٠

وبعد أربعين عاما من وفاة بوشكين ، كتب ديستويفسكى « ان كل مالدينا قد اكتسبناه من بوشكين » وتلك ليست ضربا من مجاملة الموتى ، فمن الممكن تتبع آثاره فى الشعر والنثر الروسيين على السواء ، فقد فصل بوشكين بين عصرين من عصور الأدب الروسى ٠ يتحدثان بلغة متباينة ، ويكتبان برؤية مختلفة ، حتى محا كل ما قبله، وأصبح هو المرحلة الكلاسيكية للأدب الروسى ٠

ليس كل شعر بوشكين ــ مثل النماذج التى قدمنا ، حريصا على الوضوح ، مليئا بالحكاية ، بل له كثير من المقاطع التى يتغنى فيها بطبيعة الروسيا مثل أوصافة فى « رحلة أونيجين » ٠

وله مجموعة ضخمة من التاملات وأناشيد الغزل ، كما أنه خلق فى رواياته الشعرية والنثرية عديدا من الشخصيات التى نمت فى آثارها شخصيات كثيرة فى روايات القصاصين الروس وفى أسفار سفرائهم ٠

وتختم هذا المقال باحدى روائع قصائده ، وهى قصيدة « كتبى » :

بروح واهنة عطشى للعناية الربانية ، تجولت فى الصحراء ، وفي مفترق الطرق رأيت لهبا ذا ست شعب ٠

مس ذلك اللهب قلبى باصابع النور ، وتبعنى نسر مذعور ، فتح عينى بالنبوءات ولمس أذنى ، ففرقنا عن الدنيا ٠

ثم سمعت رجفة في السماء ، وملاكا يحوم عاليا ، ووحوشا تتحرك جنب البحر ، ورحيق الحياة يزحف فى الأشجار ٠

وانحني الملاك الى فمي ، فلوى شدقيه ، ثم استل لساني الخاطىء ، وكل اكاذيب الفم وصدئه ، ثم زم شفتي ٠

ومشي ثعبان عظيم نزع بسيفه الدرى من صدري الذى شقه قلبي النابض ٠ وفى اعماق صدرى وضع جمرة من النار الملتهب ، وعندئذ القيت فى الصحراء ميتا ، حتى ناداني الله قائلا :

انهض ، واجعل صوتي مسموعا ، محفوظا بقدرتى ، انطلق من من مشرق الي مغرب ، ومن بحر الي اديم ، واجعل كلمتي الممزوجة بالنار ترقد فى قلب الانسان ٠

الاهـرام من ١٩٦٥/٩/٣ الي ١٩٦٥/٩/٢٤

وتبقى الكلمة

الشـــاعر احترق حبـــا

من أجمل ما اقتنيت من الذكريات ، انـــي عرفت الشـــاعر الرومانتيكي العظيم ابراهيم ناجى بضعة أشهر قبل وفاته المفاجئة فى أواخر مارس عام ١٩٥٣ ، وهو في أوج شاعريته ورقته وبهاء روحه ٠

وكان ناجى رحمه الله ، سمحا بالود سماحة لا حد لها ، صانعا للابتسام على شفاه كل من عرفه ، رقيقا دقيقا كعصفور محلق ، اذا استنشدته الشعر انشد،واقام لك وليمة،مضياف كريم بالمعنى الكريم واللفظ الكريـــم ، وانفعل بالالقاء ، وانتقلت يده لتهبط فوق قلبـــه وكأنه يقول له : هذا الشعر من هذا المكان ٠

وناجى أحد الشعراء الذين نتعلم منهم أن الفنان العظيم ينبغى أن يكون انسانا عظيما ٠ وان سماحة الخلق بالخير والمودة هى انعكاس لسماحة القريحة بالابداع والرقة ، ولن ينسى كل من عرف ناجي هذين المعنيين الكريمين من معاني البشرية فيه : انسانيته ، وشاعريته ٠

وناجى هو الممثل الأول للمدرسة الرومانتيكية المصرية فى الشعر • هذه المدرسة التى نشأت فى أوائل الثلاثينيات ، تطويرا وامتدادا لشوقى واتجاهه الى بعث الروح العربية الأولى ، واحتذاء النماذج الكبرى فى الأدب العربى ، ثم اتجاهه الى المسرح الشعرى والأغنية العامية • فكأن شوقى العظيم قد رد الشعر العربى الى طريقه الأولى ، ولكن هؤلاء الشعراء الذين تلوه ، والذين كانوا أيفاعا صغارا يوم مات شوقى العظيم ، لم يجدوا فى شوقى روح العصر ونبضه وأحاسيسه ، بخاصة ، وقد قرأ بعضهم تراث الرومانيتيكية الأوروبية ، الفرنسية والانجليزية ، وقرأ بعضهم بضعة ترجمات لذلك التراث • ومن لقاء هذين السبيلين ، سبيل شوقى فى الصياغة الموسيقية والاشراق اللغوى • وسبيل الرومانتيكيين الأوروبيين فى الاحساس والتأمل ولدت الرومانتيكية المصرية •

ومن الواضح أن المناخ الأدبى كان ممهدا لنمو هذه المدرسة وازدهارها ، فالرومانتيكية فى أساسها احتجاج الخيال على العقل • فاذا كان العقل يطلب تحديد العواطف وتنظيمها • فالخيال يطلب اطلاق سراحها • واذا كان العقل يطلب الوضوح فى التعبير ، فالخيال يطلب الايحاء فى التعبير • وقد كان الشعر العربى الكلاسيكى مهتما بالتنظيم والوضوح حتى انقلب التنظيم والوضوح خنجرين مسنونين فى صدره ، اذا أصبح التنظيم بعد ان جاوز حده لونا من الانصياع الكسول لما قاله الأقدمون فى مواطن الحب أو الفخر أو الوصف أو الشهرة • وأصبح الوضوح لونا من السطحية الساكنة السطح أو الضحلة الأعماق •

وقد أسهمت الرومانتيكية مع نزعتين أخريين فى تحريك الأمواج فى بحر الحركة الشعرية العربية • أما النزعة الأولى فهى نزعة العقاد الى بث الفكر والذكاء فى الشعر ، والتصدى للموضوعات

الكونية الكبرى ، كما فى قصيدته الشهيرة : ترجمة شيطان • وأما النزعة الثانية فهى لجوء بعض شعراء المهجر الى لغة شديدة الايقاع، تحمل احساسا عميقا ومباشرا معا •

تلك النزعات الثلاث هى التى انقذت الشعر العربى ، وحمته من الطريق المسدود الذى دفعه اليه شوقى • وليس فى هذا انقاص من قدر شوقى ، بل اقرار بعظمته ، فكل فنان عظيم هو طريق مسدود ، لأنه يبلغ فى صنعته الفنية آخر مدى من الاتقان والكمال ، فلا يستطيع من يأتون بعده ، ويحاولون تقليده الا التسكع على هذا الطريق ، يقصر شأنهم عن شأنه . ولعل هذه هى مأساة صغار الشوقيين من الشعراء •

ما أوضح أوجه الشبه بين هذه الرومانتيكية الأوروبية وبين نزعات شعرائنا الرومانتيكيين •

فالمرأة عند الرومانتيكيين هى الينبوع الأول للتجربة الشعرية، وكانهم يشهدون الكون كله من خلال عيون النساء • وهى لا تمثل دائما كامرأة من لحم ودم ، واحدة من النساء عادية متكررة ، بل هى اما ملاك رحيم يبث الخير والحنان ويلهم أسمى المعانى ، وتوشك أن تكون أما للانسانية والانسان توامه وترأف به كما ترأف العذراء بالخاطئين • واما شيطان رجيم ، ملىء القلب بالقسوة ، يحطم كل ما تمسه يداه •

والمرأة عند ناجى ملاك عال فى برج من النور ، والشاعر فراشة تحرقها هذه الغادرة الآلهية :

كنت فى بــــرج من النـــور عـــلى

قمة شـــــاهقة تغـــزو الســــحابا

وانـــا منـــــك فـــــراش ذائب

فى لجين من رقيق الضـــــوء ذابا

فـــرح بالنـــــار والنـــور معـــا

طـــــار للقمـــة محمـــوما وآبا

آب من رحـــــيلته محـــــترقا

وهو لا يالوك حبـــــاوعتـــــابا

والحب لون من القدر يأتى على غير انتظار ، ولا ينجو منه من قصده ، كأنه الموت :

ياغبـــــــراما كـــان ملى فى دمى

قـــدرا كالمـــوت او فى طعمـــــه

ما قضـــينا ســـاعة في عرســـه

وقضـــينا العمـــر في مأتمـــه

ليت شـــعرى ! اين منه مهـــربى

اين يمضـــى هــــارب من دمه ؟

عالم المرأة عند ناجى عالم جميل ، المرأة غادرة كأنها الزمن ، رقيقة مع ذلك كأنها سحابة الربيع ، لا تسألها عما تفعل ، فهى تؤدى دورا من أدوار الحياة ، وهو أن تتجمل وتزهو بجمالها ، وتلهم الشعراء ، وتشغلهم بحبها ، ثم تهجر من غير ذنب ، وكأنها تتمم الدور الذى بدأته ، وعندئذ يبدأ عذاب الشعراء والهامهم الكبير ، وتفيض قرائحهم بالشـــعر انها ترفع الى أعلى القمم من الوجد

والانفعال ، ثم تهبط بالشاعر فيها ، فى قسوة قاسية ، ولكنها قسوة مغفورة فى سبيل الفن والابداع •

وثمة ملمح آخر من ملامح شعر ناجى ، وهو حنينه الرومانتيكى الى عالم الطفولة فهو عالم الصفو والبراءة وحتى صور الحبيبين عنده هى صورة طفلين يمرحان معا •

وضـــحكنا ضـــحك طفلين معـــا

وعـــدونا فســـبقنا ظلنــــا

فاذا أفاق الشاعر من طفولته على جهامة الدنيا وكآبتها ، تمنى العودة للطفولة :

كل شىء صـــــار مرا فى دمى

بعد ما أصـــبحت بالدنيـــا عليما

آه من يأخـــــذ عمـــرى كله

ويعيد الطفـــل والجهل القديمـــا

بوفاة ناجى فقدت الرومانتيكية أصفى ينابيعها مزاجا • وفقد الشعر العربى أحد أعلامه • عاش زمنه يضحك من قلبه الحزين •• ويتغنى :

انظرى ضـــحكى ورقصى فرحـــا

وانا أحمـــل قـــلبى ذبحـــــا

ويرانى النـــاس روحـــا طائرا

والجوى يطحننى طحن الـــرحى

ولكن هذا الروح الطائر سيظل محلقا على أيد الشعر العربى ، فلتكن كلمتى هذه تحية له فى يوم قريب من يوم ذكراه •

الأهـــرام ١٩٦٦/٤/١٥

من المعلمة اللسبوسية الى أبى نواس والاســكندرانى

ما اغرب أن تخطو فى زمن الأرض سبعة وعشرين قرنا من الزمان ، ثم تلقى نظرة الى مواطىء قدميك ، وتتلمس بعينيك ما حولك، فاذا بك فى زمن نفسى واحد ، وكأنك عدت من حيث جئت ، وارسيت شراعك حيث أسلمته للريح ٠ فقبل ميلاد المسيح بسبعة قرون عاشت على جزيرة « لسبوس » احدى جزر اليونان شاعرة تدعى « سافو » أو « سابفو » كما يقول علماء اللغة اليونانية ، وكتبت اجمل أناشيد الغزل والحب باللهجة الابولية،وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين عاش فى الاسكندرية شاعر يونانى متمصر هو قسطنطين كافافى ، وبين البحر وكوم الدكة نثر أروع شعر الصبوة والغرام ٠ وكل من الشاعرة والشاعر لحقه شىء من سوء الســــمعة ، أما الشاعرة فقد أدركتها السمعة السيئة بعد وفاتها ، بينما ظلت طوال حياتها محلا للتكريم والتبجيل ، بينما حظى الشاعر بسوء السمعة ، وهو يقطع أيام حيـــاته ولياليها ، فاذا مات رأينا حوله طائفة من الابحاث والمقالات ورأينا أساطين النقاد يهللون لشعره ، ورأينا هذا الشعر اليونانى يترجم الى شتى لغات الأرض ٠ ولعل حظ كل

منهما هو الشارة على اختلاف العصرين فى النظر الى امور الأخلاق.
ما بين السماحة الاغريقية والتزمت العصرى ..

وقد سمعت باسم « سافو » فى مطلع العمر ، حين امتد تيار حركة التقريب بين الحضارة اليونانية وحضارتنا الناشئة على يدى أستاذنا طه حسين ، وتبعه فريق من المثقفين المصريين ، يحاولون ان يقربوا لنا فلسفة أفلاطون وارسطو ، وشعر هوميروس ومسرح سوفكليس ، ولكن ماسمعته عندئذ كان شذرات قليلة لاتكاد تشبع النهم أو تبل الصدى . وفى العام الماضى ألف أحد كتابنا الأصلاء ، الذين يعملون فى حقل الثقافة ، بلا طنطنة أو ادعاء ، كتابا عن الشاعرة اليونانية وخرج ذلك الكتاب الى الوجود فى تواضع كريم شأنه شأن مؤلفه ، الذى قدم لنا من قبل أعمالا لبريخت وبيراندللو وبوخنر ، وابحر فى بلاد المعرفة حتى وصل الى شواطىء الصين القديمة ، فقدم لنا حكمة لاوتسى ، وألف لنا كتابا عن فلسفة البير كامى ، وترجم احد كتب « كانت » ونشر عديدا من القصص القصيرة، هذا المؤلف والمترجم هو الدكتور عبد الغفار مكاوى .

ويحدثنا الدكتور مكاوى فى كتابه أنه أعجب بشعر سافو حين قرأه مترجما . كما أعجب به صولون المشرع الأثينى العظيم الذى طلب من حفيده أن يعلمه أغنياتها حتى يستطيع أن يموت بعدها فى سلام ، وهنا طمح مؤلفنا المصرى أن يتعلم اليونانية القديمة لكى يستطيع قراءة هذا الشعر فى لغته . فأقبل على دراسة هذه اللغة . وتهيأ له بمساعدة الترجمات الانجليزية والالمانية أن يقرأ هذا الشعر، ثم ينقله لنا الى العربية مقدما بين يديه بدراسة عن الشاعرة وعصرها وفنون شعرها وأسلوبها فى التعبير .

عاشت سافو فى جزيرة لسبوس ، وكانت زوجة واما ، وكانت لها مدرسة تجمع فيها فتيات الأثرياء من ابناء الجزيرة فتعلمهن

الرقص والغناء والذوق السليم ، حتى تعدهن لبيت الزوجية ،فاذا آن الفراق ، وخرجت الفتاة بعد طول الصحبة والرعاية من مدرسة سافو الى بيت العريس بكتها سافو فيما بينها وبين نفسها بكاء مرا ، ولكنها لا تنسى بعدئذ أن تذهب هي وفتياتها للغناء في ليلة العرس ، وهنا يحفظ لنا التاريخ مجموعة من أغاني الزفاف أو « ابيثاليا » هي ما عرفت به سافو وتفوقت فيه فى فنون الشـــعر ، وما حفظته لها الأجيال جيلا بعد جيل ٠

وقد تعرض شعر سافو لكل ما تعرض له التراث القديم من ضياع بعض أجزائه بحيث لم يبق من بعض القصائد الا شـــذرات متفرقة ، وحين يحدثنا المؤرخون أن شعرها جمع في تســعة كتب نحاول أن نجد هذه الكتب فلا يتيســـر لنا الا القليل ٠وقدم ترجم الدكتور مكاوى كل هذا القليل اعتمادا على نص نشره ماكس تروى مصحوبا بالترجمة الألمانية ، ترجمة عربية متميزة ٠

ان شعر سافو ليس شعرا تامليا أو شـــعرا هادفا الى ابراز الصنعة الفنية ٠ ولكنه لون من الشعر الشعبى كانت تنشده فى حفلات الزفاف ، وهو قريب جدا فى صياغته وبعده عن الوان الذكاء الفنى أو الحيل التعبيرية من الموال الشعبى عندنا ٠ وهنا اختار المؤلف لترجمته لغة بسيطة مبنية ، تحاول أن تحافظ على بساطة الأصل وابانته ٠

ولكن ٠٠٠٠

وحين أقول « ولكن » وأنا البعيد عن أللغة اليونانية قديمها وحديثها لا أبغى هنا ان اســـتدرك على المؤلف ، ولكنى أريد أن أستزيده ، حين أبغى أن تضاف بعض الأصول الى الكتاب لكى تكون فائدتنا به اكثر وأوفى ٠

ففى الكتاب مثلا تتناثر بعض المفردات الأدبية التى تشير اما الى أشكال من التعبير الأدنى ككلمتى « الابيجرام » و « ليجيا » أو الى أوزان عرضية مثل « الأيامب » ، وكان من الممكن الاستطراد الى الحديث عن هذه المصطلحات ٠

كما أن المؤلف مرعلى مشكلة علاقة سافو بتلميذاتها مرورا حيبا ، وكان حرصه على أنشكل الأخلاقى كبيرا ، وفى ظنى أن دراسة التقاليد الاجتماعية للمجتمع الاغريقى ٠ ودراســـة ما حول كلمة « ايروس » عند اليونان بمعنى الحب الجسدى ، كانت جديرة بأن تفتح مجالا واسعا للبحث وتنصف سافو ونقادها على السواء ٠

كما أنى كنت أود أن يفرد المؤلف فصلا لدراسة أغنيات الزفاف عند سافو وعلاقتها بأغنيات الزفاف عند الشـــعوب القديمة ويتفقد عندئذ ملامح عبادة الخصب فيها ، واذكر بهذه المناسبة انى قرأت حديثا كتيبا لهيروشفيلد يتعرض فيه لنشيد الانشاد ، وهو أحد فصول الأدب العبرى ، فقد كانت الدراسة من قبل تتناوله اما كنص دينى أو كنص درامى ، ولكن هذا المؤلف القى بنظرية جديدة ، وهى ان هذا النشيد أغنية زفاف تستهدف تقديس معنى الزواج كوســـيلة للخصب ٠ وقد كان بوسع المؤلف ان يتتبع هذه الأغانى عند الشعوب القديمة مبينا تطورها وحركاتها المتشابهة ، فتخرج لنا عندئذ دراسة طيبة فى الأدب المقارن ٠

كما كنت أود أخيرا أن يتتبع المؤلف أثرسافو فى الشعر اللاتينى أو الأوروبى حتى الآن ، خاصة وهو يستطيع قراءة معظم اللغات الحديثة ٠

من « سافو » انتقلت الى قسطنطين كفافى ، نبهنى اليه من سنوات فصل عنه فى كتاب التجربة الخلاقة لبورا أحد ثقات نقاد

الشعر المحدثين · فأذا مضت سنوات وقرأت رباعية الاسكندرية للكاتب الشاعر الانجليزى « لورانس داريل » الذى عاش بضـــع سنوات فى أرض مصر ، وكتب روايته الممتعة عن مجتمع المتمصرين والغانيات والسماسرة والجواسيس فى اســـكندرية ما قبل الحرب العالمية الثانية · ق هذه الرواية نجد شخصية لا تظهر فى الرواية ، ولكنها هى محور الرواية · وهى التى تخلع على الرواية جوها النفسى والأخلاقى · ويشير اليها المؤلف باسم « الشاعر العجوز » ويستشهد بأبياتها ، تلك هى شخصية الشاعر السكندرى قسطنطين كفافى ··

وفى هذه الأيام تقع فى يدى الترجمة الانجليزية لشعر كفافى لمترجم يدعى جون ماغرو جوردانو ، مع مقدمة لركس وارنر ، وأحاول أن أزداد علما بهذا الشاعر فيفاجئنى عالم من الخصوبة غزير ·

قل ان تجد فى الشعر الأوروبى شـــاعرا خليع العذار مثل كفافى · بل هو فى ذلك أقرب الى شعراء العرب فى العصر العباسى مثل أبى نواس والخليع والحسين بن الضحاك وغيرهم · ولعل علة ذلك انه كان يعيش بعيدا عن المجتمع السكندرى العادى ، فهو يونانى متمصر وجل صحبته من هؤلاء المنقطعى الجذور بالمجتمع المصرى العادى · والعالم الذى يعكسه شعره هو عالم المقاهى والخمارات اليونانية الصغيرة فى اسكندرية ما قبل الحرب أو ما قبل الثورة المصرية ، حين كانت الاسكندرية فى بعض أحيائها قريبة الشـــبه بالأحياء اليونانية ، وقد كان كفافى يرى الاسكندرية صورة لانطاكية القديمة فى الزمن الهلنستى ، حين انهارت دولة اليونان وترعرت المدن اليونانية فى آسيا الصغرى والشام ومصر ، والى هذا العصر كان حجه الروحى ، ومن أرضه ورموزه كانت صوره وتعبيراته ،

فهو يميل الى الوثنية فى مواجهة المسيحية الناشئة ، والى الانحلال فى مواجهة التماسك الاجتماعى والسياسى ٠

انه صورة لشاعر حقق ألوانا غريبة من الهروب ، أولا من جنسه ، ثم هرب من زمنه ، ثم هرب من الطموح العلمى والنجاح المادى حتى مات فى عام ١٩٣٣ وهو فى السبعين من عمره ٠

ولعل من أوضح القصائد تعبيراً عن نفسه هذه القصيدة بعنوان « من الفيلسوف الشهير » :

ظل طالب فلسفة لعامين عند أمونيوس ساكاس

ولكن الفلسفة أضجرته ، وكذلك الفيلسوف

فمال للسياسة ، ولكنه صد عنها

الحاكم مأفون ، ومن حوله دمى رسمية بوجوه متجهمة

مشاغلهم الاغريقية ، يتداولون فيها كالبرابرة

واستهوته الكنيسة ،

ففكر فى أن يعمد ، ليصبح مسيحيا

ولكنه غير رأيه ، فقد كان ذلك يعنى شجارا

مع أبويه ، الوثنيين المتباهيين

وكان متوقعا منهما ــ ويا للأسف ــ ان يمنعا عنه

عونهما السخى

وكان عليه ان يفعل شيئا ، فأصبح زبونا

لبيوت الاسكندرية الفاسدة
ولأوكار الدعارة
وكان القدر رحيما به
اذ منحه وجها بالغ الحسن
فاستمتع بالهبة الالهية
بعد عشر سنوات يذوى جماله
وعند ذلك · فقد يعود الى ساكاس الفيلسوف
واذا كان الرجل العجوز قد مات عندئذ
فقد يقصد فيلسوفا أو سوفسطائيا آخر
فالرجل الملائم ليعلمك الفلسفة موجود دائما
ومن المحتمل عندئذ ان يتجه الى السياسة
اذ يتذكر تقاليد اسرته
أو دينه نحو وطنه
وما شابه ذلك من رنان الكلمات

يثير شعر كفافى سؤالا بالغ الأهمية ، وهو الى أى حد يستطيع الشاعر أن يعبر عن خلجاته ونزواته ، وبأى مقياس نحاسبه عندئذ ، وهو سؤال قد تولى الاجابة عنه أسلافنا القدماء حين حفظت انا موسوعاتهم كالأغانى للاصفهانى وغيره هذه الأحاديث الصـــريحة الغريبة ، ولكن يظهر ان الحضارة قد جعلتنا أكثر تحرجا وحرصا على الذوق العام من أسلافنا · فلنطرح اذن افراطه ، ولنقرأ معه هذه القصيدة الرائعة الهادئة ·

عجوز معه جريدة

يجلس الى المائدة ذاهلا

وحيدا ، والمقهى مملوء بالضجة

وكان يفكر باسفاف فى مخاوف الشيخوخة

وقلة ما استمتع بشباب عمره وقوة بنيانه

انه الآن عجوز ، نعم ، ومع ذلك

فان ايام الشباب مازالت تخايله

ما اقصر العمر ، كان يثق عندئذ فى التبصر

وخدعته هذه الكلمة الكاذبة

كان يقول لنفسه « مازال هناك وقت »

او « فى يوم آخر سوف ... »

وكبت اشواقه ، وقدم فرحته قربانا للحكمة

كانت افكاره وذكرياته عميقة

ومع ذلك ،فقد انتصر عليها عجزه ووهنه

وغفا ـ رغما عنه ـ وغلبه النعاس

وحيدا على المائدة

ولنقرأ معه قصيدة « من عالم آخر » ، عالمالتامل العميق . وهى بعنوان « ايثاكا » مدينة اوليس التى قصد اليها بعد عشـــر سنوات من الترحال :

حين تزمع الرحلة الى « ايتاكا »
فتضرع لله ان يطول الطريق
وان يمتلىء بالأخطار والتجارب
ولا تخف من بوزيدون الغضوب
او من السيكلوب واللايتسويجوينات
فاشياء كتلك لن تجدها فى طريقك
اذا سمت افكارك ، ومست عاطفة
عارمة روحك وجسدك
لن تجد اشياء كتلك اذا لم تحملها فى روحك
اذا لم تشخصها روحك امامك
لتضرع أن يطول الطريق
وأن تكثر أيام الصيف
حين تدخل موانىء لم ترها من قبل
بفرحة غامرة وسرور عظيم
وتتوقف عند محطات التجارة الفينيقية
وتجمع الوان السلع
اللآلىء الكبيرة ، والعنبر والسمك
والعطور الملهية للحس من كل نوع
ويجب أن تزور مختلف مدن مصر

لتتعلم وتزداد علما بملازمة العلماء
يجب ان تحفظ ايتاكا فى ذهنك
وان تعرف ان الوصول اليها هو مقصدك
ولكن لا تتعجل الرحلة
فمن الأفضل ان تستغرق عديد السنوات
وان تكون عجوزا حين تلقى مرساتك

الاهـــرام ١٩٦٧/٢/٢٤

« وتبقى الكلمة »

شاعر كبير حقا

حين تقدمنا ـ جماعة من الكتاب والشعراء ـ لملاقاة يفتوشنكو على أرض مطار القاهرة · ما كدنا نراه يهبط منها حتى حجبته عنا سحابة من الـ د · د · ت · كان عمال النظافة ينشرونها على أرض المطار ، فلما انكشفت عنا السحابة بعد أن أخفته عنا هنيهة تصافحنا تصافح الود ، ثم سألني : لم يرشون المطار ؟ ، فقلت له بسلامة نية : للقضاء على الحشرات ، فأجابني بنبرته الهادئة المرحة : للقضاء على الحشرات أم للقضاء على النقاد ·· بعض النقاد ··

وحين اقتربنا من العربة التى تقله من المطار الى فندق شبرد ، كانت عربة انجليزية سوداء اللون عالية السقف ، فنظر اليها ضاحكا ـ وقال : هذه العربة لنقل الموتى ، ولم يركب مطمئنا الا بعد أن قلت له انها عربة لنقل الخالدين ·

وهكذا يفيض يفتوشنكو حياة وضـــحكا حينما حل ، ولكنه ضـــحك ذكى ، ينبع من عقله اليقظ وقلبه المبتهج بالحياة والدنيا ابتهاجا لا حد له ·

والذين رأوا يفتوشنكو ، وهو يلقى شعره وجدوا مزيجا من الشاعر والممثل ، فهو لا يكتفى بحركات يديه أو تلوين صوته ، ولكنه يضع جسمه كله فى خدمة الالقاء ، وهو يريد قبل أن يلقى شعره أن يستريح يوما كاملا ، وان يتأهب نفسيا بعض الوقت ، فالقاء الشعر عنده ـ بحد ذاته ـ عمل من أعمال الفن ٠

ولقد أسر يفتوشنكو نفوس كل من رآوه فى معظم عواصم العالم التى زارها ، بهذا « الحضور » الانسانى الخصب ، شعراً والقاء وحياة صاخبة ، ولكنه بغض النظر عن هذا كله جدير كل الجدارة أن يفتن قراء الأدب ونقاده ، كشاعر شاب ، من أرفع شعراء الشباب ولكنه يتميز عن شعراء العالم جميعا بانه « رمز » أيضا الى جوار انه شاعر كبير ٠

ونحن هنا ـ فى القاهرة ـ نستقبل فيه الرمز والشاعر الكبير معا ، انه رمز الى أن الدولة الاشتراكية قد استطاعت أخيرا أن تحل مشكلة من أهم المشكلات التى تواجهها ، وهى علاقتها بالأدب والفن٠ فنحن نعرف أن الأدب والفن فى الاتحاد السوفيتى قد مرا بفترة جدب طويلة بعد ثورة ١٩١٧ ، وزاد هذا الجدب حدة حين ولى أمور الأدب أحد القادة الحزبيين وهو « جدانوف » الذى نسب اليه هذا الاتجاه المتزمت فى النظرة الى أمور الأدب والفن ، وكم صـــادر جدانوف وأعوانه روائع الأعمال ، فلم تر النور ، وكم ضيقوا الخناق على الشعراء والمفكرين والموسيقيين ، حتى كادوا أن يصـــرفوهم عن الابداع والتجديد ٠ وكان حجة « الجدانوفيين » دائما أن هذا الكتاب أو ذاك ، وهذه القصيدة أو تلك ، لا تخدم قضية الانسان والاشتراكية فهى لا تتحدث عن المزارع الجماعية ، ولا تمجد الجندى السوفيتى ، ولا ترفع شعارات الثورة ، ولا تعلم الجماهير شيئا ، اذن ما حاجتنا اليها ٠ لتسكت هذه الأصوات التى تتغنى بحب المرأة او جمال الوردة

او اشراق الفجر ، ولا يبقى الا الأدب البسيط الساذج الذى يفهمه الفلاح البسيط الســـاذج ، او الكتابة المباشـــرة التى تنفع نفعا مباشرا ٠

ولكن كم تغيرت الأمور بعد موت ستالين ، وهى لم تتغير دفعة واحدة ، بل كانت معركة متصلة الحلقات ، لها روادها ولها ضحاياها ٠٠ فمن روادها مثلا الروائى الروسى الكبير « ايليا اهرنبورج » بروايته « ذوبان الجليد » ومن ضحاياها « بوريس باسترناك » الذى مات كسير القلب بعد الضـــجة التى اثيرت حول روايته « دكتور جيفاجو » ٠

ويفتوشنكو ليس وحده الممثل لهذا الأدب الجديد والفن الجديد فى الاتحاد السوفيتى ٠ فالى جواره شعراء آخرون ، يحب هو ويحب النقاد أن يذكروا منهم الشاعر اندريه فوزنسنكى ، والشاعرة بللا احمد ولينا ، كما كان الى جواره مجموعة من الروائيين الجدد من المع اسمائهم « بورى كازاكوف » و «نجيبين» ، فضلا عن آخرين من الموسيقيين والفنانين التشكيليين ٠

ان هؤلاء جميعا ليســوا ضد الثورة الســـوفيتية ، ولكنهم يعتقدون أنهم اكثر فهما للثورة ، وأكثر حرصا عليها ، من جموع البيروقراطيين والرقباء والقوميســـارين ، لأن الثورة عندهم حياة روحية خصبة ، وغناء من القلب ، وتعبير وجـــدانى عن تطلعات الانسان ، ولعل من اوضح ما يمثل ذلك قول يفتوشنكو نفسه ٠

لا أريد ان اضع الهامى فى توافة الأمور

بل ان يكون شعرى بلون علمنا ذاته ٠٠

شعرا احمر صارخا

ذا ضوء نقى مهيب

يجعل الكبار والصغار يقولون

هذا حقا شاعر شيوعى ٠

وهو ـ يفتوشنكو ـ لكى يصبغ شعره بالانسانية والشيوعية معا ، لا يلجأ الى الخطابة بل الى الايحاء ، ولا يضيع الهامه فى التغنى بمشروع بل فى التغنى بالانسان ٠

اما القصاصون فهم يدركون أن للمجتمع الاشتراكى تناقضاته كما أن للمجتمع الرأسمالى تناقضاته ، وأنه لا يفيد أحدا فى شىء أن نغض النظر عن تناقضات المجتمع الاشتراكى ، ونكرر بين حين وآخر أن كل شىء على أفضل ما يرام ، فتلك خيانة للفن والاشتراكية معـــا ٠

اما الفنانون فهم لا يريدون أن يكتفوا بنسخ خضرة الجنة ٠ على حد تعبير الشاعر فورنسنكى ، بل أن يضعوا روحهم فى الخطوط والألوان ٠٠

اما يفتوشنكو الشاعر وسليل الشعراء الروس الكبار ، من بوشكين حتى باسترناك ، واذكر أننى سألته عن رأيه فى باسترناك ، وكنت أقول انى أجد باسترناك شاعرا أكبر منه قصاصا ، فقال لى ان قصة دكتور جيفاجو هى وصف للثورة من وجهة نظر أحد من شهدوها ، وان هناك عديدا من وجهات النظر تجاه الثورة شأن كل عمل تاريخى ، اما باسترناك الشاعر فقد قال لى يفتوشنكو : حين تسألنى عن باسترناك فكأنك تسألنى عن الهواء الذى أتنفسه ٠٠٠

ورغم ذلك فانني أجد فرقا كبيرا بين يفتوشنكو وباسترناك ، كلاهما يخوض الى الشـــعر طريقا يختلف عن طريق الآخر ٠ أما باسترناك فقد كان يلجأ الى الصورة والايحاء ، والى تكثيف القصيدة في نوع من الكيان الصوغي المغلق ، ووراء قصـــيدته الرمزية في أصفى معاني الرمزية عالم آخر لا ينكشف الا بمعاودة النظر ، أما يفتوشنكو ففي شعره مكاشفة واضـــحة ، واهتمام بفتات الحياة اليومية ، وتجميع لعناصره لكي يجعل منها في ختام القصيدة أو ذروتها معنى شعريا لامعا ٠

بناء القصيدة عند باسترناك اذن بناء أفقي ، كل القصيدة في مستوى واحد من التكثيف والتلاحم ٠ أما بناء القصـــــيدة عند يفتوشنكو فهو بناء « ذروي » يبدأ من بداية هادئة ، ثم يظل يتلاحم ويحتد حتى يصل الى الذروة ، فيلقي عندئذ عبرته ، أو ما اصطلح القدامى على تسميته بيت القصيد ٠

وثمة اختلاف جوهري ايضا بين عالمي باسترناك ويفتوشنكو ، فعالم باسترناك داخلي محض ، هو انسان قضت عليه ظروف حياته ان يطيل التأمل في ذاته ، وان يطيل التأمل أحيـــانا في الطبيعة الروسية القاسية الغامضة ، محاولا ان يطرح عليها أحزانه وتأملاته ٠٠ اما يفتوشنكو فالانسان عنده اكثر اثارة من الطبيعة ، والحياة اكثر رفقا من الفكر ٠

ان يفتوشنكو أقرب الى بوشكين كثيرا ، فهو حريص على عنصر القصة في قصائده ٠ وهو لذلك روسي أصيل ، فالشـــعر الروسي لم يعرف معظم الموجات الشعرية التي تلت الرومانتيكية ،

مثل الرمزية والسيريالية والدادية وغيرها ، ولذلك فان درجة الوضوح فيه أكبر من درجة الوضوح فى معظم الشعر الأوروبى المعاصر ..

واخيرا ، فمرحبا بيفتوشنكو فى القاهرة ، يفتوشنكو الرمز الشاعر معا .

الاهرام ١٩٦٧/٤/١٤

المســرح والمرايــا

أدونيس صوت فريد فى شعرنا العربى الحديث ٠ اذ نستطيع أن ننسب كل شعرائه المجيدين الى تيار متقارب ، بينما يظل لأدونيس وجوده الخاص ، الذى لا يكاد ينتمى الى هذا التيار الا بمشقة ٠ ولعل ذلك هو سر الاختلاف فى تقدير شعره ، ودعك عندئذ من آراء الطرفين ، طرف المغالاة وطرف التفريط ٠

ولأدونيس تاريخ فى الشعر ، فقد أصدر قبل هذا الديوان ، دواوين قصائد أولى ١٩٥٧ وأوراق فى الريح ١٩٥٨ ، واغانى مهيار الدمشقى ١٩٦١ ، وكتاب التحولات والهجرة فى أقاليم النهار والليل ١٩٦٥ ٠ ولعل تفرده لم يتضح الا من خلال الديوانين الأخيرين ، وهاهو ذا يؤصل هذا التفرد بديوانه الثالث « المسرح والمرايا » الذى يصدر هذا العام ، محتويا لعشرة أسفار أو فصول ، يتخذ كل منها عنوانا مستقلا وتتفرق فى كل منها المقطعات والقصائد التى يضمها خيط خفى يهتدى اليه الشاعر ، ويود أن يهتدى اليه القارىء ٠

ومنذ سنوات اقترن اسم أدونيس باقتراح « قصيدة النثر » على أدبنا العربى ، اذ قدم منها فى دواوينه تلك نماذج من الأداء

النثرى لعطاء العوالم الشعرية ، ولم يقنع بأن يطلق على تلك النماذج ذلك التحديد الذى اصطلحت الحياة الأدبية العربية على اقراره ، وهو « الشعر المنثور » · بل أسماها بذلك الاسم المشتبه « قصيدة النثر » وكأنه يشير بذلك الى أنها تختلف عن ذلك الذى كان يكتبه الريحانى وجبران خليل جبران ، وكأنه بذلك يمد صلتها ونسبها الى قصائد النثر الفرنسية التى عرفناها عند رامبو وبودلير وسان جون بيرس · ومهما يكن الأمر فىقصائد النثر تلك ، فهى تشير بصياغتها، ومحتواها الى المدرسة الشعرية التى ينبع منها شعر أدونيس ، والتى هدته الى تصور الشعر ، فأضاف بهذا التصور هذا الملمح الجديد الى شعرنا الحديث ·

فاذا كان معظم شعرنا العربى الحديث ، ينبع من لقاء الشعر العربى بتياراته التقليدية وأصالته المتكررة الوجوه بالشعر الانجليزى فى فترتيه الرومانتيكية والحديثة ، فان شعر أودنيس ينبع من اللقاء بين الشعر العربى وتيار الشعر الفرنسى منذ أواسط القرن التاسع عشر · وبخاصة تيار الرمزية والسوريالية ·· لوتريامون ·· رامبو ·· مالارميه ·· بريتون ·· ابلوار ·· رينيه شار ·· سان جون بيرس ·

يبغى الناقد بهذا الايضـــــاح اقرار حقيقة ، فليس ذلك عيبا لأدونيس ولا مفخرة · فقد واجه جميع شعراء تلك الفترة من ذوى الضمائر الطموحه مشكلة تصور الشعر · ولعل معظمهم قد ساءل نفسه أكثر من مرة فى السنوات الأولى لابداعه هذا السؤال الابجدى: ما الشعر ، وقد نتج هذا السؤال عن رفض للوجوه المتكررة لشعرنا العربى ، والتى كان آخرها وجهى مدرســـــة الاحياء والمدرســـــة العاطفية ·

ومن خلال الرفض والتطلع تكون مركب توفيقى متفاوت النسب،

فهو عند نازك الملائكة مثلا توفيق بين الغنائية العـــربية والغنائية الرومانتيكية الانجليزية ، حتى لنستطيع أن نلمح فضلا عن المزاج الاسيان صورا مفردة مقتبسة من جون كيتس وبايرون · بينما نجد عند نزار قبانى محاولة التوفيق بين الغنائية العربية وبين مدرسة الشعر (الشعبى)(١) الفرنسى ، التى يبرز من أعلامها بول جيرالدى وجال بريفير ·

ولعل أودنيس قد فتن كما فتن معظم شـــداة الشعر بدعوة السيريالية التى بلغت موجتها شرقنا العربى فى خمسينات هذا القرن ·· واذا كانت السيريالية فى بيئتها الباريسية الأولى احتجاجا ثوريا على الشعر الفرنسى ، فمما لاشك فيه أنها بالنسبة لواقعنا الشعرى رفض وثورة ومناقضة · فقد درج تراثنا الشعرى على التعقل والتأنى فى تجاوز الخاطرة الى الخاطرة والفكرة الى الفكرة · ونبع كله بلا اســـتثناء من منطقة الوعى دون أن يطمح الى اختراق منطقة اللاوعى ، وحـــرص على الابتعاد عن المدهش والمثير الى الدارج والمألوف · وكان التركيب الشعرى أكثر قداسة من النبض الشعرى فى معظم الأحيان حتى لتبدو السيريالية نقيضا كاملا لتقاليد الشعر العربى الموروث ·

لا تؤمن السيريالية بأن الشعر وسيلة للتواصل بين البشر ، ولكنها تؤمن بأن الشعر وسيلة لاكتشاف أغوار النفس ، واستجلاء أقاليمها الغامضة ، من خلال اطلاق العنان لقوى التخيل واللاوعى والولوج الى المناطق البدائية فى الذات الجمعية حيث يأوى السحر والدين ، وتختلط الكلمات والأصوات ، ان الشـــعر اذن محاولة

---

(١) الشعبى هنا تعنى الشاعر الذى يتجه الى جماهير الشعب ·

تعزيمية تهويمية للوصول الى الحالة الشعرية ، التى ينبلج بعدها الصفاء المطلق ·

لا تلقى السيريالية اعتبارا كثيرا للشكل أو للمعنى ، فهى فن التعبير عن المطلق بالمطلق · ولعلها من هنا كانت احتجاجا اجتماعيا فضلا عن كونها احتجاجا ذنيا على التقليد والمتوارث ·

ولكن الأمر الذى يجب أن ندريه هو أنه لكى يتكون مركب لابد من مقدرة عنصرية على الاتحاد والامتزاج ، ولا يستطيع شعرنا العربى أن يأخذ من السيريالية الا بمقدار ما يستطيع أن يتمثل ، فحين يفتتح أودنيس قصيدته « مرآة الطريق وتاريخ الغصون » بقوله :

لا خليج المرايا ولا وردة الرياح

كل شيء جناح

طالع فى دمى ، فى الحقول

سابح فى مدار الفصول

حين آخيت وجهى مع الشعوب ،

واستسلمت خطايا

لحنين المرايا

ورأيت العناصر تبكى ، وتفتح جرح الأخوه

بيننا ، وعرفت الاشارة

انلهى أول البشاره

انتى نبتة من الشرق فى روضة النبوه

لا خليج المرايا ولا وردة الرياح

كل شىء طريق

الحدود وراياتها والحريق

والسدود ، اللقاء ومعراجه

الصوت (صوتى فى واحتى)

العصافير تنأى وتترك أسماءها فى الغصون

يستوقفنا فى هذا المطلع هذا الجو المبهم ، وحرص الشاعر على الادهاش · سواء بموسيقاه التى كأنه يحرص على خلق انسجام فيها قائم على عدم الانسجام ، أو بتحطيم السياق الذى يبدو منخلو المقطع الأول كله منصيغة الفعل (من لا خليج ·· الى الفصول) مع احتياج الجملة الشديد الى الفعل لكى يعطى أجزاءها زمنها المعين · واظننا نستطيع أن نلمح أن القصيدة تقوم على تفعيله (فاعلن) ·

ولكن الشاعر يهشمها فى أكثر من سطر ، وبخاصة حين نتوقعها توقعا ملحا كقافية ·

وقصيدة مرآة الطريق وتاريخ الغصون ·· التى اقتبست مطلعها الآن دليلا ، هى أكثر القصائد تمثيلا للمذهب الشعرى حين يستحكم ، فيطغى طغيانا على الروافد الأخرى للقصيدة فليس من المستطاع أن يدرك القارىء من القصيدة الا حالة من الاعتراف وكشف النفس بلغة جديدة صعبة الاستكناه ، تعتمد على تجريد الكلمات من معناها الدلالى الى معنى ايحائى ، ثم على خلق نوع من الترابط المدهش بين الأشياء · ولكن العسير حقا هو أن نقراها

بمنهج قراءتنا للشعر التعبيرى (بشتى اشكاله)او ان نقراها بمنهج الشعر الرمزى فيكفينا عندئذ أن نستكشف المرموزات ، ثم نمضى بعد ذلك مطمئنين وقدتفتحت لنا أوراق القصيدة كما تتفتح اوراق الوردة . أو أن نقرأه كما نشهد اللوحة التاثيرية التى يتوفر فيها قدر من الحرية مع قدر من المألوف كما نشهد فى هذه القصيدة التى أظن أنها غاية فىفن أودنيس ، وعنوانها « أغنية للرجل » .

جانبيـــا

رأيت وجهك مرسوما على جذع نخلة

ورأيت الشمس سوداء في يديك

فأسرجت حنيني الىالنخيل ، حملت الليل في سلة ، حملت المدينة

وتناثرت حول عينيك ، أستطلع وجهي – رأيت وجهك جوعانا كطفل ، حوطته بالتعاويذ

وفتتت فوقه ياسمينة

أو فى هذه القصيدة ، عنوانها « مرآة الشاهد »

وحينما استقرت الرماح في حشاشة الحسين

وازينت بجسد الحسين

وداست الخيل على نقطة

فى جسد الحسين

واستلبت وقسمت ملابس الحسين

رايت كل حجر يحنو على الحسين

رأيت كل زهرة تنام عند كتف الحسين

رأيت كل نهر يسير في جنازة الحسين

لقد أطلق أودنيس على ديوانه اسم « المسرح والمرايا » ايمانا منه بأن الشاعر هو روح الكون الخالد ، وليست التواريخ والحضارات الا مرايا تتكسر جيلاً بعد جيل • والشاعر هو من يحتفظ بتذكارات هذه المرايا في ذاته المفردة ، التي هي الى ذلك ذات الجماعة كلها ، بل ذات الانسانية أو ذات الوجود كله •

اسمع صوت الزمن ، القصيدة

يد هنا هنالك القصيدة

عينان تسألان

هل أغلق النسرين كوخه

هل فتح الانسان

بوابة جديدة

يد هنا ، هناك ، والمسافة

تنوس بين الطفل والضحية

لكي تجيء النجمة الخفية

وترجع الدنيا الى الشفافة

دور عظيم اذن أن يعيد الشاعر « الدنيا الى الشفافة » ومسئولية ضخمة يتفتح تحت عبئها شعر ادونيس ، بكل تفرده وجديته ، وبثرائه

اللفظى المنقطع النظير ، وبمحـــاولته الواعية للاقتراب من عالم اللاوعى ، وبموسيقاه اللولبية المحكمة الانسجام والنشاز ، وتأمل وقفته هنا فى آخر المقطع

كنت اغامر فى الغابات

اركض خلف الجنيات

أحلم أن الجنيات

خـــــبز

هذه الوقفة الغريبة ، بما فيها من انقطاع مفاجىء ، يبدو وكأن الشاعر قد أرادها تصميما ، وبخاصـــــة لو قارنا بينها وبين الحلقة الكاملة فى موسيقية المقطع الذى يليه ٠

ومر عصفور بلا هويه

من فلوات الطير

والتفت الارض كمزهرية

لليل بقية

من شجر الصبير

وأظن القارىء لن يعنيه أن يكتشف الجدة المفرطة فى قاموس أدونيس الشعرى ، وأن يقدر بعد ذلك اضافة أخرى من اضافات أدونيس الى الشعر العربى الحديث ، ولكن سؤالا لابد أن يطرح نفسه بعد أن ننتهى من قراءة هذاالديوان الجليل وهو :

هل السيريالية تجربة أم نهاية طريق ؟

أما أنا فيغلب على ظنى أنها تجربة يستطيع أن يفيد منها الشعر العربى الحديث بأن تزحزحه قليلا عن قوالبه التى تجمدت خلال عشرين عاما فحسب من الابداع بأن تفتح له عوالم لم يخضها بعد ، وفى هذا المجال يكون أدونيس سباقا الى سرقة النار الإلهية واباحتها للشعراء ، ولكنها أى السيريالية ليست نهاية طريق ، وأظن أدونيس حين يتفتح فى دواوينه الأخيرة على صوت شعبه العربى سيستطيع أن يجعل من هذا المذهب أحد أجنحته الألف المختلفة ، لا جناحه الوحيد ·

المجلة مايو ١٩٦٨

رحلة على الورق

علـى محمـود طـه
المـلاح التائـة ..

لوحة حيـاة :

* فى المنصورة ، اجمل مدن دلتا مصر ، التى يعيش اسمها فى التاريخ منذ أسر فيها القديس لويس ، ابان غزوته الخائبة لمصر ، ولد على محمود طه فى عام ١٩٠٢ .

والمنصورة ترقد ناعمة بين نيل دمياط والبحر الصغير « ترعة من ترع شرق الدلتا » ، وقد كانت ذلك الزمان مقرا مزدهرا لتجارة القطن ، وفيها جالية من متمصرى المهاجرين من شعوب البحر المتوسط ..

ومازالت شهرة نساء المنصورة بالجمال تخايل اذهان المصريين وفى نسائها شقرة فى الشعر ، واخضرار فى العينين ، والخبثاء يقولون ان ذلك من أثر الفرنسيس .

* واسرته على شىء من النعمة ، وتعليمه متوسط مهنى ، اذ تخرج فى مدرسة الفنون والصنائع ، وظل حريصا على أن يلحق

باسمه لقب « المهندس » كنوع من الوجاهة الاجتماعية ، رغم أن درجة مدرسته لا تتيح له هذا اللقب (فى عرف كتاب الدواوين) الا بمشقة بالغة ومجاملة ٠

* عمل موظفا بأنحاء المنصورة ، وصاحب مجموعة من شعراء المنصورة ٠ منهم ابراهيم ناجى « البلبل الجريح » ومحمد عبد المعطى الهمشرى « عاشق الطبيعة » وصالح جودت « العازف ذى الوتر الواحد « ، وتراسل مع البلاغى والمنشىء المعروف أحمد حسن الزيات ، الذى كان يحرر مجلة « الرسالة » ، ونشر فى مجلته بعض شعره ٠

* انتقل الشاعر الى القاهرة فى أوائل الثلاثينات ، ونشر بعضا من شعره فى مجلة « أبوللو » ، ثم أصدر ديوانه « الملاح التائه » فى عام ١٩٣٤ وعمره اثنان وثلاثين عاما ، فكان فاتحة شهرته الواسعة ٠

كتب عنه الدكتور طه حسين يقول :

« هو شاعر مجيد حقا ، ولكنه مازال مبتدئا ، وهو شاعر مجيد حقا ، ولكنه فى حاجة الى العناية باللغة واصولها ، وتعرف أسرارها ودقائقها ، فلا ينبغى للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم أن يكون علمهم باللغة يسيرا محدودا ، وأنا واثق بأن شاعرنا ان عنى بلغته ونحوه وقافيته ، وتوخى ما ألف من خفة التصوير ورشاقته ودقته ، فسيكون له شأن فى تاريخ الشعر العربى الحديث ٠

وكان ذلك الحكم الختامي من طه حسين بعد كثير من الاطراء وقليل من المؤاخذة ٠

* نشر بعد هذا الديوان قصائده فى كبريات الصحف وفى صيف سنة ١٩٣٨ عبر البحر الى أوروبا ، ورغم أن هذه السياحة الغربية كانت متأخرة ، الا انها أثرت فيه تأثيرا بالغا لعل الأثر الذى يدانيه فى حياته هو أثر الشهر الشعبية الواسعة التى لقيها حين غنى عبد الوهاب كبير المغنين فى زماننا أغنية الجندول ، ومشى المتسكعون فى حوارى القاهرة ينشدون :

أنا من ضيع فى الأوهام عمره

وكان ذلك فى عام ١٩٤٠ · وفى ذلك العام أيضا أصدر على محمود طه ديوانه « ليالى الملاح التائه » ومعظمه من انعكسـات سياحته الأوروبية ·

* فى عام ١٩٤٢ أصدر قصيدة حوارية طويلة عنوانها « أرواح وأشباح » وكان قد أصدر قبلها مجموعة من الشعر المترجم لبعض شعراء الانجليز والفرنسيين مع بعض التوابل النثرية بعنوان « أرواح شاردة » ·

* وفى عام ١٩٤٣ صدر له ديوان « زهر وخمر » واستوت شهرته الواسعة ورسخت ·

* وفى عام ١٩٤٤ أصدر مسرحية شعرية « أغنية الرياح الأربع » ، هى جديرة بأن تدرس فى نطاق نظائرها من مسرحيات شعراء الرومانتيك الانجليز ، كشيلى وبايرون ، ولكنها لا تستطيع أن تدخل فى التراث المسرحى الأصيل ·

* فى عام ١٩٤٥ صدر له ديوان « الشوق العائد » ، وأجمل قصائده هى القصيدة التى سمى الديوان باسمها·

* فى عام ١٩٤٧ صدر له ديوان « شرق وغرب » ، وكأنه الانتفاضة الواهنة للذبالة المحترقة ٠

* توفى الشاعر عام ١٩٤٩ ، فى السابعة والأربعين من عمره، بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس زمانا ، وأتعب مقلديه من ناشئة الشعراء بفتنة موسيقاه وعالمه الموشى ٠ ولكن الأعوام التى تلت موته تشهد ـ لأمر لا ندريه ـ لونا من خمول الذكر أو اضمحلاله ٠٠ أظلم ذلك أم عدل ؟

ـ ٢ ـ

محـــــاولة جـــواب :

ينقلنى الحديث عن على محمود طه الى جنة الصبا وبراءته لأرانى حدثا يطمع أن يكون شاعرا ، فهو يحفظ ويقرأ ويقرزم ٠ وينقل عينه بين لزوميات أبى العلاء وسيفيات المتنبى ، فاذا استشرف عصره قرأ لشاعرين كانا فى ذلك الوقت مهوى أفئدة محبى الشعر فى مصر، اذ كان سواهما من شعراء سائر أرض الوطن العربى عنا نائين لا نكاد نرى نتاجهم ٠

كنت مفتونا بأحد هذين الشاعرين ، مجرد محب للآخر ، وكنت نقيضا فى ذلك ٠

اما فتنتى فكانت بمحمود حسن اسماعيل ، وكان حبى لعلى محمود طه ٠

كان على محمود طه فى تلك الفترة قد استوفى عطاءه الشعرى ٠ وكانت أيامه القليلة تشارف نهايتها ٠ ورغم انه كان فى لذلك الوقت

فى حوالى الخامسة والأربعين من عمره فقد كنا حين نقرأ شـــعره نتوهمه شابا جاوز الثلاثين بقليل ، رغم انه قال لنا ذات مرة :

فزعت لـــكم من وراء الســــقام
وقد جلل الشـــيب راسى اشـــتعالا
وما ان بكيت الهـــوى والشـــباب
ولكن بكيت العـــــلا والرجـــالا

وحين جئت القاهرة من بلدتى الصغيرة قبل أن يفارق على طه الحياة بعامين ، كان مطمحى أن أرى شاعرى . وفى أحد مقاهى الجيزة القريبة من الجامعة تعرفت بأنور المعداوى رحمه الله . وكان فى ذلك الوقت ألمع النقاد الشبان ، وكانت له صحبة نعرفها بعلى محمود طه ، فرجوته أن يقدمنى اليه لأسمعه بعضا من شعرى . وقال لى المعداوى ان على طه يتخذ له مجلسا فى أحد المقاهى الراقية فى وسط القاهرة ، ولعلى لهذا ، وأنا الصبى الريفى تهيبت اللقاء .

أما محمود حسن اسماعيل ، فقد كان يتخذ مجلسه فى المقهى نفسه دون أن أدرى ، كان يجلس وحيدا معظم وقته ، فى يده عصا غليظة ، وعيناه احداهما خابية والأخرى مشتعلة ، وكثيرا ما يسند ذقنه الى عصاه .

قلت لأنور : وأين محمود حسن اسماعيل ؟

نضحك ضحكة رنانة ، وأشار الى مائدة قريبة قائلا : «هوهذا» ... قمنا عن مائدتنا ، واتجهنا اليه ، وبعد التعارف جلست حينا محتشما ، وأسمعت محمود بعد تنحنح واستئذان متأدب بعض ما فاضت به قريحة ابن السابعة عشرة ، وأشهد الله أن صديقى الكبير

فيما بعد ، محمود حسن اسماعيل ، كان اكثر كثيرا من متحفظ وكانني واغل دخلت عالمه ولكنني مع ذلك قمت عن مجلسه سعيدا ، وحكيته لرفاقي في الجامعة .

كنت أري عندئذ في محمود حسن اسماعيل شاعرا متفجرا بينما أرى الصقل المحكم في شعر على طه ، وكنت أوثر التفجر على الصقل ، والفوضى المنظمة على النظام ، ولكنني كنت احتفظ رغم ذلك بنصف قلبي لعلى محمود طه ، ولم أكن أدرى أن أصدقاء جددا يتسللون الى قلبي ، فيزحمون على طه ، حتى فوجئت بموته في نوفمبر سنة ١٩٤٩ .

يشق على نعي الشعراء ويبكيني ، بل وينفضني من أعماقي .. وعلى قلة ما بكيت فقد بكيت *لموت على طه ، ولموت ابراهيم ناجى،* ولموت بدر شاكر السياب .

وبعد البكاء تأملت مكان على محمود طه ، فوجدته قد صغر . ووجدت من زاحمه هو بلبل الشعراء الجريح ابراهيم ناجى ، الذى أسعدنى الحظ بمعرفته في العام الأخير لحياته ، ثم هذه اللغة التى أصبحت اتقن القراءة بها، والتى استطعت من خلالها ان اقرا بعضا من شكسبير وكيتس وشيلى واليوت .

والآن ، أجدنى في هذه الخمس عشرة سنة الأخيرة ، وقد بعدت عن هذا العالم كله ،عالم ايام الصبا ، فلست أعيد قراءة شيء منه الا نادرا ، ولكنى حين عرض على الأخ سهيل ادريس ان اكتب مقدمة لمجموعة منتقاة من شعر على طه فرحت بعرضه ، فتلك عودة الى لقاء الأحباء الأول . وطلبت دواوينه في مكتبى فاذا معظمها معار او مفقود ، فطلبتها عند باعة الكتب ، فاذا بها نافدة ، وتساءلت

كيف لم يعد طبعها وقد أعيد طبع بعضها خمس مرات او ستا فى حياته القصيرة · أيموت الشـعراء عندنا بموتهم ، أم يسـتجيب الناشرون لما يحب القراء ويطلبون ؟ ماذا نقل على محمود طه من منطقة الشمس المشمسة الى حافة الظل الظليل ؟ أهو تغير ذوق العصر واختلاف تلك المنطقة الغامضـة الفريدة من ادراك الأمة ووجدانها واحساسها أو ما يطلق عليه أحد النقاد Sensebility بحيث أن ما كان يفتن القراء قبل عشرين أو ثلاثين عاما لم يعد يفتننا الان ، أم هو شيء كامن فى شعر على محمود طه ، يجعل سيرورته وئيدة فى الزمان ؟

ولعل ما يجعل هذا السؤال ملحا هو مدى الشهرة الواسعة التى حظى بها على محمود طه فى زمانه بحيث خسف نجمه نجوم معظم معاصريه من الشعراء · قد كان مكان الشـاعر من اهتمام المجتمع فى ذلك الزمان محدودا ، وكأن المجتمع كان يسترد ما خلعه على لات الشعر وعزاه : شوقى وحافظ · ولكن على طه استطاع أن يتخطى الدائرة التى لم يستطع ناجى ومحمود اسماعيل وأبو شادى وصالح جودت والهمشرى أن يتخطوها · وهاهى ذى الدائرة تضيق على ذكراه بعد جيل واحد من الزمان ·

وثمة سؤال يولد من السؤال الأول ، وهو أين مكان على محمود طه فى حركة الشعر الحاضر ؟ ولن نستطيع أن ندرك مكانه الا اذا قسنا مدى أثره فى خلفائه من الشعراء · وعند ذلك نجد أثره ضئيلا واهنا · فرغم كثرة مقلديه فى زمانه الا أن أحدا عنهم لم يستطع أن يتمثله ثم ينطلق به الى أفق جديد · فكأنه نهير شق طريقه على مهل ، ثم تسرب فى الرمل

فلنعد اذن قراءة على محمود طه عل هذه الأسئلة تجد جوابا ،

* * *

يفجؤنا فى على محمود طه هذا الاتساع الشديد لعالمه الشعرى .. فلن تذكر غرضا من أغراض الشـــعر كما يراها القدماء أو المحدثون الا ووجدت لعلى طه اسهاما فيه أو اقترابا منه . قل ما شئت فى المدح والرثاء والغزل ماجنه وعفيفه والوصـــف ظاهره وباطنه ، وقل ماشئت فى شعر التأمل أو الفلسفة أو الحكمة . ولو تجاوزت ذلك الى الشكل لوجدت القصيدة الموحدة القافية التى تنسج على منوال القصيدة التقليدية العربية ، ثم لوجدت القصيدة الرباعية القافية والثنائية والوشحة ثم لوجدت القصيدة الحوارية ، وضربا من محاولة المسرحية الشـــعرية . ولو تجاوزت ذلك الى عروض الشعر لوجدت كل أبحره ممثلة فى نتاجه الشعرى ما عدا بعض غير الدارج منها .

ولو وقفنا عند عالم اهتماماته وقفة متأنية لعجبنا كيف يستطيع شاعر بمفهومنا المعاصر أن يهتم بأن يتحدث عن امرأة ترتدى غلالة رقيقة نائمة تحت نافذتها المفتوحة فى ليالى الصيف المقمرة ، فيقول :

على خديك خمـــــر صـــبابة افرغها دنا
رحيق من جنـى الفتنـــة لا ينضـــب او يفنى
وفى نهديـك طلســمان فى حلمهمـــا افتنـــا
الى كنزهما المعبـــود بات يعـــالج الردنـا
اغـــار ، اغـــار ان قبـــل هذا الثغـر او ثنى
ولف النهـــد فى لين وضـم الجســـد اللدنا

فأن لضـــوئه قلبـا وأن لســحره جفنـــا
يصــيد الموجة العذراء من أغــوارها وهنــا

وهو مع ذلك يحيى عيد الهجرة عاما بعد عام :

غن بالهجرة عاما بعد عام وادع للحق وبشر بالسـلام
وترســل ياقصــيدى نغما وتنقـل بين موج وغمـــام
صوتك الحق فلا ياخذك ما فى نواحى الأرض من بغى وذام

ويقول منشدا الهجرة فى قصيدة أخرى :

ياشــــرق ملء خــاطر ى سـحر وملء ناظرى
أوحى ليلك القــــــديم أم رؤى الـــــــزواهر
يا شـــرق ، اى ليلة رائعــــة الدياجــر
نجومها خلف الغمــــام أعين المقــــادر
ترنو على جـــوانب الســـماء للمهاجر
تمد من شـــعاعها مثل جنــاح طــائر
رعى المحب للحبيب حف بالمخـــــاطر
تقول ، ههنا الســـرى ، ومن هنا فحاذر

والشاعر حين يتحدث فى قصائده الوطنية فى أيام الانتفاضة التى تلت ١٩٤٥ يهاجم الانجليز ، ثم يرثى سياسيا مصريا كان من خلص اعوان الانجليز هو امين عثمان قائلا :

كم شــهيد فيك مهدور الدماء ... لا تراعى ، اقت ام الشــهداء
كل غســال من مقـــاع ودم ... لك يامصر ، وما عز الفـداء
قيل اودى بامــين قــاتل ... كيف يودى ببنيك الأمنـــاء
كيف يودى بفتى من خلقــــه ... كل معنى من ســماع ووفاء
لا تقولوا طائش فى رأيه ... انما الرأى من العـــذر براء
انما النـــاس لهم آراؤهم ... وهم الأحـــرار فيها طلقـاء

وعلى هذا المنوال تمضى هذه القصيدة ، ويمضى كثير غيرها من قصائده ، منفردة فى عالمها ، بعيدة الشبه بما سبقها وتلاها ، فكأن الشاعر يتخذ لكل مقام مقاله ، ويحشد لهذا المقال أهبته ، فيعد له ما يوائمه من أفكار وصور ، وما ينسجم معه من تعبير ·

والحق أن على محمود طه مسجل وافر الدقة والأمانة للأحداث المصرية والعربية والعالمية ، فقد كتب قصائد عن باريس وسقوطها وعن الحرب وأهوالها وعن كل القضايا الوطنية والسياسية التى مرت بالوطن العربى · وهو يشبه شوقى فى ذلك كثيرا ، وأوضح شبه له بشوقى هو منهجه التقريرى الخطابى فى تناوله لهذه الأحداث ودنوه فى تناولها من الأفكار الشائعة الذائعة،وحرصه على جهارة ورنين الايقاع ، فكأنه يريد أن يخاطب بهذه القصائد جمهورا واسعا ، او كأنه ينشدها فى حفل زاخر ·

هذا الجانب الاجتماعى من شعر على محمود طه هو أخفى جوانبه ، فقد كان القراء يعرفونه بصبواته وحديثه عن معاشقه · والحق أن خمسى أشعاره على الأقل تخرج عن نطاق ذكر الصبوات والمعاشق الى أفق القضايا السياسية والقومية والاجتماعية ·

ونحن لا نستطيع أن نحاسب شاعرا على اتساع عالمه ، فتلك ميزة تحسب له ، لا نقيصة تحسب عليه · ولكننا نطالبه حين يتسع عالمه أن تكون زاوية رؤيته لهذا العالم المتسع زاوية محدودة موحدة، وأن تكون النفس التى تتحدث عن الهجرة وعن أبطال المعارك وعن سياحة الجندول فى عرض القنال نفسا متآلفة لامنقسمة · فنحن لا نستطيع أن نتحمل شاعرا يلبس لكل حالة لبوسها ، ويتخير لكل موضوع زاوية الرؤية التى تنسجم معه ، والتى تنسجم مع الذوق العام لجماهير الناس حين يعرضون له · وهكذا كان على محمود طه الى حد كبير · فهو اذا تحدث عن الصبوة والشيب هبط فى الفكر رغم علو الصياغة ليقول :

وقيل كفته عن دنيـــا شـــوارده
بيضـــاء من شـــعرات الراس غراء
لا ، يا غرامى ، وهذا الفن ملء دمى
بالنار والصـــبوات الحمر مشــاء
ما افلتت من يد غيـــداء عاصـــية
الا وعادت اليهـــا وهى ســـمحاء

ويقول فى رثائه لصديقه الشاعر محمد الهمشرى :

لم ياحيـــاة ، وقد احـــلك قلبـــه
لـــم تؤثريه هو المحب الشـــاكر
اخليت منـــه يديك حـــين حـــلاهما
من ذلك الأدب الرفيـــع البـــاهر

لو عاش زادك من غـــرائب فنـــه

ما لا يشـــبه حســـنه بنظـــائر

ويقول فى قصيدة بعنوان « حديث قبلة » ويفجؤنا بهذه السطحية الشديدة فى الاحساس ، رغم جودة الصياغة وحسن انتقاء الكلمات :

تســـائلنى حـــلوة المبســـم	مـــتى أنت قبلتنى فى فمـــى
تحـــدثت عنى ، وعن قبـــلة	فيـــا لك من كـــاذب ملهم
فقلت اعابثها ، بل نســـيت	وفى الثغر كانت ، وفى المعصم
فان تنكريهـــا ، فمـــا حيلتى	وها هى ذى شـــعلة فى دمى
ســـلى شـــفتيك ، بما حستاه	من شـــفتى شـــاعر مغـرم
الم تغمضى عنـــدها ناظـــريك	وبالراحتـــين ، الم تحتمى
هبى انهـــا نعمـــة نلتهـــا	ومن غير قصـــد ، فلا تندمى
فان شـــئت ارجعتهـــا ثانيـــا	مضـــاعفة للفـــم المنعـم
فقـــالت ، وغضـــت بأهدابها	اذا كان حقـــا فـلا تحجم
ساغمض عينى كى لا أراك	ومـــا فى صـــنيعك من مائم
كانـــك فى الحـــلم قبلتنى	فقلت : وافديك ان تحـــلمى

وقد يكون هذا الاتساع فى العالم الشعرى مع تنافر زوايا الرؤية ، وهذا الحرص على الدنو من تصور عامة الناس للأشياء ورؤيتهم لها ، هما الميراث الشعرى الذى ورثه على طه من تراثنا القديم ، فصورة الشاعر المجيد فى تراثنا القديم هى صورة القائل

الفصيح الذى يستطيع النظم فى شتى فنون القول ، دون أن يخضع بحاجة نفسية الى التعبير عن غرض ما من الأغراض . فهو يمدح ويرثى ويتغزل ويصف ويطلق الحكم بنفس الدرجة من الاتقان ، وهو لا يحاسب الا على اتقانه . وعلى قدرته على الاندماج فى الموروث التقليدى للغرض الذى يكتب فيه . كما كانت صورة الشاعر المجيد فى تراثنا القديم هى صورة القائل الفصيح الذى يعبر عما فى نفوس الناس لا عما فى نفسه وذاته ، ويستطيع أن يصوغ خلجاتهم لا خلجاته ، بحيث يجد المستمع بداهة ماكان يفكر فيه نابضة فى كلمات الشاعر .

فهل نستطيع اذن أن نقول ان على محمود طه شاعر سلفى تقليدى ؟ لا أظننا نستطيع أن نذهب الى هذا المدى ، فهو بلا شك شاعر يعيش فى عصره . وما أظن نصيب السلفية فيه اكبر من هذا القدر الذى أشرت اليه .

ولكن .. مامدى حياة على محمود طه فى عصره ؟

الواقع أن قياس حياة الشاعر فى عصره أمر عسير ، ولو طرحنا للمقارنة شاعرين كشوقى وأبى العلاء المعرى لنرى مدى حياة كل منهما فى عصره لكشفت لنا المقارنة عن أن ابا العلاء المعرى كان أكثر حياة فى عصره من شوقى ، فرغم أننا نجد فى شوقى متابعة دؤوبة لأحداث العصر وشخصياته ، ونلتقط من شعره أسماء أعلام العصر وأمرائه وسادته ونابهيه ، ورغم أننا لا نكاد نجد شيئا من ذلك قط فى شعر أبى العلاء ، فان شعر أبى العلاء المعرى يقدم لنا النبض الحضارى لأرض الشام فى القرن الحادى عشر باكثر مما يقدم لنا شوقى النبض الحضارى لأرض مصر فى القرن العشرين ، فهل يكون الفرق بينهما أن احدهما عاش فى عصره ،بينما عاش الآخر مع

عصره ، وأن أحدهما اندمج فيه ، بينما أشرف الآخر عليه من عل يرى ويسمع ويتأمل ؟

هنا لابد من الالحاح على لون من وحدانية الشاعر ، فالشاعر فى مراحل التأمل والاحساس والابداع ليس جزءا من العالم ، ولكنه معادل له ، وهو لا يفنى فيه ولكنه يقف ازاءه ، وهو يستطيع عندئذ أن يحقق فرديته بل وحدانيته • وتلك درجة لم يستطعها الا القليلون •

لا يعنى ذلك قط أن يصرف الشاعر تأمله وانفعاله عن عصره ، وأن يثوى فى عالم وهمى غير محدد فذلك فضلا عن استحالته ، لا يصنع شاعرا قط ، ولكنه يعنى أن تكون للشاعر الرؤية النافذة المتمعنة ، ثم القدرة بعد ذلك على اعادة تركيب الرؤى والاحساسات، بحيث لا يقع تعبيره فى دائرة العادى والمبتذل ، وبحيث يكشف شعره لقارئه ، لا الجانب المألوف من التجربة الانسانية ،بل جانبا آخر جديداً كان مستكنا فى أغوار الانسان أو أغوار العصر حتى جلاه لنا هذا الشاعر •

وأظن ذلك كله يستدعى أن يكون للشاعر وجهة نظر عامة فى مشكلات الكون الكبرى ، أو بتعبير عصرى أن تكون للشاعر فلسفة ، ولا نعنى بالفلسفة هنا أن يكون الشاعر فيلسوفا أو قارىء فلسفة ، بل أن يكون له تصور خاص للكون تصنعه ثقافته وقراءته وتجاربه ووراثته ومزاجه ،*واذا كان لكل انسان فلسفة بهذا المعنى* ، وكان لكل شاعر فلسفته أيضا ، فان بعض الشعراء يهربون من أنفسهم ومن فلسفتهم حرصا على أن تتسع دائرة جهمورهم ، وأن يحتفظ شعرهم بصفائه الساذج الذى يستطيع أن يتوجه الى الجماهير الساذجة • فيكون فى ذلك دمارهم •• « الشهرة العامة هى الدمار العام» كلمة رائعة من كلمات الشاعر ريلكه •

على الشاعر أن تكون علاقته بنفسه أكثر وثوقا وحميمية من علاقته بالعالم ، حتى يستطيع أن يعيش ازاء عصره ، لا فيه ٠

- ٣ -

مراحـــــــــل :

يسأل كل شاعر نفسه فى مطلع حياته الشعرية ، ماذا يريد أن يقول بشعره ، وما دور الشاعر فى هذه الحياة ؟ ٠ وكثيرا ماتتشابه أمامه السبل ٠ فما أكثر طرق الشعر ، وبخاصة فى أدب كأدبنا العربى طويل العمر ،حافل بالنماذج من الشعراء ٠ منهم من أفنى عمره تجويدا للصنعة ، ومنهم من أفنى عمره تصيدا للالهام ٠ ومنهم من عد الشعر لونا من البراعة ، ومن عده لونا من العناء ٠

وكثيرا ما تتوقف على اجابة الشاعر عن هذا السؤال أشياء كثيرة ، قد يكون من بينها : ماذا يقرأ الشاعر وماذا يدع ، وماذا يحب وماذا يكره ، بلكيف يسلك فى الناس ، وما يكون مظهره ، وأى قناع يرتديه (ولكل انسان قناعه) ؟ ٠

ويحدث أحيانا أن تتغير الاجابة عن هذا السؤال من مرحلة الى مرحلة فى حياة الشاعر ، فهو سؤال دائب الالحاح والطرح اذا وهب الشاعر نفسا لا تألف السكون وتكثر التأمل فىشأن ذاتها وشأن الحياة من حولها ٠

وقد كان جواب على محمود طه عن هذاالسؤال فى أول حياته الأدبية واضحا فى قصيدته الفخمة « الله والشاعر » ، اذ يقول :

لا تفـــزعى يا ارض ، لا تفـــرقى

من شـــــبح تحت الدجى عـــابر

مـــا هـــو الا آدمى شـــــقى

ســـــموه بين النـــاس بالشـــاعر

ثم يقول :

انا الذى قدســـــــت احـــــزانه

الشـــــاعر الشـــاكى شقاء البشر

فجـــرت بالرحمـــــــة الحـــانه

فامـــــلا بها يارب قلب القــــــدر

ما الشــــاعر الفنـــان فى كونه

الا يـــد الرحمـــــة مـــن ربـــه

معـــــزى العــــــالم فى حـــزنه

وحــــــامل الآلام عن قلبــــــه

كانت هذه النظرة الرومانتيكية هى جواب الشاعر الأول ، ومنها انطلق على محمود طه فى ديوانه « الملاح التائه » وبها كاشف الناس بشعره ، وقدم لهم صوتا رومانتيكيا ينبع من الجو العام الذى ساد الشرق العربى فى عشريناته وثلاثيناته ، بتأثير التغير الذى أصاب الحياة العـــربية ، اذ وجدت نفس الظروف التى نشـــأت منهـــا الرومانتيكية الأوروبية من هجرة للمدن وبدايات للتعليم العام الذى تنمو معه الفردية ، واتساع للطبقة المتوسطة ، وتفكير فى التصنيع

أو تحقيق لبعضه · كما وجدت نفس الظواهر الروحية من حملة على العقل وايثار للخيال ·

ومن الحق أن معظم مظاهر التعبير عن الرومانتيكية فى بلادنا العربية كانت أصداء للرومانتيكية الأوروبية ، فالمنفلوطى مثلا الذى أبكى كل قلب مع « ماجدولين » من بغداد الى تطوان كما قال أحد النقاد كان معربا صائغا لبعض الآثار الأوروبية ، وأبو شـــادى وناجى وابو شبكة كانوا شديدى التأثر بما قرأوه فى أدب الغرب ، والزيات المنشىء والبلاغى وصـــديق على طه كان مترجمـــا لبعض آثار الرومانتيكيين الأوروبيين ، وهو الذى قرأ على طه بعض مترجماته وهو الذى حضه على تعلم الفرنسية ·

ولكن هذا التأثر لا يستطيع أن ينفى أن البيئة العربية كانت ممهدة للموجة الرومانتيكية ، وأن هذه الموجة لذلك كان عنصـــر الأصالة فيها واضحا ، فاذا كانت قد بدأت تقليدا فقد استطاعت أن تكون بعد فترة وجيزة اتجاها رئيسيا ، بل استطاعت أن تكون هى الاتجاه الرئيسى فى أدبنا العربى فى تلك الفترة ·

وعلى طه لم يكن رائدا لهذا الاتجاه ، ولكنه كان أكثر شعرائه صقلا ، وكأنه أحس بغريزته الاجتماعية أن هذا الاتجاه هو اتجاه المرحلة · ومن هنا فان ديوانه « الملاح التائه » دون دواوينه اللاحقة، صورة من أروع صور الاتجاه الرومانسى ·

ففى قصيدة مثل قصيدة « النشيد » نستطيع أن نلمس أصداء من ليالى دى موسيه التى ترجمت الى العربية فى وقت مبكر ، ولكننا لا نخطىء أصالتها الرومانتيكية · وفى قصيدة « الأمسية الحزينة » ·· يقدم لنا صورة حياته قائلا :

آوى الى جنبات الصــخر منفـردا

أبكى لأمســية مــرت وليــلات

قد غيرتنا الليــالى بعدها ســيرا

وخلفتنــا العـوادى بعض أشتات

* * *

يا طــول ما نغمت للصــخر أناتى

وشــد ما رجعت للموت آهــاتى

يا للبحــيرة من يرتاد شــاطئها

ومن يسـر الى الوادى منــاجاتى

ومن يعيــد لنــا أطيــاف ليلتهــا

وما غنمنــا عليهــا من أويقــات

وحــلوة فى حفــافيها وقد عبثت

يد الصــبا بحواشــيها الموشــاة

يضــمنا باســق فى الشــط منفرد

ضــم الشــتيتين فى عليــاء جنات

وللقــلوب أحــاديث يجاوبهــا

تنــاوح الطــير فى ظـل الخميلات

وحين يحدثنا عن البحيرة فى المقطع الذى أوردته لا نملك إلا أن نذكر بحيرة « لامرتين » ، لا تعسفا ، فنحن نعرف أن الشاعر كان

جارا لبحيرة المنزلة احدى بحيرات دلتا مصر ، ولكن فرق بين أن يجاور انسان بحيرة من البحيرات ، وأن يجعل منها عشا لغرامه وموطنا لذكراه ٠

وما اكثر الأوصاف التى تطالعنا فى قصيدة مثل « صــــخرة الملتقى » والتى لا تكون الا نموذج الشاعر الرومانتيكى ، فهو :

٠٠٠ الغـــريب فى تيه النا (ـ) ئى كئيب الفؤاد والنظرات

٠٠٠٠٠٠

صحراء الحياة ، كم همت فيها شارد الفكر تائه الخطـوات
ظللتنى الحياة منفرد النفـ س ابث المحيط حر شكاتى
انا فوق المحيط كالطائر التـا ئه يعلو موائج الملحمـــات

٠٠٠٠٠٠

انا ذاك الشادى الذى تسلتويـ ش جناحيه هبـة العاصفـات
انا ذاك الشريد فى صحراء الـ ـعيش ضل السبيل فى الفلوات
انا قيثارة جفتهـــا الليالى فى زوايا النسيان والغفلات

ويصور الشاعر نفسه فى قصيدة من «رمال المصيف » فيقول ٠

اذا أقبـــل الليــــل ياحــــيرتى
تفقـــدت فى الشـــــط حـــوريتى
وعــــدت كئيبـــا الى غــرفتى
اراعى الـكواكب من شـــرفتى

واشـــعل بالوجـــد ســـيجارتى

فلا البـــدر حبب لى ســـــهرتى

ولا البحـــــر هـــدا مـــن ثورتى

وحيـــدا تســـــــامرنى فـــكرتى

هذه الصورة الشـــخصية جديرة بأن تستوقفنا ، فلو كانت بالريشة واللون لوجدنا فيها نموذجا للشاعر الرومانتيكى ٠

ولننظر فى قصيدة « انتظار » هذا اللقاء العاطفى الرومانتيكى، اذ يلتقى المحبان فيظلهما الصمت الرهيب ، ويظلان صامتين حتى تحين ساعة الوداع ، فيتوادعان وقد امسك كل منهما يد صاحبه ، والدمع ينهمر من عيونهما :

اقبلت بالبســـــمات تملا خـاطرى

ســـحرا ، واملا من جمـالك ناظرى

واظلنا الصـــمت الرهيب ونحن فى

شـــك من الدنيا وحلم ســـــاحر

حتى اذا حان الرحيـــل هتفت بى

فوقفت واســـتبقت خطاك نواظرى

وصـــــرخت بالليل المودع باكيـــا

ويداك تمســـــك بى وانت مغادرى

وصدر ديوان « الملاح التائه » عام ١٩٣٤ ، وهذه هى الصورة التى يقدمها عن شاعره ، وهذه هى الصورة التى اختارها الشاعر لنفسه ، او الاجابة التى اجاب بها عن السؤال الذى خايله ٠

وبين الديوان الأول والثانى ست سنوات ، فقد صدر ديوانه الثانى « ليالى الملاح التائه » فى عام ١٩٤٠ ، بعد سياحة الشاعر القصيرة لعامين متواليين فى صيف أوروبا • ولقاء الشرقى بأوروبا أحد المحـــاور الهامة فى أدبنا العربى الحـــديث ، فهو الذى أنتج « أوديب » لطه حسين ، و « سندباد عصرى » لحسين فوزى ، و«قنديل أم هاشم » ليحيى حقى و « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، وغيرها من أعمال هامة فى أدبنا الحديث •

لقاء الشرقى بأوروبا تجربة قد تعصف بالشرقى فتفقده مواطىء قدميه ، وقد تفتح عينيه على رؤية جديدة لواقعه ، وقد تعيده الى بلاده أشد ايغالا فى تقديس سلفه وعبادة أجداده •

وأوربا فيها أوجه لكثيرة:فيها الثقافة والحضارة ، وفيها الموسيقى والفن . وفيها الرســم والتصـــوير ، وفيها التقدم الصـــناعى والتكنولوجى ، وفيها جمال الطبيعة ، وفيها أخيراً سهولة العلاقات بين الرجل والمرأة •

ومن سوء الحظ أن على محمود طه حين زار أوروبا عام ١٩٣٨ لم يكد يفطن الى أن هذه السنة كانت سنة تجمع نذر الحرب العالمية الثانية ، وقمة النزاع بين المذاهب والآراء ، ولم يعرف من أوروبا الا مناظر بحيرة كومو وزورق الجندول فى عرض البحر ، وخمر الراين المعتقة ، وهبنا تسامحنا فى أنه لا يعرف صـــراع الفلسفات والآراء ، فهل نتسامح فى أن يجهل صراع المذاهب الفنية بين السيريالية والواقعية والرمزية ، وأن لا يلتمس أسماء كانت فى ذلك الوقت تطوف باوروبا شرقا وغربا مثل فرويد وبيكاسو وبرجسون وشو وغيرهم •

لعل مما قاد علي محمد طه الى هذا المزلق في مواجهته لأوروبا

انه لم يتلق فى صباه ومطالع شبابه تعليما منظما ، فهو ينظر الى الأدب والأدباء كظواهر منفردة لا تيـــارات حضـــارية وفكرية لها اصولها وامتداداتها فى تربة المجتمع وفى عروق السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ • ولعله اختار فى تعبيره عن أوروبا دور السائح المتلذذ بما يراه ، اجابة أخرى لنفسه عن دور الشاعر ،فما الشاعر الا معبر عن الحسن ، وليس حسن أشد اغراء بالتعبير من حسن النساء وجمال الطبيعة •

ولعل مما قاده أيضا الى هذا المزلق الخطر انه انتقل اثر صدور ديوانه الى طبقة اجتماعية وجيهة تتكون من كبار محررى الصحف ، وبعض السياسيين المحترفين ، وهذه الطبقة المنعزلة بطبعها ضيقة الثقافة ، مؤثرة لتسطيح الأمور ، شديدة الولع بالثرثرة عن النساء والخمر والمتعة • فكأنه كان يستجيب لما تراه تلك الطبقة وتطلبه فى شاعرها وفنانها •

وقد كان من شأن هذه النغمة التى امتلأ بها ديوان « ليالى الملاح التائه » أن تفتح للشاعر طريقا الى قلب عامة القراء ، ولا غرو فهو يستجيب لخيالهم المكبوت فى تصوره للعلاقات الســـائبة بين الرجل والمرأة ، ويوازى فى تلبية غرائزهم لونا من احلام اليقظة الجنسية التى كثيرا ما تخايل النفوس المراهقة مهما يختلف عمرها ، مادامت قد ثبتت فى وعيها عند حدود المراهقة •

ونحن لا نستطيع أن نعترض أن يتخذ شاعر من اللذة موضوعا له ، ولكن وصف اللذة وحدها لا يكفى ، كما أن وصف الألم وحده لا يكفى ، بل ينبغى أن يضاف اليهما لون من التعمق ونفوذ النظرة ، بحيث تصبح اللذة فلسفة ومذهبا فى الحياة •

وديوان « ليالى الملاح التائه » يستطيع فى بعض قصائده أن

يتجاوز مجرد الوصف الى ابتداع وجهة النظر ٠٠ ولكن ذلك قليل فيه ٠

ومن الغريب أن الشاعر فى هذا الديوان قد غير صـــورته الشخصية من صورة الشاعر الرومانتيكى التى سبق أن رســـمها لنفسه فىديوان « الملاح التائه » الى صورة الشاعر ذى الصبوات والمعاشق أو الشاعر المفلوت :

ويـــك ! لا تنظـــرى الى قـــدحى
نظـــرات الغـــريب واقـــتربى
شـــــفتاك النديتـــــان بـــه
فيهمـــــا روح ذلك الحبب
شـــهد المنتشـــى بخمـــــرهما
أن هـــذا الرحيـــق مـــن عنبى

***

رب ليـــــل مر افنيناه ضـــما وعنـــــاقا
وأدرنا من حـــديث الحب خمرا نتســـاقى
فى طريق ضـــرب الزهر حواليه نطـــــاقا
وتجلى البدر فيه ، وصـــــفا الجو وراقـــا

***

قلت لى والحيـــاء يصـــبغ خديك :
انار تمشـــــى بهـــا أم دمـــــاء
ملء عينيـــك يافتى الشـــرق احلام
ســـــكارى وصـــبوة واشــــــتهاء

وعلى ثغـرك المشـوق ابتسـام

ضـرجته الأشـواق والأهـواء

او حقـا دنيـاك زهر وخمـر

وغـوان فـواتن وضـناء

قلت : يا فتنة الصـبا حفلت دنيـا

ك بالحب والمنى والأغـانى

ما اثارت حـرارة الجسـد المشتا

ق الا مـرارة الحـرمان

ان أجسـادنا معابر أروا ح الى كل رائع فنـان

انا أهوى روحية العالم المنظور لكن بالجسم والوجدان

هذه الصورة هى الصورة التى ارتضاها الشاعر لنفسه ، حتى قضى آخر أيامه ، وازدادت عنده وضوحا وجلاء كلما ازداد ترحيب دائرة أصحابه وقرائه بها حتى وصلت عنده الى مرحلة الزهو المسرف بقدرته على العشق وبتعدد معاشقه ، كما فى قصيدة « اعتراف » فى ديوان « زهر وخمر » ٠

ولكن شيئا آخر كان يخايل الشاعر ، وبخاصة بعد أن ارتبط بالسياسة ، وأصبح قريبا من الوفد ، وهو أن يكون شاعر مصر الأول كما كان شوقى ابان حياته ، يرثى كبراءها ويسجل احداثها ، ويناجى احلامها على المستوى السياسى ٠

وفى هذا المجال كتب على طه كثيرا من قصائده ، لعل اجدرها بالبقاء قصائده عن فلسطين ٠

لقد مات الشـــاعر الرومانتيكى فى عام ١٩٣٨ ليحل محله الشاعر المتعشق الذى يكتب فى بعض الأحيان عن اهتمامات الجماهير السياسية ، وكلا الدورين متكامل ينبع من وجهة نظر واحدة ٠٠ فالشاعر يريد أن يكون فى وسط الحياة العامة ، قريبا من اهتمام الناس ٠ ولابد عندئذ من اللعب على الأوتار التى ترضيهم وتقترب من فكرهم ووجدانهم ٠

وأخيرا ، لقد أثرت كثيرا من الأسئلة أو هى فى الحق سؤال يلد سؤالا لينشق عن سؤال جديد ، فهل وفقت فى الجواب عنها ؟

ذلك لك ، أيها القارىء ٠

مقدمة من ديوان على محمود طه

« قصائد مختارة » ـ بيروت ـ ١٩٦٩

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

كان الطريق من حماة الى حلب لا يمر بقرية معرة النعمان فأبت نفسى أن أكون على مقربة من سيد من سادات الفن ولا أهرع الى رؤيته ، فأشاروا على بطريق آخر · وتحملنا تراب الطريق وقلقه حتى شارفنا القرية ، وسألنا أحد القرويين :

أين قبر أبى العلاء المعرى ؟

وترجم القروى الغريب السؤال الى قروى آخر ، آنس فيه انتسابا الى القرية فقال له أين مقام سيدى أبى العلاء المعرى ؟

وكان أبا العلاء ولى من أولياء الله ··

وقلت فى سريرتى ·· نعم ·· سيدى ·· ورضى الله عنه أيضا

وانشرح صدرى حين رأيت القبر خاشعا متواضعا كصاحبه ·· شاهد من الحجر الكالح يعلو مصطبة ذات درجتين ·· قالت لى زوجتى : ماأشد تواضع هذا القبر ··

قلت : كأنه شاهد حياة صاحبه لا شاهد موته فحسب ٠٠ وخيرا فعلوا حين تركوا هذا القبر على حاله ، فأغلب ظنى أن أبا العلاء كان سيغضب أشد الغضب لو بنوا له قبرا باذخا ، وربما قلقل الحجر بكتفيه الناحلتين ، ونقض أحجار القبر وهو يلهث ٠ فان الحياة لم تعرف رجلا كره مظاهرها وألقى بها وأمجادها وشاراتها مثله ولقد حدثنا لنسمع ، فقال :

دعيت أبـــا العـــــلاء ، وذاك بين

ولو نصـــــــفوا دعيت أبا النزول

وقال هذا البيت الذائع الفريد

ولو كنت ملقى بظهــر الطـــــريق

لم يلتقط مثـــلى اللاقط

ولكن هانحن بعد ألف سنة أو يزيد نفتش فى تراثنا فلا نكاد تلتقط أذواقنا العصرية الا أبا العـــلاء ، اذ نجده معبرا عن نبض الحياة فى نفسه وفى مجتمعه ٠٠ ثم هانحن نرفعه للعالم لكى نقول لهم : هذا هو شاعرنا الحكيم الذى وعى دور الفن ، وحمل أمانة الكلمة ، ووفى بحق الموهبة ٠ وهاهى الدراسات حوله تكاد تبعثه معاصرا لنا ، يعايشنا ، ويتحدث عنا وباسمنا ٠٠

وقضينا حق الزيارة سراعا ، لم نثقل على رب البيت ، حيث يزعم الرواة أن ابراهيم أبا الانبياء حلب فيها بقرته الشهباء ، فسميت المدينة الجميلة (حلب الشهباء) ٠٠ وفى حديقة حلب وجدنا تمثالا لابى فراس الحمدانى نقش تحته بيته المشهور :

ونحن اناس لا توســـــط بيننـــــا

لنا الصـــــدر دون العـــالمين أو القبر

نعم ·· ياأبا فراس ·· لنا الصدر دون العالمين أو القبر ·· ما أشبه الليلة بالبارحة ·· العرب والروم ، ونحن وروم العـــــالم الجديد ، والدعوة قائمة للاختيار بين الصدر أو القبر ··

اللهم الهمنا ان نحسن الاختيار !

الاخبـــار ١٩٦٩/٦/٢٧

شـــاعر الصـــبر الجميـــل

بدر شاكر السياب

ذات خميس حزين ، في أواخر عام ١٩٦٤ ، صـعدت روح الشاعر الى بارئها ، خالصة متخلصة من عناء عمرقصير مرير ، وحمل جسده من مستشفاه بالكويت الى قريته فى جنواب العراق ، وكم كان الجسد خفيفا على اعناق حامليه ، وقد امتص الداء الطويل ريانه ليتركه نضوا لا يستطيع حراكا، حتى تحركت به الأكف التى قلبته بين مودع ومكفن ومهيىء للقاء الله ..

واضيف اسم بدر السياب الى أسماء الشعراء الذين اخترمهم الموت في مطلع الشباب أو أوجه ، جون كيتس ، وابى تمام ، اللذين أحبهما وتركا فى شعره بعض الأثر ، وآخرين غيرهما مثل الشابى ، والهمشرى ، ولوتريامون ورامبو ، وبوشكين ، ولرمنتوف ، وبروك ، وبايرون ، وشللى منهم من أخذه اليه البحر أو أصيب بقذيفة فى حرب او بطعنة سيف في مبارزة غرام ، ومنهم من أخذه داء الشعراء وذوى الحساسية ، فتهدم صدره انقاضا اذ عربدت فيه رياح السل . ومنهم من آثر أن يقلب بيده صفحة حياته بعد أن خط فى نهـايتها كلمة الختام .

كانت اقامة بدر شاكر السياب فى المستشفى الكويتى خمسة اشهر قبل موته انتظارا للموت ، فقد كان الاطباء فى حواضر الطب كلندن وباريس قد رأوا نهايته الوشيكة ، ورآها هو فى رقدته بأحد مستشفيات العراق اذ مست القروح جسده من طول رقدته ، وتعرت عظامه وعموده الفقرى ، حتى أصبح النوم أشد ألما من اليقظة ، وتخايلت لعينيه ذكرى المعذب القديم « أيوب » صاحب المصير الجميل على طويل البلاء :

قالوا لأيوب « جفاك الاله ! »

فقال : « لا يجفو

من شد بالايمان لا قبضتاه

ترخى ، ولا أجفانه تغفو »

قالوا له : والداء من ذا رماه

فى جسمك الواهى ، ومن ثبته ؟ »

قال : هو التكفير عما جناه

قابيل ، والشارى سدى جلته

سيهزم الداء : غدا اغفو

ثم تفيق العين من غفوة

فأسحب الساق الى خلوة

اسأل فيها الله أن يعفو

ولكن الايام مضت ، ولم تبرأ القروح ، بل اصبحت جراحا ناغرة فاغرة . وبحثت الحكومة فى أوراقها فوجدت أن مرض الموظف

بالموانى بدر شاكر السياب قد طال ، فمنعت عنه نصف راتبه ، وربما زاحمه مرضى جدد على سريره،فآثر خلصاؤه أن ينتقل الىمستشفى الكويت الأميرى ·حيث العلاج بالمجان ، زالاسرة لايزاحم عليها أحد ،وهناك ظل فى رقدته خمسة اشهر كسيح الســـاقين مهترىء الظهر ·· متفجر الشعر ، صارخا يطلب من الله رصاصة الرحمة التى تنقذه من آلامه :

اليس يكفى ايها الاله

ان الفناء غاية الحياه

فتصبغ الحياة بالقتام

تحيلنى ــ بلا ردى ــ حطام

سفينة كسيرة تطفو على المياه

هات الردى ، اريد أن انام

بين قبور اهلى المبعثره

وراء ليل المقبره

رصاصة الرحمة ·· يا اله !

وانطلقت رصاصة الرحمة فاخترقت حياته فى الرابع والعشرين من ديسمبر ، يوم عيد من أعياد المسيح الذى أحبه ، وامطرت السماء فى ذلك اليوم فى الكويت ، وهم يصلون على جسده صلاة العصر فى مسجد السيف ، وكان المطر خامس المشـــيعين للجنازة ، فقد كان وراءها صديقان له وعابر السبيل ··

تلكأ نعى السياب ثلاثة ايام حتى وصل القاهرة ، وفى مساء

الأحد السابع والعشرين من ديسمبر كنا صحبة من الأصدقاء فى مجمع شعر ، حين جاءنى من يهمس فى أذنى ينعى السياب ، وتوقفت عن الحديث أو الانشاد ـ لا أذكر ـ لأنعى الى شباب الشعراء أحد روادهم وأحبابهم على البعد ، وكان صمت مفعم ، ثم اجهاش بالبكاء، وحين خلوت الى نفسى تذكرت ماكان بين السياب وبينى ·· نقاش طويل ، ولقاء قصير ··

يتحدث الدكتور احسان عباس فى كتابه « بدر شاكر السياب » عن النقاش بين السياب وبينى ، على صفحات مجلة الآداب فى أوائل عام ١٩٥٦ ،وقد أصابنى فى هذا النقاش كثير من غضب السياب .
وكان السياب سريع الغضب ، حريصا ـ وله الحق ـ أن تنسب اليه ريادة الحركة الشعرية الجديدة ، فلا ينازعه فيها منازع ، وهو قد تصور من نقد للمرحوم رئيف خورى أنه يضعنى فى مكان أحجبه عنه ، فتصدى لرئيف ولى ، وأذكر أننى قلت فى الرد عليه اننى رغم هذه الخصومة الطارئة مازلت أحب شعره وأقرؤه ، وأغلق باب النقاش حتى التقيت بالسياب فى أواخر أغسطس عام ١٩٥٨ ببغداد وكنت موفدا من احدى الدور الصحفية فى القاهرة لمتابعة ثورة العراق بعد أربعين يوما من انطلاقها ، وهناك تكرم الاخوة الأدباء بلقائى ومؤانستى ، حتى أوشكت أن أنسى مهمتى الصحفية ، وكان من تلك المؤانسة لقاء فى رابطة أدبية رأيت فيه بدر شاكر السياب ·

كان بدر فى تلك الفترة مازال صحيح البدن ، ولكن العين لا تملك الا أن ترى فى ثنايا هذا الجسم الناحل المتحفز قدرا متواضعا بل بالغ التواضع من الصحة ، وكان بدر فى ذلك اللقاء سمحا رقيق الحاشية ، فلم نذكر الخصومة أو نتعاتب فيها ، بل أسمعنى وأسمع الحاضرين فى تلك الليلة قصيدته عن بورسعيد عام ١٩٥٦ ، فاذا انفض السامر وخلا المجلس للأوداء أخذنا بأطراف الأحاديث الهنية

الرقيقة المجاملة ، ولما قلت له ان فى أحد مقاطع قصيدته عن بورسعيد أصداء من بائية أبى تمام الشهيرة ، تقبل القول راضيا :

هاويك أعلى من الطاغوت فانتصبى
ما نل غير الصغار للنار ، والخشب
ان الحديد الذى صـــنت الحياة به
غير الحـــديد الذى وافاك بالعطب
والخير فى بندقيـــات قذائفهـــا
حتف المغيرين ، والميـــلاد فى قضب

وعدت من العراق بعد هذه الزورة القصيرة ، ومرت الأيام وأنا أسمع أخبار بدر السياب مصطبغة بأخبار السياسة ، فأعرف أن الحكم العراقى القاسمى قد فصله من عمله ثم زج به فى السجن ، ثم أعاده بعد زمن الى عمل آخر ، وأن مواقفه السياسية يحسبها بعض الناس له، وبعضهم عليه ، ثم تمر الأيام لاسمع أخباره مصطبغة بأخبار المرض ، حتى أصبح شعره هو دليل مرضه ومؤرخه ، وخلص هذا الشعر من ظلال الانشغال بالسـياسة والقضـــايا العامة على اختلافها ، ليصبح سجلا لآلام جسده الهاوى نحو الموت ، وروحه المتطلعة الى السماء ..

● من نقيض الى نقيض ●

شغل بدر نقاده فى حياته بتغير مواقفه السياسية من نقيض الى نقيض ، فقد بدأها فى صفوف الشيوعيين ، ثم مالبث أن عاداهم أبلغ عداء وأوجعه ،ومال الى صفوف القوميين ، حتى اذا التقى

بمجلة « شـــعر » اللبنانية ومحـــرريها انخرط فى صفهم ، وتبنى مفاهيمهم الشعرية والسياسية التى هى أكثر قربا الى الغرب منها الى الشـــرق ٠

ولا أظن ذلك النوع من الاهتمام الا مرحلة عابرة تقتضـــيها المعاصرة ، ولكن الشعر لا يكتب لجيله أو زمانه ، وكثيرا ما تتغير الظروف والأحوال والاسماء ، ويبقى الشعر ، فقد بقى شعر أبى الطيب المتنبى ، وأصبح سيف الدولة فى تاريخ الأدب هامشا على قصائده ، لا يرجح للقصيدة فضلا أو يسلبها جمالا ، فان الفن أكثر حياة وثباتا من تقلبات السياسية وتغيرات الأيام ،ولسنا حين نتحدث عن شاعر بمنتوين أن نكتب تاريخ الدول والملوك ، ولكننا نكتب تاريخ الأدب ٠

ان للتجربة الشعرية لكل شاعر نضجها الباطنى ، فحين يبدأ الشاعر طريق الشعر ، تتكون لديه على مدى أيام تجربته صـــورة متلمسة للشعر ، نستطيع أن نسميها مثالا ٠ ان شعره الذى يكتبه هو « الوجود » أما ما يطمح الى تحقيقه فهو «الماهية » اذا جاز لنا أن نستعمل هذين المصطلحين الفلسفيين ٠ والشـــاعر يجهد جهدا منفصلا لكى يصل الى هذا المثال أو يقترب من تلك الماهية ٠ ولـــو مضينا مع بعض علماء النفس الذين يرون أن لكل انسان قناعا يلبسه ليواجه به الناس ، والذين يجدون فى الاشتقاق اللغوى معينا لهم اذ تعنى كلمة « برسونا » فى اللاتينية معنيين هما الشخص والقناع ، لو مضينا مع هذه البادرة لوجدنا مدخلا آخر الى قضية الشعر والشاعر يناقض المدخل الأول ويكمله أيضا ، فالشاعر حين يحس فى بداية حياته بأنه مؤهل لطريق الشعر ، ما تلبث أن تتكون فى نفسه صورة للشاعر العظيم أو الشاعر المثالى ، أو لنقل شاعر هذه المرحلة من العصر والأوان ، وهذه الصورة رغم انها صورة عقلية

مفترضة متجمعة العناصر من عديد من المصادر الا أن الشـــاعر يستطيع أن يضم ملامحها المختلفة فى وجه واحد ، يصنع منه قناعا ، ثم مايلبث أن يضع على وجهه هذا القناع الذى هو شخصه الجديد ٠

وقد كان قناع الشاعر الرومانسى هو قناع الغارق فى الخيال والنشوة ، اللاهى عما فى هذا الكون من صغائر أمور الحياة المادية، الباهت الملامح كالشهيد على وشك تجرع كأسه الأخيرة ، وكان قناع الشاعر الواقعى هو قناع المكافح اليقظ ، المنتمى الى قضيته ، البالغ الاحساس بجسامة مسئوليته عن تغيير الحياة لا تفسيرها ٠

تلك ملامح عامة للاقنعة التى اختارها من ينتمون الى مدرستين شعريتين واسعتين ، ولكن لا شك أن هناك خلافا بين أبناء المدرسة الواحدة ، فقد اختلف قناع شللى عن قناع وردزورث ، كما اختلف قناع بريخت عن قناع أراجون ٠ وكان تصور كل منهم لماهية الشعر يختلف عن تصور رفيقه فى مدرسته الشعرية ٠

وقد كان السياب أكثر معاصريه فطنة فى تصوره لماهية الشعر، واشدهم اخلاصا للقناع الذى اختاره فلقد وهب الســـياب حسا تاريخيا بهذه المرحلة التى يجتازها شعرنا العربى ، مشاركا فيها سواء من أوجه الحياة العربية الحديثة فى طموحه وطموحها الى التجدد والتوفيق بين الاصالة والمعاصرة أو بين الموروث والمستفاد ٠ فقد بدأ السياب حياته كشاعر ينتمى الى المدرسة الرومانسية العربية، وكان صوته فى معظم الأحيان يختلط بصـــوت على محمود طه ، وبخاصة فى دواوين على محمود طه الأولى عندما كان يعبر عن صورة الشاعر الرومانتيكى فى قصائده التى يتحدث فيها عن ضياع الشاعر وحيرته بين البشر ، وجلسته الكئيبة وقد مضى الليل ، أوفى قصائده التى يتحدث فيها عن هواه الأول بين الزروع على شط النهر، وذلك قبل أن ينشر على محمود طه شراع رحلته أو رحلاته الأوروبية،

ويتخذ لنفسه قناع شاعر الصبوات العارمة والغرام العصرى المتسيب يقول السياب فى عام ١٩٤٧ :

اشاهدت ياغاب رقص الضياء على قطرة بين اهدابها
ترى اهى تبكى بدمع السماء اساها واحزان اتربها
ولكنها كل نور الحقول ودفء الشذى بين اعشابها
وافراح كل العصافير فيها وكل الفراشات فى غابها

* * *

وذاك الخصام الذى لو يفدى لفديت ساعاته بالوئام
افديه من اجل يوم ترف يد فيه أو لفتة بالسلام
ومن اجل عينين لا تستطيعا ن ان تنظرا دون ظل ابتسام
تذوب له قسوة فى الاسا رير كالصحو ينحل عنه الغمام

ان تاريخ هذه القصيدة هو أوائل عام ١٩٤٧ ، وقبلها بسنوات أرسل بدر شاكر السياب من بغداد مخطوطة شعره الى على محمود طه ليقدم لها ، ويعوق الوقت ثم الموت على محمود طه عن كتابة المقدمة .

كان السياب فى ذلك العام فى أواخر دراسته الجامعية ، وقد قرأ بعضا من الشعر الانجليزى الحديث ،وراقه ما فيه من خصوبة فكرية تهيىء لها هذه المرونة فى أوزانه وقوافيه ، فطمحت نفسه الى تجديد الشعر العربى ، بل واعد نفسه لهذا الدور ، وكان هذا الدور هو قناعه الجديد :

ويكتب بدر قصيدته « هل كان حبا » ممهدا لرؤيته الجديدة لموسيقى الشعر :

هل تسمين الذى القى هياما

أم جنونا بالامانى . أم غراما

ما يكون الحب نوحا وابتساما

آم خفوق الأضلع الحرى اذا حان التلاقى

بين عينيا فاطرقت فرارا باشتياقى

عن سماء ليس تسقينى اذا ما

جئتها مستسقيا الا اواما

* * *

العيون الحور ، لو اصبحن ظلا فى شرابى

جفت الاقداح فى أيدى صحابى

دون أن يحظين حتى بالحباب

هيئى يا كاس من حافاتك السكرى مكانا

تتلاقى فيه يوما شفتانا

فى خفوق والتهاب

وابتعاد شاع فى آفاقه ظل التراب

تلك كانت هى البداية ، التى خطت للشعراء المحدثين معالم من

هذا الطريق ، ولكن طموح بدر للريادة كان هو سر تفوقه وتقصيره معا • فقد خرج بدر عن ساحة الشعراء الغنائيين الى ساحة جديدة يهيئها له نهجه الجديد ، وابتدأ ذلك التجاوز بملمحين أساسيين أولهما : القصيدة الطويلة . فالقارىء للأدب الأوروبى لابد أن تفاجئه هذه المطولات ذات العنصر القصصى ، وقد شرع بدر فى محاذاتها بقصائده «حفار القبور » و « المومس العمياء » و « الاسلحة والأطفال » •

والآن وقد مر الزمان على قصائد بدر الطويلة ، واحتلت مكانها فى ذاكرة الشعر العربى الحديث فاننا نستطيع أن نقول أن فى ثناياها مقاطع ناجحة تصويرا وصياغة ، ولكنها لم توفق الى خلق القصة الشعرية العربية • وثانيهما : هو الاهتمام بالاساطير والموروث التاريخى كزاد للتعبير الشعرى يستمد منه الشاعر صوره وخياله ، وقد كان عالم الاساطير عند بدر غنيا واسعا الغنى ، ولكن الرأى الذى نرتئيه أنه أبهظ تجربته الشعرية دون أن يثريها ، فحينما يقول مثلا :

المومس الأجيرة الحقيره

اكثر من حبيبتي سخاء

اتيتها مساء

معانقا اعانق الهواء

مقبلا عيونها الخواء

كأنني « كيشوت » في الأصيل

يركض خلف ظله الطويل

ويطعن السنابل الكسيرة

يظنها الاعداء

صممت منها جثة بيضاء

* * *

عندما نقرأ هذه الأبيات نجد أن هذا الاســـتطراد عن دون كيشوت قد ابهظ القصيدة دون أن يثريها ·

ولكن هذا لا ينفى أن بدرا قد وفق فى بعض الأحيان فى خلق مثل الالتئام بين المادة التاريخية والشعر كما يتبدى فى قصائده التى استغل فيها عنصر « التموزية » او عناصر حياة المسيح كما فى قصيدته الرائعة « المسيح بعد الصلب » ··

ولقد عاد بدر الى طبيعته الغنائية حين اســـتبد به المرض ، ونفض يديه من هموم السياسة أو هموم الريادة ، فعاد لنا منه صوت غنى بالغ الرنة والجمال ولكنه لم يعش ـ وا أسفاه ـ حتى يحقق كل ما أراده لشعره وللشعر العربى ، وان بقى لنا منه ديوان من أخلد واصدق ما عرفه عصرنا الحديث من روائع الكلم ··

الهـلال يـنـاير ١٩٧٢

اصــوات شــعرية جديدة

يلتفون حول التجربة الشعرية الجديدة الآن ٠٠ حول اغصانها بعد أن عسر عليهم اقتلاع جذورها ، بالقول المردد المكرور أن هذه الحركة قد تجمدت ولم تعد قادرة على العطاء ٠٠

ولكن الواقع الشعرى المنساب كما تنساب أيام الحياة وفصولها يفاجئنا كل يوم بأصوات جديدة وصادقة ٠٠ جديدة فى صياغاتها ومقدرتها على الاقتراب من الحقيقة الشعرية ، وصادقة فى تعبيرها عن ذاتها الخاصة ٠

ومن الحق أن بعض هذه الأصوات أو معظمها يتاثر بعض خطى رواد التجربة ، ولكن ذلك شأن ليس بالمستغرب ، فهو متواتر مشهود فى تاريخ كل الاتجاهات الأدبية والفنية ، وعندئذ قد يقاس الابداع بلمحة جديدة تضاف أو مكتسب جديد يتآلف مع المكتسبات القديمة لتصنع كلها هيكل الوجدان الجديد ٠

وأذكر أننا فتحنا من سنتين وبضعة شهور نافذة جديدة للشعر ـ فتحناها فصلا واحدا من فصول العام ـ ربيعا واحدا هو ربيع

١٩٧٢ ، واضطررنا أن نغلق هذه النافذة حين لفحتنا سموم هجير الصيف ··

وأذكر أننا أيضا تلقينا من نافذتنا تلك عشرات الرسائل الشذية بنفح الشعر ، الندية بمائه ودمعه ، المزوقة بخطوطه ونقوشه ، وحفظنا هذه الرسائل حين صكت رياح الصيف نافذتنا ، وهاأنذا أعود اليها ـ بعد حين ـ لأنشر بعضها ، لعلها تشفع لى فى التأكيد أن حركة الشعر الجديدة قادرة على أن تبدع فى كل يوم شعرا ·· وجديدا ·

وأبدأ بصوت لشاعر لقيته ولقينى فى تلك الآونة ، وأودعنى كراسة شعره ، وكنت قد قرأت له بعضه فى المجلة المذكورة بحسن الأثر وطيب الصيت «سنابل» ، وكنت قد أعجبت بهذا الصوت الجديد رغم تأثره بشاعر من شعرائنا المعروفين هوالشاعر محمد عفيفى مطر ، الا أنه بدا فى رأيى مجاوزا لعفيفى مطر فى تماسكه ومقدرته على بناء القصيدة · وما أظن ذلك القول يغضب عفيفى مطر ، فانى أعرف أن الآباء يحبون لأبنائهم اكثر مما يحبون لأنفسهم ·

هذا الشاعر هو محمد الشهاوى من كفر الشيخ ولست أدرى ما شأنه الآن ، ولكنى أرجو أن يكون شأنه خيرا كله ، وأن يكون صحيح الجسم والنفس ، فقد اشتكى لى فى ذلك الوقت علة بهما معا ··

أما الصوت الثانى فهو للشاعر حسن النجار ·كان ذلك الوقت مقاتلا ، وهو الآن يعمل بوزارة الصحة بطنطا ، ويرجو أن ينقل الى جهة ثقافية بالقاهرة · ويتخذ منها (القاهرة) منبرا لصوته · وانى لأحس فى حسن النجار شيئا منى · وأرجو أن يكون قد تجاوزنى منذ ذلك الحين ·

والصوت الثالث للشاعر رفعت سلام ، وقصيدته التى أوردها هنا تتحدث عن تجربة حب عصرية ٠٠ حب ينمو فى وجه القهر ، وقد كتبت هذه القصيدة قبل هبوب رياح الحرية على بلدنا الحبيب ٠

والصوت الرابع للشاعر حلمى سالم ٠٠ فيه نبرة رومانتيكية عذبة ما أسعده وأغناه بها اذا استطاع أن يحفظها على نفسه ، وأن يمنحها عمقا وأصالة باختبارات حياته وصورها ٠

وصوت خامس للشاعر حسام الدين الفوال ، ٠٠٠ لا أعرفه الا من خلال قصيدته هذه ، ولقد استمتعت بنفحها الصدق الرقيق ٠ وانى لأرجو أن أقرأ المزيد فأزداد به علما ٠٠ وأزداد عنه رضا ٠

وآخر الأصوات للشاعر محمد يوسف ، وهو صوت كنت أعرف صاحبه ، وأراه بين حين وآخر ٠٠ كان فيما أذكر طالبا مخضرما فى احدى كليات الجامعة ، وطامحا الى السفر الى بلاد الله ،ولعل الله أسكنه من بلاده حيث يحب ٠٠

وأخيرا ، فاننى لم أعرض فى هذا الأمر للطائفة التى استقرت قدمها فى أرض الشعر ٠ ولهم أصوات تبشر بغد زاهر ٠

الكتاب نوفمبر ١٩٧٤

البحث عن الزمن المفقود

وضع امامى الصديق على شلش قطعة دافئة من مطلع شبابى البعيد ، ثم تركها ومضى ، ليتركنى أنظر اليها واعيد النظر ، ثم اعود على سطورها الى زمنى المفقود ٠

كانت رسالة كتبها عام ١٩٤٩ الى **المرحوم أنور المعداوى** ٠٠

كان المرحوم أنور المعداوى عندئذ كاتب مجلة الرسالة التى يصدرها الزيات ، واجهز اصواتها بالنقد ، واكثر انفتاحا على العالم الأدبى الجديد ٠

وكان مجلسه المحبب فى ذلك المقهى البائد كما باد الزمان وبعض اهله ٠٠ مقهى محمد عبد الله فى ميدان الجيزة ٠٠ اصبح المقهى الآن جمعية استهلاكية فيما اظن ، وقامت فوقه بناية ضخمة ، ولا اظن جدران الجمعية الاستهلاكية قد عنيت بان تحفظ بعضها مما دار فى هذا المكان فى العهد البعيد من احاديث واسمار ، كان يلغط

بها كل مساء حفنة من مثقفى مصر • كان أكثرهم ولعا بالمكان والفة له هو المرحوم أنور المعداوى •

اما الزائرون العابرون فكانوا كثيرين •• ما شئت من أدباء شباب ذلك الزمان •

أما أنا ، فقد كنت طالبا بكلية الآداب ، أتذكرونى فى ذلك الوقت نحيلا كثيف الشارب ، مقطب الوجه ،فاذا عرض لى ما أمزح به أو يمزح به الرفاق كنت عالى الضحكة مجلجل القعقعة ، كانما كان ضحكى ينتقم لى من حساسيتى ورقة حالى •

وكان أنور المعداوى مستمعا ومشجعا الى ولسواى من شباب الأدب (أو بالأحرى صبية الأدب) ، وخطر لى خاطر •• لماذا لا ينشر لى بعضا من قصائدى فى مجلة الرسالة ؟

كان النشر فى مجلة الرسالة عندئذ مجدا لا يعلوه مجد •• فان الكاتب عندئذ ليختصر ثلاثة أرباع طريقه الى ذاكرة قراء الأدب ، وأنه لجدير عندئذ بأن ينعم بلقب الأديب حقا حلالا طيبا ، ان لم يفض عليه محررو الرسالة لقب « الأستاذ » فضلا منهم وكرما •

ولكن أصدقائى يعلمون بى حياء وتوجسا من طلب خير لنفسى، فأنا لذلك لا أستطيع أن أخاطب أنور المعداوى بمطمحى وأنا أواجهه فى المقهى •• فلأجلس اذن فى غرفتى ، ولأدون له رسالة •

وجلست ، وكتبت :

سيدى العزيز الأستاذ أنور

تحية لشخصك أولا ، ولذلك الجميل الذى تدين به الشعر فى مقالاتك الممتعة عن المرحوم على محمود طه ثانيا ، وبعد

مع هذا الخطاب قصيدة لى بعنوان « انعتاق » ، وأرجو أن تجد لها مجالا بين مواد الرسالة الغراء ٠

ذلك لو راقت لكم ووجدتموها جديرة بذلك ، ولولا اعتكافى فى البيت من العصر خشية البرد على صدرى الواهن لأتيتكم بها ونلت معها متعة الجلوس اليكم وأرجو أن تهيأ لى الفرصة قريبا جدا لزيارتكم والاستمتاع بحديثكم القيم الشيق ٠

وتفضل بقبول تحياتى ،،

المخلص

صلاح الدين عبد الصبور

هذه الرسالة هى القطعة الدافئة التى ألقاها الصديق على شلش بين يدى ، وقد استخرجها ليطلعنى عليها من بين عشرات أو مئات الرسائل المتبادلة بين المرحوم أنور المعداوى وبين بعض أهل زمانه ، وهى رسائل قدمنى على شلش اليها ، فذنبى اذن على جنبى كما يقولون ٠٠

فلقد زارنى منذ أسابيع فنان شاب هو الفنان شاكر المعداوى ، وأنبأنى أنه ابن أخ للمرحوم أنور ، وتكرم باهدائى قطعة من فنه الجميل أعتز بتعليقها فى غرفة مكتبى ، وقادنا الحديث عن أيام أنور

الأخيرة فى بيت أخيه والد الفنان الشاب الى الحديث عن ذخر يحتفظ به الفنان ، هو خطابات أنور ومذكراته الشخصية ٠

لقد خرج أنور المعداوى من الدنيا كما خرج منها ابو العلاء المعرى ٠٠ لا زوجة ولا ولد ٠٠ وفارقها فى ريعان شبابه اذا كان المعرى قد تمهل فيها وتلبث حتى جاوز الثمانين ٠ ولذلك فقد سكن الفنان شاكر المعداوى بيت عمه حين جاء الى القاهرة ، وعاش بين أوراقه ٠

وسألت نفسى عن أحق الناس بأن توضع أوراق أنور المعداوى بين يديه ، فاذا باسمين يفدان لذهنى ٠٠ الصديقان رجاء النقاش وعلى شلش ، اذا كان كلاهما صديقا صدوقا له ، متتلمذا عليه فى ذلك الزمن البعيد ، وكان على شلش هو أول من التقيت به منهما ، فوصلت بينه وبين أوراق أنور ٠

وأنا أعلم الآن أن على شلش يفكر فى بعث هذه الأوراق بعد استئذان أصحابها ، وربما حلا له أن يستعين بها فى دراسة نقدية أو عمل قصصى ٠ ولعله يرد بذلك بعض الدين الذى يدين به المرحوم أنور المعداوى الحياة الأدبية المصرية التى لم تعطه مايرجو وما يستحق ، فمضى عنها غاضبا حانقا ٠ ولعل فى ذلك عزاء لروحه الكريمة المعطاء ٠

ولكننى بعد هذا الاستطراد اريد ان اقف امام نفسى القديمة ، وتقودنى كل كلمة فى هذا الخطاب الى ذكرى ،كما تقود الصور فى الألبوم ٠

لقد التقى بى فى القاهرة قبل هذا الخطاب بعامين حين انهيت دراستى الثانوية ، كنت أريد أن أدرس الأدب وكانت اسرتى تصر على

ان ادرس الطب ، فالأطباء يكسبون مالا وعقارا بينما لا يكسب الأدباء الا فقرا اذا كان الفقر يكسب ، ولا يقتنون الاضياعا اذا كان الضياع يقتنى • وشققت عصا الطاعة ولزمت جانب الفتنة •• فتنة الأدب • ولو سئلت : من أسعد الناس ، لقلت اننى أسعدهم يوم دخلت كلية الآداب للمرة الأولى طالباً ، ولكن هذه السعادة مالبثت أن تحطمت فى الأسابيع الأولى ، فلقد كنت أظن أن حياتى فى هذا المكان ستكون للشعر وفى الشعر وعن الشعر ، فاذا بها تزدحم بكل ماعدا الشعر • فهذا درس النحو ، وهذا درس التاريخ ، وهذا درس مناهج الحديث وهذا درس الفلسفة ، اما الشعر فهو لايساق الا ليرجح مذهبا أو رايا فى النحو ، أو يرجح مذهبا أو رأيا فى تاريخ الأدب •

وخرجت من جدران الكلية لابحث عن الشعر فى الحياة •• واحببت هذه المدينة •• القاهرة •• كما لم يحبها احد ، وعرفتها كما لم يعرفها الا القليلون ، فقد كنت فى أرجائها حرا كالهواء •• صبيا فى السادسة عشرة ، يحمل فى كل ترحاله حقيبتين فى أولاهما ملبسه القليل وفى ثانيتهما كتبه القليلة ، وهو يمضى بهما فى ارجاء القاهرة من غرفة مفروشة الى اخرى شبه مفروشة ، يأكل قليلا وينام قليلا ، ويعيش كثيراً ••

وبعد عام وشهور كان موعدى مع المرض ••

كان ذلك فى شتاء (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) حين داهمنى السعال ووخزه الحاد • وقال الطبيب اننى مريض بما ســـماه (الالتهاب البلورى) واننى كنت على شفا ماهو أقسى وأفدح •

ولزمت الفراش شهرين واياما حتى سمح لى بمغادرته ، وفى هذه الرقدة الطويلة الصاحية الواعية سنحت لى الفرصة لأراجع نفسى واسألها عما تطلب من الحياة ، وحين انتهيت هذه المراجعة النزيهة كنت قد سننت لنفسى غاية من الحياة ، وقانونا أخلاقيا لها

قلت لنفسى ان الغاية من حياتى هى أن أكون شاعرا وكاتبا
وان قانونى الأخلاقى هو أن أكون صادقا ما وسعنى الصدق

وأن واجبى بعد ان أنهض هو أن امضى نحو هذه الغاية متوكئا على هذا القانون الأخلاقى ·

وقد ظللت عاما أو نحوه بعد أن نهضت من فراشى ملتزما بنصائح الطبيب الذهبية ·· لا أدخن ولا أخرج فى الليل ولا أجهد فى العمل أو القراءة حتى صدئت النصائح وذهب بريقها ، وهأنذا أعيش بعدها بربع قرن من الزمان أو يزيد كما يعيش الناس جميعا ·· عناء كثير ·· وهم وافر ·· وراحة يسيرة ·· وسعادة عابرة ·

وهأنذا قد استبدلت بالمرض أمراضا · استبدلت بهذا الوخز فى الصدر صداعا معاوداً وضغطا عالياً ومعدة متمردة ومزاجا عليلا ··

وأذكر القصيدة ·· « انعتاق » ··

ان النسخة المرسلة الى المرحوم أنور المعداوى ليست بخطى بل هى بخط جميل منسق ، وربما نسخها لى أحد زملائنا من ذوى الخطوط الحسنة بعد أن رجوته ذلك الرجاء . حتى لا تشتبه حروفها على الطابع (لكم كنت متفائلا بنشرها !) ، ولم يخطر ببالى عندئذ أننى سأجدها بين أوراق المرحوم أنور المعداوى بعد كل هذه السنين ·

وهأنذا أقرأ القصـــيدة ، وأعرف منها ماذا كنت اقرا فى تلك الأيام ·

أعرف أننى كنت اقرا مترجمات لطاغور لأننى اشهد آثاره فى

ختام القصيدة ولكننى اعرف أيضا أننى كنت أقرأ نفسى ، لأننى اشهد نبضها .

والآن ـ أيها القارىء .. اقرأ هذه القصيدة .. وسامحنى

انعتـــاق ...

لذة عندى ان اســـمع اعوال المقـــابر
ونعيب البومة الشـــأماء ما بين الحفائر
وصراخ النغم المأسور فى خرس المزاهر
وانين المشـــرق المخنوق فى كف الدياجر
واحتضار الظلة الخضراء فى قيظ اللهيب
الطمى ياريح أبواب القصور الشامخات
زمجرى فى هوة الوادى وفوق الراسخات
انت يادنيـــاى ديدان تنزت فى رفـــات
كل احلام بنى الدنيا خيـــال .. ترهات
فدعينى فوق اطـــلالك أشـــدو بالنعيب
خلفى الشمس باستار الدجون الكاســـفة
وابعثى زعزعك القصـــاف مثل العاصفة
واذا ما هدهد الليل القـــلوب الخـــائفة
بعثرى الأحلامصرعى فى السمومالجارفة
ودعى ايامهم تذوى باحضـــــان المغيب

بسيول الشؤم سيلى ٠٠ اغرقى الكون بأسره

فانا فى لذة النقمة لا أعنى بأمــره ٠٠

اكثرى اغلال أسره ٠ اهصرى أعواد عمر

اوثقى نور ضحاه واخنقى اطياف فجره

واتركينى فوق ربواتك اشــــدو للخطوب

عابد فى رعشــــة الملهوف قد هز المنابر

وبكاء من جحيم الغيب قد ادمى المحاجر

وعلى كفيه أقداس وطهر وبشـــائر ٠٠

لا تبقيه فلو يستطع عربد ٠٠ هو داعر ٠٠

ونفاق دينه والطهر فى الصـــدر ذنوب

وعذراى قد لففن الجسم فى الثوب الطويل

وتلفعن حياء فى ضـــباب المســـتحيل

واذا ما عربد الليل باعناق النخيل ٠٠

ســــخر اللهب الأحمر بالطهر القتيــــل

ويكاد الليل يغضي من خنـــاهن المريب

نشر الصمت جناحيه على الوادى الكئيب٠

وسجا الريح سريعا وانا وحدى غريب

لا اخ دان يواســـــينى ولا خل حبيب

اتلقى بدموعى صـــولة اليوم العصيب

شاركوا القلب شبابه وتولوا فى المشيب

اى شط ذاك قد هلل للسفن الشـــريد ؟

اى نور ذاك يختال على الأفق البعيد ‥ ؟

هل ترك تبسم لى الآمال فى يوم سعيد ؟

امسراب ماارى!! لهفى على عمرى الفقيد

شـــردت احـــلامه منى كنبع فى كثيب

لطم المجداف وجه الموج فى وقع رتيب

وسرى الزورق لهفان الى الشط الغريب

ما أرى؟ يالهفتا ! النور والروض الرطيب

والضفاف الخضر سكرى بين حضـــان السهوب

والشذى المعطار ‧ والانسام والكون الرهيب

وطرقت الباب ابكى فاذا بالباب مقفـــل

واناديى لم اجد الا صدى صوتى المبلل

ورنا من كوة الباب شعاع : ‥ وتحول

فتهالكت على الأعتاب ابكى ‥ ثم اعول

لهفتا لا نظرة عجلى ولا صـــوت مجيب

رب ما اغلقت فى وجهك يابى لم تغلق ؟

حزن فى كل غرب ‥ لهفة فى كل مشرق

حطم المجداف كفى ·· والثرى قيد معوق
فاذا ما لم تكن قلبا لمقلبى ·· انا مغرق

رب أعتابك قد ادمت شـــفاهى والجنوب

رب لم اشـــقيتنى وانا ابن المشـــيئة
طاهر لم اجن اثما لا ولم اقرب خطيئة
ســـامق بالفن والأحلام عن دنيا وبيئة
قانع بالكسرة العفراء·والكاس الوضيئة
وبسماتك من فجر حياتى ·· هى زادى والنصيب

الكاتب ابريـل ١٩٧٥

الحلاج وشاعر أمريكى

تلقيت منذ شهر تقريبا بطاقة بريدية مرسلة من القاهرة عليها توقيع « هربرت ماسون » ، يقول مرسلها انه شاعر أمريكى عرف عنوانى من صديقى الدكتور خليل سمعان الأستاذ بجامعة نيويورك ، والسورى الأصل ، ومترجم مسرحيتى « مأساة الحلاج » الى الانجليزية ، وقد نشرت الترجمة فى دار بريل للنشر بليدن بهولندا منذ سنتين أو ثلاث ٠

ويقول السيد ماسون أيضا انه يزور القاهرة وينزل فى فندق النيل ، وأن معه بضعة مطبوعات قد تعنينى ، وأنه اتصل بى تليفونيا فاذا بتليفونى عاطل (كالعادة) ٠

وأدرت تليفون مكتبى ، واتصلت بفندق النيل سائلا عن هربرت ماسون ،واذا بعاملة الفندق تقول لى انه سافر منذ عشر أيام ، وأدرت البطاقة لأنظر خاتم البريد الموضح لتاريخ ارسالها ، واذا بها قد أرسلت منذ خمسة عشر يوما ، قضتها فى الانتقال من فندق النيل على كورنيش النيل الى هيئة الكتاب على كورنيش النيل !

وابتلعت غصتى وسكت ، حتى حمل الى الدكتور عادل سليمان من الجامعة الأمريكية بالقاهرة مظروفا مغلقا من الدكتور محمد النويهى ، وانبانى أن الدكتور النويهى حاول جهده الاتصال بى ، ولكن التليفون (كالعادة أيضا) لم يسعفه ، وحين عرف أن الدكتور عادل يقصد زيارتى حمله هذا المظروف ٠

وفتحت المظروف ، فاذا بداخله ملحق لمجلة الشعر الأمريكية ، فى صفحته الأولى عنوان هو « وفاة الحلاج ، حكاية مسرحية » واذا بمؤلف هذه الحكاية هو الشاعر الذى بحث عنى فى تليفونات القاهرة وبريدها الضائع ٠٠ هربرت ماسون ٠٠

واذا بالشاعر ماسون قد كتب لى أهداء رقيقا على هذا الملحق « الى صلاح عبد الصبور ٠٠ مع أحر التمنيات الأخوية لصحبتنا فى روح الحلاج » ٠

وعرفت من المقدمة التى كتبها هربرت ماسون لمسرحيته أن علاقته بالحلاج قديمة ، فهو يحدثنا أنه التقى بماسينيون فى باريس عام ١٩٥٨٠وانه حصل على منحة لترجمة مجلداتماسينيون الثلاثة «عذاب الحلاج» فى عام ١٩٦٨ ، وفى أثناء هذه الترجمة خطرت له فكرة كتابة هذه المسرحية ، وكان قد سبق له أن كتب مسرحية عن جلجامش » من قبل ٠

ومضيت فى قراءة المسرحية ، ولاشك أن هربرت ماسون اتبع سبيلا غير سبيلى ، فمسرحيته كما يقول هو نفسه فى المقدمة هى حكاية شعرية ، تنتمى الى عالم القراءة ، وقد قدمها فى جامعتى هارفرد وبوسطن فى مســـرح تجريدى بأربعة من الممثلين كان هو خامسهم مع بعض الأصوات والأضواء المسرحية المحدودة ٠٠ فهى كما يقول أقرب انتماء الى حواريات أفلاطون ٠

ولكنى مع ذلك أعجبت بهذا العمل الفنى جملة ، وزاد اعجابى بكثير من مقاطعه ، وأنى لأرجو أن يقتنع أحد زملائنا بترجمته • فبنفسى ضيق من الترجمة كلما عانيتها • ولولا ذلك الضيق لنقلته الى القارىء العربى ، ففيه رؤية غربية معاصرة لاحدى شخصيات تراثنا العربى •

الكتـاب سـبتمبر ١٩٧٥

كازانتزاكس

وبدأ عرض فيلم « زوربا » ، وألقينا باللب الأسمر والأبيض من أيدينا ، وبدأت لقاءنا مع الصديق القديم ، واستمتعت كما أحببت بالمشهدين الرائعين ، وبالأداء الثلاثى المعجز لأنتونى كوين وآلان بيتس وايرين باباس ، وأخيرا بموسيقى تيودراكس ٠

وحين خرجت من الفيلم كنت أعاهد نفسى صامتا أن أعود مرة ثانية لجولة قد تستغرق ليالى قادمة من عمرى . وعمر هذا الصيف اللافح فى أدب كازانتزاكس ٠

لقد انعقدت الصلة بين أدب كازانتزاكس وبينى منذ أمد غير قريب ، وعرفته شاعرا قبل أن أعرفه روائيا ، ولقد قادنى الى قراءة ما استطعت قراءته من الأدب اليونانى الحديث ، ففاجأتنى سـيرة معجزة تجدد هذا الأدب بعد مئات من سنوات الركود منذ انهارت دولة بيزنطة ، ووقع الأروام المحدثون تحت سـيطرة الامبراطورية العثمانية حتى انتفضت اليونان الحديثة فى أوائل القرن الماضى ٠ وتمردت على محاولات قمع ميلادها الجديد مستعينة فى ذلك بأوروبا الأرثوذكسية على وجه الخصوص ، وبأوروبا المسيحية بعامة ٠٠

لتؤازرها تلك القوى فى حربها التحررية ·وقد أستعانت الأمبراطورية العثمانية فى مواجهة هذا الحشد الأوروبى بأقوى جيش فى العالم القديم عندئذ ، وهو جيش مصر وهكذا اشتركت مصر فى حرب المورة وخسرت فيها أسطولها فى معركة نفارين البحرية ·

أيام تدور ، وأمتان قديمتان تتجددان وتطلبان استقلالهما وهما أقدم أمتين وحضـــارتين فى الوجود ، منحت أولاهما العالم حس الألوهية وعانقت الأرض فاســـتخرجت منها ثمارها ، وأبدعت فى الهندسة والعمارة والطب ما أعجز لاحقيها ، ومنحت ثانيتهما العالم حس الدراما والرغبة المتطلعة فى التفلسف والقاء الأسئلة المقلقة للفكر والضمير · ولكن ما أغرب مداخل السياسة ودهاليزها · فلقد قضت الظروف على هاتين الامتين أن يتحارب رجالهما ، رغم تشابه سعيهما نحو الميلاد الجديد للامة القديمة ·

هذا حديث من احاديث التاريخ · أما جانب الأدب والفكر فيه فهو أن هذه الأمة الناشئة قد واجهت كما واجهنا نحن فى محاولتنا لبناء شخصيتنا تيارين رئيسيين ، هما تيار الســـلفية الذى يرى العودة الى الماضى الزاهر أو استعادته · وتيار التغريب الذى ينكر عودة هذا الماضى ، ويرى اللحاق بأوروبا الغربية المتقدمة · وكان هذا الماضى الزاهر يتلخص فى ملمحين رئيسيين هما الحضـــارة الاغريقية بآلهتها ومسرحها وفلسفتها والحضارة البيزنطية بكنيستها الأرثوذكسية واباطرتها ومعمارها وقديسيها ، اى ما يعادل عندنا النزعتين الفرعونية والاسلامية ، أما أوروبا الغربية فى ذلك الوقت فهى فرنسا بنزعتها العقلية العلمانية ، وانجلترا بفلسفتها النفعية ، والمانيا الموزعة بين مطلق هيجل احيانا وبين مســـيحية لوثرية بلا ميتافيزيقا أحيانا أخرى ، حتى يبرز نيتشه خصما للمسيح فى الفكر الألمانى ··

وقد استطاعت العقلية اليونانية المحدثة أن توفق على مدى قرن من الزمان بين تراثها ومعاصرتها ، ويكون المثال على ذلك هو كتابها وشعراؤها الكبار كابيتاناكيس وســـفيرس وكازانتزاكس وكفافيس وغيرهم ٠

وقد عرفت شعر كازانتزاكيس حين قرأت فى الكتب المختصرة عن ملحمته « الأوديسا » التى يصل عدد أبياتها الى ثلاثة وثلاثين ألف بيت ٠ فهى ثلاثة أمثال أوديسا « هوميروس » ٠ وقد ألقت بها الصدف السعيدة بين يدى مترجمة الى الانجليزية ٠ وقدمتها للقارىء العربى فى مقالين نشرتهما بالأهرام فى عام ١٩٦٤ على ما أذكر ٠ وفى تلك الأثناء كان فيلم زوربا اليونانى قد قدم كازانتزاكيس للقارىء ثم ما لبثت أن نشرت ترجمة هذه الرواية ٠ ثم ترجم الأستاذ شوقى جلال حين كنت أحد المسئولين عن النشـــر بهيئة الكتاب روايته « المسيح يصلب من جديد » ٠ وترجم الأستاذ اسماعيل المهداوى ـ رد الله غربته ـ روايته « الأخوة الأعداء » وكنت قد عهدت أيضا للأستاذ شوقى جلال بترجمة رواية « فقير الله » وهى عن ســـيرة القديس فرانسيس الأسيسى ٠ ولكن ظروفا طارئة حالت دون أن يمضى الأستاذ شوقى جلال فى هذه الترجمة ٠

ولكن شعر الأديب للأسف لا يقدمه الى الجمهور الواسع ، بل ان رواياته أيضا تعجز عن ذلك الدور المثير الذى ينتفع به الأديب وجمهوره ، والسينما وحدها التى تستطيع ان تجعل من الأديب وأدبه شاغلا لعامة الناس ، وأن تذيع الاستمتاع بهذا الأدب والألفة له ٠

وقد قدمت السينما فيلمين عن روايتين لكازانتزاكس ، هما : « زوربا اليونانى » و « المسيح يعاد صلبه » ، وفى ظنى أن فيلم زوربا على جماله كان عاجزا عن الارتفاع الى سمت الرواية المكتوبة ، وأن

فيلم « المسيح يعاد صلبه » كان اكثر احكاما وتماسكا من الرواية المكتوبة ·

ففى رواية « زوربا » المكتوبة أبعاد كثيرة لم يستطع الفيلم بامكانياته السردية أن يسمو الى آفاقها ·· انها الأبعاد الثقافية والتحليلية فى الرواية · فبطل الرواية ليس مثقفا قارىء كتب دءوب فحسب ، ولكنه أيضا تائه بين الفلسفات والأفكار حتى يجد بغيته فى ظل الفلسفة البوذية التى تدعو الى الصفاء الفردى · والى الامتناع عن الفعل ، فهى اذن فلسفة تأملية صوفية هاربة من الحياة ، أو هى فلسفة تجاوزية ، تؤثر تجاوز الحياة بمعطياتها وصراعها وحقائقها النسبية طمعا فى الوصول الى الاثبات المطلق الذى هو فى الواقع نفى مطلق ·

ان حاكى الرواية الذى لا نعرفه منقسم من أول الرواية الى قسمين · فله صديق يظل شبحه يسيطر على الرواية طيلة صفحاتها ·· انه مثقف مثله خرج عن ثقافته أيضا ولكن الى العمل الوطنى والسياسى اذ يسافر الى شبه جزيرة القرم لكى ينقذ اليونانيين هناك من التشرد بعد أن طردتهم السلطات السوفيتية فى أعقاب الثورة ، ويعود بهم الى موطنهم الأم ·· هذا الصديق هو التوأم الروحى لحاكى الرواية ·· كلاهما يبحث عن خلاصه بالمعنى المسيحى للكلمة ·

هذا الصديق الذى لا نراه يمثل هو وحاكى الرواية المثقف ضلعا مثلث مفضل على ذاته ، أما « زوربا » الملىء بالحياة المقبل عليها فهو قاعدة المثلث الصلبة ·· انه لا يعرف المطلق ولكنه ينغمس فى النسبى ويعمقه حتى يجعل منه مطلق لحظته ·· فالمرأة العجوز صاحبة الفندق « مس هورنانس » ليست هى فينوس بجمالها المطلق ،

ولكنها رمة بالية أكل عليها جنود اربعة جيوش وشربوا ، ولكن زوربا وحده يســـتطيع بخياله الخلاق أن يجعل منها « فينوس » اللحظة ··

ان وسيلة الاستمتاع بالحياة هو أن نلقى بأنفسنا فيها ، لا أن نقف على شاطىء الخوف نتاملها من بعيد ، والادراك الوحيد للمطلق هو أن نعيش الحقائق النسبية حقيقة تلو حقيقة ، ثم يصنع حدسنا الملهم من هذه الحقائق النسبية حقيقة مطلقة ·· وليست هناك حقيقة مطلقة سوى أن نعيش حتى يأتينا الموت ··

وفى زوربا ·· الرواية يتبدى الاطار الفلسفى لأدب كازانتزاكس ·· فنحن نعرف من سيرة حياته أنه كان تلميذا للفيلسوف برجسون فى باريس فى أعقاب الحرب العالمية الأولى · وليست شـــخصية « زوربا » ·· الا تجسيدا حيا لمذهب برجسون فى «الطفرة الحيوية» ·· كما نعرف أن برجسون شديد التاثر بفلسفة « نيتشه » وبخاصة فى نظريته فى الدراما الاغريقية ·

يقول نيتشه ان الفن العظيم هو التوفيق بين الالهين الاغريقيين أبوللو اله التصميم والاحكام وملهم المعمار والشعر ، وديونيزيوس اله النشوة والرقص والصـــخب ·· ان الفن توفيق بين التصميم والالهام ·· بين العقل والجسد ·· وليس هذان الملمحان الا نبعين للشخصيتين الرئيستين فى « زوربا » ·

وثمة أمر آخر يستوقفنا فى هذه الرواية ·· فلن يفوتنا أن نرى تجسد المعنى الاغريقى للمعلم أو الرائد فى سبيل المعرفة ، هذا المعنى الذى عرفناه فى صلة افلاطون بسقراط ، وفى صلة ارسطو بافلاطون ·· فالرواية تفتتح بهذا الشاب المتعلم يقف من زوربا موقف الأستاذ الناصح ، ولكن الحظوظ والأمكنة سرعان ما تتغاير وتتضاد ، فاذا

بالمعلم متعلم ، واذا بالمتعلم معلم · وكأن ذلك نوع من البناء الدرامى الأرسطى الذى حدثنا عنه أرسطو فى كتابه « الشعر » حين تجعل تصـــاريف الحياة ودورتها أو « البريتيا » بالمصـــطلح الاغريقى من السعيد والشقى لعبتين فى يد القدر يتبادل كل منهما مكانه مع الآخر ، فى ختام الرواية دلالة على هوان السعادة والشقاء معا أمام سطوة الزمان ·

ان السؤال المحلق على صفحات الرواية هو :

من الأحق بأن يدعى معلما ورائدا ، أو شيخا واصلا كما يقول الصوفية المسلمون ؟

أهو ذلك الذى أحب الحياة والأرض والبشر · وجرب كل شىء وترك كل شىء يجربه ؟

والسؤال أيضا بلغة الاغريق الأقدمين :

هل نعيش فى حياتنا عاقلين حكماء على شرعة الاله «أبوللو» ، أم نعيش بين مجاذيب الاله ديونيزيوس ؟

هل خلقنا لنرتعد على قمم الفكر الباردة ، أم لنرتعش فى أعماق النشوة الملتهبة ؟

الكاتب سبتمبر ١٩٧٥

شاعر وثــلاث نساء ..
ت.س . اليوت

يصح مع اختلاف الزمان والمكان أن يقال عن الشاعر الانجليزى ت . س . اليوت ما قيل عن أبى الطيب المتنبى ، فلقد ملأ كلاهما الدنيا وشغل الناس . ورأى فى حياته موكب صيته يطوف من أرض الى أرض .

فمما يروى من سيرة المتنبى أن أحد أمراء زمانه فجع بوفاة أحد أقربائه ، فجاءته مئات الرقاع من أنحاء المــــالك العـــربية الاسلامية ، وقد بدأت جميعها ببيت من مأثور المتنبى :

طوى الجـــزيرة حتى جــاءنى خبر

فــزعت فيه بآمـــالى الى الـــكذب

أما اليوت فقد ترك أثره على شعر الانجليزية ، وهى أشيع اللغات فى زماننا ، وترك أثره أيضا على شعر سواها من اللغات حتى لقد فوجئت حين التقيت فى أحد المؤتمرات بشـــاعر يابانى ، يحدثنى عن أثر اليوت على الشعر اليابانى .

ولكن المقارنة الفنية بينهما لا تمضى خطوة ابعد فى مجال المقارنة بينهما اذا نظرنا فى سلوكهما الاجتماعى ، فما أقل ما نعرفه عن حياة المتنبى الخاصة ، وما أشـــد ولع المتنبى على غير عادة الشعراء بالجد فى الأمور ، وكذلك كان اليوت ٠

لقد عاش اليوت حياة طويلة مقتصدة فى لهوها وبريقها وكانت له هيئة احد ابناء الطبقة الوسطى وسمته ، وكان حرصه الغالب الا يذاع شىء من اسرار نفسه وخباياها حتى انه أوصـــى ارملته الا تكشف لأحد عن شىء من خطاباته أو مسوداته ، والا تقضى لأحد من كتاب التراجم بعد وفاته بما عرفته عنه من خصال أو عهدته فيه من مسلك أوفعل ٠

* * *

ولقد كان لاليوت نظراته أو ان شئت نظريته النقدية ، شأنه فى ذلك شأن كثير من كبار الشعراء ٠ وقد نستطيع أن نوجز أحد ملامحها فى تأكيده على العلاقة بين القصيدة وشاعرها ٠ فالقصيدة الجيدة عمل يخفى فيه الشاعر نفسه لايكشفها ، ومن ثم فان بحث الناقد عن الملامح النفسية للشاعر فى قصيدته هو بحث خائب متصيد للسوانح التى لا تثبت أمام البصر النقدى ٠ والشاعر الحق عنده هو من يخفى عواطفه الخاصة وراء ستار من الموضوعية ، ولعله فى ذلك يريد أن يجعل من درس الشعر درسا لمادة الشعر وصوره قبل أن يكون درسا لتاريخ الأدب او لعلم النفس المرضى ، وأن يصحح مسار مدرسة النقاد الاجتماعيين فى ولعها بتقييم الشعر حســـب دلالته الاجتماعية ، ثم المدرســـة النفســية فى اقبالها على تلمس العوارض النفسية فى سير الشعراء وحيواتهم واتخاذها مدخلا الى فهم الشاعر وتقييمه ٠

ولكن النقاد وكتاب التراجم لا يريحون ولا يستريحون ، فقد أزعج أحدهم مرقد اليوت حين أزمع كتابة ترجمة لحياته ، يجمع فيها أشتات المعلومات ممن عاصروه ، ويتتبع فيها مسار حياته الخاصة ، من مرابع طفولته ، ومعاهد شبابه ، ورفاق كهولته وشـــيخوخته ، وفزعت أرملة اليوت الشابة التى تزوجها وهو فى السبعين بعد أن ظلت سكرتيرة له أعواما طوال ، وحاولت أن تثنى الناشر والمترجم كلاهما عن عزمهما ، فلما يئست من ذلك كتمت عنهما كل ما عرفته عن الشاعر الذى عاشت فى ظله ، ثم آوت الى جانبه سنوات طوال ٠

ومن غريب المصـــادفات أن يكون اسم المترجم أيضا توماس ســـتيرتز مثل اسم اليوت الأول والثانى ، ولكن الاسم الثالث هو ماتيوز ، ولعله قصد الى ذلك التلميح حين سمى كتابه « توم العظيم » فكأنه يشير الى أن توم المترجم الذى لم تسبغ عليه الحياة عظمة أو مجدا يكتب عن سميه الذى حظى بكل ذلك المجد والتقدير ، وقد شفع المؤلف عنوانه الأصلى بعنوان فرعى هو « ملاحظات نحو تعريف ت ٠ س ٠ اليوت » وذلك تلميح أيضا الى عنوان أحد كتب اليوت الهامة ، وهو « ملاحظات نحو تعريف الثقافة » ٠

فهل زادنا الكتاب معرفة باليوت حين سعى الى تعريفه كما تعرف المجردات ، فتكتسب بالتعريف تعيينا وتحديدا ؟



صورة اليوت فى هذا الكتاب صورة رجل وحيد متبتل فى حب فنه ، ينمو فى ظلال الكتب اكثر مما ينمو فى وهج الحياة ٠٠ انه من أسرة أمريكية عالية القدر ، وثيقة الاتصال بالثقافة ، وقد دفعت به هذه الأرومة الى أكثر جامعات أمريكا شهرة ، وهى جامعة هارفارد ٠

وهناك كان من اساتذته حفنة من الأعلام منهم ثلاثة كان لهم شأن بعيد فى الفلسفة هم وليم جيمس ، وجورج سانتيانا ، وأستاذ آخر كان يكبره ببضعة أعوام هو برتراند راسل • قال اليوت عن راسل ـ الأستاذ الشاب المهاجر من انجلترا ـ حين كان يطلب عليه العلم فى هارفارد :

ان عقله فى الطبقة الأولى من العقول ، وكان جديرا بأن يعد كذلك حتى فى عصر النهضة •

وقال اليوت عنه بعد أن توثقت بينهما الصحبة فى انجلترا حين لاذ بها اليوت ، وعاد اليها راسل :

« انها لكارثة عامة أن السيد برتراند راسل لم يحظ بدراسة منظمة » •

ما الذى جعل اليوت يغير رأيه فى راسل ؟

لذلك حديث طويل ، وهو ثمرة دأب كاتب الترجمة لجمع أشتات المعرفة عن حياة اليوت •

فلقد هاجر اليوت الى انجلترا ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره عام ١٩١٤ ، وتزوج فيها من سيدة تدعى فيفيان ، وفى انجلترا اشتغل حين وصوله بالتعليم فى لندن حيث التقى بالصدفة ذات مساء فى شارع أوكسفورد بأستاذه القديم فى هارفارد برتراند راسل الذى كان قد عاد الى موطنه من سفرته الأمريكية •

جدد الاثنان الأستاذ والتلميذ عهد المودة ، وقدم الأستاذ تلميذه الى زهرة مثقفى لندن مثل ليونارد وولف وزوجته الكاتبة فرجينيا وولف ، والكاتبة كترين مانسفيلد ، والدوس هكسلى وكلاى بل وليتون ستراتشى •

ودعا راسل الزوجين توماس اليوت وفيفيان للاقامة معه فى شقته اللندنية ، وراسل بالمناسبة ينحدر من أسرة انجليزية بالغة العراقة ، وقبل الزوجان دعوة الأرستقراطى الفيلسوف اللامع بشبابه وأستاذيته المبكرة • وكتب راسل الى صديقته الدائمة الليدى أوتولين مورل فى هذه الفترة عن السيد اليوت قائلا :

لقد توقعت أن تكون زوجة اليوت فظيعة ، ولكنى وجدتها غير سيئة • أنها خفيفة الظل ، سوقية نوعا ما ، مغامرة مليئة بالحياة •

* * *

وتمضى سياحة كاتب الترجمة فى خطابات راسل الى صديقته الدائمة حول اليوت وامراته ، فنجده يكتب أيضا الى صديقته الدائمة « انه لمن المضحك أن أجد نفسى محبا لاليوت وكأنه ابنى • لقد ازداد نضجا وهو يحب امراته حبا عميقا غير انانى • وهى أيضا تحبه ، ولكن نوبات من الكراهية تنتابها من وقت الى آخر • انها كراهية من الطراز الذى نجده فى روايات ديستويفسكى •• ليست مباشرة ، وأنا اصالحهما كل يوم ، ولا أستطيع أن أدعهما وحدهما فى المنزل ، وأنا بالطبع مستمتع بهذه اللعبة • انها من طراز الأشخاص الذين يعيشون على حافة سكين ، وستنتهى كمجرمة أو قديسة ولا ادرى أيهما ستختار ، فلديها ما يؤهلها لكلا المصيرين » ••

ويكتب راسل بعد ذلك فى خطاباته مشيرا الى تدهور حالة الزوجة الصحية ، ونوبات الصداع النصفى التى تعاودها ، وفى ذات احيان يجد اليوت نفسه فى بعض الأحيان زائرا غير مرغوب فيه اذا صحبته ، وذلك لما يثيره مزاجها النارى من توتر بين أصحابه ، ويجد كاتب الترجمة فى احدى يوميات صديق لهما من تلك الفترة حديثا حول الزوجين يقول فيه « انها تعطى انطباع الرعب المطلق ،

فكانها شخص رأى شبحا مخيفا ، ووجهها عادة شاحب ابيض خائف، وعيناها عادة غاضبتان .ولديها قدر من الحساسية الزائدة نحو لا شيء ، فاذا سألتها مثلا « هل لك فى مزيد من الفطائر » جاوبتك قائلـــة « ما هذا ؟ ومـــاذا تعنى ؟ ولمـاذا تقـول ذلـك ؟ ؟ » . لقد كانت فى لقائنا الأخير بها مخيفة حقا ، وفى نهاية الساعة كنت مرهقا للغاية وقلت لنفسى : أيها التعس توم لقد نلت ما يكفى ، ولكنها على كل حال كانت ملهمته » .

وهكذا يجمع دارسو اليوت أن زواجه الأول كان زواجا تعسا ، فقد تزوج هذا الرجل الهادىء المفكر بامرأة بالغة التوتر ، وهى أيضا مزهوة بحسنها تحاول أن ترى وقعه دائما على الرجال من صحبته .

ولقد هجر اليوت سكناه عند راسل بعد شهور ، وولدت بينهما جفوة هادئة استمرت مدى حياتهما ، فهل كان ثمة شىء بين راسل وزوجة اليوت ؟

ذلك سؤال يطرحه كاتب الترجمة ، ويمضى به الى ابعد من ذلك حين يشير الى سمعة راسل فى المجتمع اللندنى المثقف حين ذاك ، كأحد الشباب اللامعين المتعشقين .

***

كان لاليوت استاذان ظل قريبا اليهما والى ما تركا فى نفسه طيلة عمره ، وكان احدهما كتابا والثانى رجلا .

أما الكتاب فقد كان طائفة من الشعر الرمزى الفرنسى جمعها كاتب يدعى « آرثر سيمونز » وقرأها اليوت وهو يدرس فى هارفارد فى صباه الأول .

وقد كان الشعر المكتوب بالانجليزية يتنازعه عند ذاك مدرستان. اولاهما المدرسة الرومانسية كما ورثها ادباء الانجليز عن شعراء الرومانسية الثلاثة الكبار : شللى ، ووردزورث وبايرون ، فضلا عن براوننج ، وسوينبرن ، وفيتز جرالد وغيرهم ، وثانيتهما مدرسة ويتمان الشاعر الأمريكى الكبير فى نبرتها الخطابية وقربها من واقع الحياة اليومية ، وايمانها بقدرة الانسان على الفعل والتغيير ٠

ولقد قدمت الرمزية الفرنسية الى اليوت مفهوما آخر ، من خلال هذاالكتاب ، وقاده هذاالكتاب الى قراءة أعلام الشعر الرمزى الفرنسى مثل رامبو ، وجيل لافورج ، ولقد كان اليوت قبل قراءته للافورج حائرا بين الشعر والفلسفة ، فلما قرأه استقر عزمه على المضى فى طريق الشعر ، وكان عندئذ فى العشرين من عمره ٠

كتب اليوت فى تلك الفترة الى أحد أصدقائه يقول : « لقد جذبنى لافورج ، وانا بالمناسبة أول أمريكى قرأه ، والى الشعر ، وأظن أن نقطة انطلاقى ستكون هى لافورج ، والدراما الانجليزية فى عصر اليزابث » ٠

ذلك هو شأن الكتاب ، وأما الأستاذ الثانى فهو الشاعر الأمريكى المهاجر الى أوروبا عزرا باوند ، والذى التقى به اليوت فى لندن وباريس بعد هجرته هو الآخر الى أوروبا ٠

كان باوند واسع الثقافة الى حد مذهل ٠ قال عنه ويندهام لويس أحد كبار كتاب العصر : لقد ذرع شاطىء بحر ايجه مع سوفوكليس ورأى فلورنسا مع دانتى وكافالكانتى وبالاجمال فليس هناك مكان فى أرض الماضى لم يزره باوند ٠

وكان باوند أيضا انسانا كبيرا يسخو بماله وجهده على شباب

الأدباء ،ولقد قال همنجواى عنه « لقد تعلمت من باوند ما لم أتعلمه من كاتب قط ، ولقد كان عزرا أكرم من رأيت » ٠

وتوثقت الصلة بين اليوت وباوند ، والى باوند أهدى اليوت قصيدته التى تسنم بها ذروة الشهرة ، وهى الأرض الخراب ، فأجرى فيها قلمه ، وشطب ومحا ، ونقح وأصلح ، ثم أعادها الى اليوت فطبعها فى احدى المجلات ، ثم بعث بها مع قصائد أخرى الى الناشر المعروف ألفريد نويف ٠ وقال الناشر عندئذ لأحد أصحابه : « لقد قرأت مخطوطة أشعار السيد اليوت بمتعة فائقة ، ولكنى لا أعلم هل هى شعر جيد أم لا ، ولكن فيها قدرا من المتعة ٠٠ وسأطبعها » ٠٠

وهكذا صـــار اليوت أحد كبار شـــعراء العصـــر فى أوائل العشرينات من هذا القرن ، وهو فى حوالى الرابعة والثلاثين من عمره ٠

وقرر اليوت الانفصال عن زوجته بعد ستة عشر عاما من الزواج فهجر بريطانيا عائدا الى أمريكا ستة شهور ، وحين قفل الى بريطانيا اختار له مسكنا مستقلا ٠

وقد أطرفنا المترجم بحكايات السيدة اليوت فى بحثها عن زوجها المهاجر الذى لم تلن له قناة ٠ ظنا منه أن انفصاله عنها هو انقاذ لكليهما ٠

وقد دام هذا الانفصال أربعة عشر عاما حتى ماتت السيدة فيفيان فى أحد المصحات العقلية فى عام ١٩٤٧ ٠

وحين ماتت أبلغ أخوها أحد أصدقاء اليوت ، الذى أبلغ اليوت بدوره ، فهرعا الى جنازتها ، ولم ينشر لها نعى فى صحيفة «التايمز»

شان من فى مكانتها ، وكتم اليوت حزنه ، فقـــد كانت هذه السيدة هى نعيمه وعذابه معا · وفى هذا العام ، وكان فى التاســـعة والخمسين ، داهمه مرض قديم ، وخلع اسنانه ، واستبدل بها اسنانا صناعية ·

وكان هناك كما يحدثنا كاتب الترجمة امراة اخرى فى حياة اليوت أمريكية تصغر اليوت بثلاث سنوات ، وهى اميلى هيل · كانت علاقتهما صداقة وثيقة ، ويغلب الظن انهما لم يلتقيا قط لقاء الأحباء، ودامت علاقتهما ثمانية وأربعين عاما ، وحين ماتت فيفيان ظنت أميلى العانس القديمة ، أستاذة الدراما عندئذ ، أن مكانها سيكون الى قرب اليوت العجوز زوجا له ·

ولكن اليوت مالبث ان اختار ســـكرتيرته الشـــابة لترعى شيخوخته ·

ماتت فيفيان اليوت زوجة الشاعر الكبير بعد ثمانية وعشرين عاما من الحياة الزوجية ، كان نصفها شقاء وخصـــاما ونصفها انفصالا ، فأسلمت آخر أنفاسها فى احدى مصحات الأمراض العقلية. بعد أن جاهدت فى آخر سفراتها كى تسترد إليها الشاعر الشارد ، ولكن دون جدوى ·

ويحدثنا ت · س · ماتيور كاتب الترجمة عن تلك الجهود المضنية والمضحكة معا · وذلك بعد أن جمع شوارد اخبارها من أفواه الرواة ومطمور الصحف والمجلات ·

ذات مرة قرأت فيفيان أن مسرحية اليوت « جريمة قتل فى الكاتدرائية » سينقل عرضـــــها من كانتربرى ، حيث يجرى مهادها التاريخى ، الى مسرح ميركرى « عطارد » بلندن ، فتوجهت الى

هناك حيث احتجزت لنفسها مكانا فى الصف الأول ، ووجدت مكانها الى جوار الدوس هكسلى وزوجته ، ولكن الشاعر ، كأنما أدركه الكسل أو التوجس فى ذلك اليوم ، فلم يذهب الى المسرح ·

وذات مرة قرأت فى « تايمز الأحد » أن اليوت سيكون ضيف الشرف فى أحد معارض الكتب ، وأنه سيحاضر فى افتتاح المعرض · فابتاعت كتبه الثلاثة الأخيرة ، وأخذت كلبهما المدلل على ذراعها ، وتوجهت الى قاعة المحاضرة ، حيث سبقته اليها ، وحين دخل واجهته قائلة « أهلا يا توم » ، فأخذ يدها مصافحا ·

ثم قال لها « كيف حالك » ، ومالبث أن جاوزها مسرعا الى قاعة المحاضرة ·

وفى أثناء المحاضرة ، لم تكف السيدة المهجورة عن رفع الكلب فوق رأسها ليراه الشاعر ، وعن ايماءات الاعجاب والتشجيع ، وحينما انتهى من محاضرته شقت طريقها الى المنصة ممسكة بحقيبتها ، وفيها كتبه الثلاثة وتركت الكلب ليسعى ملاطفا لاليوت ثم ربتت على ذراعه وصدره ، ولكن اليوت اعتصم بالصمت والهدوء ، وقالت له فيفيان « ألن تعود معى ·· ياتوم ؟ » وأجاب الشاعر هادئا « لا استطيع أن أتحدث معك الآن » ووقع باسمه على الكتب الثلاثة . ثم انصرف عنها الى الحديث مع بعض الحاضرين ·

ويحدثنا كاتب الترجمة أيضا أن فيفيان اليوت نشرت فى صحيفة التايمز فى عام ١٩٤٤ اعلانا مبوبا نصه :

« عد ياتوم ·· سيكون كل شىء على ما يرام ·· فيفيان » ·

وكان ذلك آخر العهد بها ، عاقلة نوعا ما ، اذ أن هذا الاعلان

كان كأنه صيحة استغاثة من سفينة غارقة ، وكان البحر الذى غرقت فيه فيفيان اليوت هو بحر الجنون ٠

وفى ٢٢ يناير عام ١٩٤٧ ماتت الزوجة ، وظن جميع أصحاب اليوت وأحبابه أنه سيتزوج من صديقته الأبدية اميلى هيل ، التى كانت الآن فى حوالى الخامسة والخمسين ، والتى أفنت شـــبابها عاشقة عذرية للشاعر الكبير ٠

كانت اميلى هيل أمـــريكية مثل اليوت ، ولدت بعده بثلاث سنوات ، لأب معمارى تحول الى قسيس لطائفة الموحدين ، وكان خالها الناقد الموسيقى لصحيفة فى بوسطن ، فهى من أسرة مشغولة بالثقافة والدين ، مثل أسرة اليوت وان كانت مكانتها لا تدانى مكانة والطامحة للعلا فى المجتمع الأمريكى ٠

والتقت اميلى بالشـــاعر فى أرياض جامعة هارفارد بمدينة كامبريدج ٠ المدينة التوأم لبوسطن ، بولاية ماساشوستس ، حيث كانت هذه الجـــامعة ـ ومازالت ـ ملتقى أبناء الطبقات العليـــا والطامحة للعلا فى المجتمع الأمريكى ٠

كانت اميلى فى السابعة عشرة ، طالبة أتمت دراستها فى مدرسة عليا بالمدينة ، وكان اليوت فى العشرين ، طالبا بالجامعة ، ولما كان اليوت واميلى انسانين كتومين طيلة حياتهما ، فاننا لا نكاد نعرف شيئا عن مدى صحبتهما فى ذلك الزمان البعيد ٠

* * *

وفى عام ١٩١٤ ، وكان الشاب فى الخامســـة والعشرين من عمره ، أنبأ اليوت فتاته أنه سيرحل الى أوروبا لطلب المزيد من العلم

والتجربة وكاشفها بأنه يمضى وراء هدف هو أن يكون شاعر الزمان، وكانت الفتاة هى الأخرى تطمح أن تكون شيئا فى عالم الدراما ـ نقدا وتاليفا وأداء ، ووجد الشابان ان من الخير لكليهما أن يمضى فى طريق الطموح وحده ، وهكذا سافر الشاعر الشاب الى انجلترا ليظل هناك ثمانية عشر عاما متوالية ، يتزوج خلالها من سيدة انجليزية هى فيفيان ، وتصل أنباء زواجه الى أميلى • فتراجع نفسها قليلا فى أمر علاقتها العذرية ، ولعلها قالت لنفسها : لقد فاتنى أن أعقد الصـــلة الوثيقة بينى وبين الانســـان ، فلأعقدها اذن بينى وبين الشاعر •

تخصصت اميلى هيل فى درس الأدب عامة والمسرح خاصة ، ويحدثنا من عرفوها أنها كانت تتمتع بصوت بالغ العذوبة والعمق ، وأنها كانت جديرة بأن تكون بملامحها الرائعة الجميلة وصـــوتها الثرى المعبر من المع الممثلات ، لو لم يعارض خالها فى احترافها التمثيل •

وفى هذه الأعوام الثمانية عشرة ، كانت شهرة اليوت تنطلق فى انجلترا ، ثم ترن أصداؤها عبر المحيط فى أمريكا ، وكانت اميلى هيل أكبر المتحدثين عن عبقريته وابداعه فى مجال الجامعات والأندية الثقافية •

والتقى الصديقان القديمان فى عام ١٩٣٢ فى الولايات المتحدة، حين عاد اليها اليوت استاذا زائرا فى هارفارد ، وكانت هى فى ذلك الوقت أستاذة بها أيضا ، وكان اليوت قد استقر عزما على الانفصال عن زوجته ، وان كان لم يكاشفها بعد بنيته ، ويرجع ماتيوز أن اليوت حدث اميلى كصديقة قديمة عن عزمه الأكيد •

* * *

كان عمل اميلى هيل فى ذلك الوقت تتمة لعمل اليوت ، فقد كانت محاضراتها فى الدراما والشعر تدور حوله ، ومن الثابت أنه فى تلك الفترة قد قدم اليها مسودات مسرحية « حفلة كوكتيل » وأن المخطوطة قد نقلت بين أيديهما مرات عديدة ٠

ولقد بدت شخصية اميلى هيل فى مسرحية اليوت « اجتماع شمل الأسرة » فهى فى هذه المسرحية « أجاثا » العمة التى تعرف كل شىء ، وفى المسرحية يسأل « هنرى » (وهو صوت اليوت نفسه) العمة أجاثا ، وهو يودعها قائلا : هل سنلتقى مرة ثانية ؟ فتجيب العمة :

هل سنلتقى مرة ثانية ؟

ومن سيلتقى مرة ثانية انما اللقاء للغرباء ٠

انما اللقاء لأولئك الذين لا يعرفون بعضهم البعض ٠٠

وفى تلك الأثناء منح اليوت درجة فخرية من جامعة سانت أندروز ، وقد حدثت اميلى أحد خلصائها أنها دعيت الى حفل لتكريم اليوت ، فاشترت لنفسها ثوبا زاهيا محلى بالأزهار ، وتوجهت من المحطة حيث أنزلها القطار الى منزل الداعية الى الحفل ، وحذاء السهرة فى حقيبتها ٠

وحين وصلت لبسته ، ثم دخلت لتبدى اعجابها بحديقة منزل المضيفة ، وأجابتها المضيفة قائلة :

« ولكنك يا آنسة هيل قد جلبت كل حديقتك على ثوبك » ٠

وأحست الآنسة هيل بالخجل لأن المدعوين كانوا فى ثياب بسيطة ، بينما كانت هى بالغة التزين كأنها عروس الحفل ٠

وعاد اليوت الى انجلترا · لتتصل الرسائل بينه وبين اميلى ، رسائل غير متقطعة ، أنبأها فيها عن انفصاله عن فيفيان ، وعن حياته وأعماله ، ويتحدث أحد طلبة الأستاذة هيل فى تلك الفترة عن فرحها حين تلقت مسودة قصيدته « شرق كوكر » ، وهى احدى قصائد مجموعته « الرباعيات الأربع » ··

فقد جمعت تلاميذها فى غرفتها الصغيرة ، وقدمت اليهم شراب الشيرى · كأنهم فى حفلة تعميد ، ثم قرأت عليهم القصيدة بصوتها المتهدج ، فرحة مغتبطة كأنها تلقت رسالة من السماء ·

وتتحدث تلميذة لها عن غداء مع الأستاذة ، حين مالت عليها الأستاذة قائلة : لقد تلقيت رسالة اليوم من صديقنا ··

وكان صوتها عندئذ بالغ الرقة ·

كانت اميلى تلتقى خلال تلك السنوات باليوت أحيانا ، حين يقدم الى أمريكا أستاذا أو محاضرا أو شاعرا محاطا بالتكريم ، وربما كانت اميلى تعزى نفسها بأن اليوت الكاثوليكى بارادته واقتناعه لا يستطيع أن يطلق زوجته ، ولا يستطيع أن يتزوج وهما مازالا شرعا زوجا وزوجة رغم انفصالهما الطويل · وذلك الى أن جد جديد ، جعل الآنسة العانس التى ترهبت فى محراب الشاعر تعيد التفكير فى صداقتها الطويلة ، فلقد ماتت فيفيان اليوت ·

وكانت اميلى هيل عندئذ فى السادسة والخمسين ، وكان اليوت فى الستين ، أرمل عجوز وعانس ذاهبة الشباب ، تمتد صداقتهما القديمة ما يقرب من اربعين عاما ، وفى هذه الفترة تبادلا الرسائل ، وفجأة سمعت اميلى هيل وهى فى كليتها بالولايات المتحدة أن اليوت قد تزوج سكرتيرته الشابة ·

كان النبأ غير متوقع ، ولعل الآنسة العجوز حين سـمعته استعرضت شريط حياتها الطويل ، ونثرت بين يديها رسائل الشاعر الصديق التى بلغت حوالى ألف رسالة مودعة الآن فى مكتبة جامعة برنستون مع وصيتها ألا تفض أو تقرأ الا بعد خمسين عاما من وفاتها ٠

ولقد ماتت اميلى هيل بعد وفاة اليوت بخمس سنوات فى آخر يوم من أيام عام ١٩٦٩ ٠

فلننتظر اذن حتى العام العشرين من القرن الحادى والعشرين لنقرأ هذه الرسائل (لا نحن ، بل أبناؤنا) هذا اذا كان اليوت سيظل فى السمت الأعلى بين الشعراء بعد هذه الأعوام الخمسين ٠

وأغلب الظن أنه سيظل كذلك ٠

الدوحة يناير ١٩٧٩

نبض الفكر

شـــاعر الشـــمال

عاشـــق محيى الدين وفاطمة

.. أما محيى الدين ، فهو محيى الدين بن عربى ، المتصوف الشاعر الفيلسوف ، وأما فاطمة أو فطومة ، فهى الاسم الذى اختاره شاعر الشمال رمزا للحقيقة كما اختار ابن عربى من قبل اسم « النظام » ليدل به على معبودته الخالدة .

وأما شاعر الشمال ، ذاك الذى نتحدث عنه ، فهو أكبر شعراء اسكندنافيا الغنائيين فى العصر الحديث ، الشاعر جونار أكيلوف ..

ولد جونار أكيلوف فى عام ١٩٠٧ ، وماكاد يجاوز عشرين سنة من عمره حتى أصبح تابعا خالصا مخلصا فى الشعر والفكر للشيخ العظيم محيى الدين بن عربى الذى سبقه الى الحياة والخلود بما يزيد عن سبعة قرون .

وكان لقاء محيى الدين بن عربى وأكيلوف تلميذه السويدى فى المكتبة الملكية بلندن ، وعلى صفحات ديوان محيى الدين « ترجمان الأشواق » ، الذى قرأه أكيلوف بالعربية اذ كان يعرفها بعض المعرفة كدارس للغات الشرقية بجامعة « أوبسالا » بالسويد مستكمل لها فى

مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وحين أعيت أكيلوف الحيلة أن يفهم بعض الابيات استعان بالترجمة الرائعة التى نقل فيها الأســـتاذ نيكولسون ابن عربى الى الانجليزية ٠

وما كاد أكيلوف يتم ديوان ابن عربى ، حتى أصبح أسيرا له ، وحتى أولع بتتبع ابن عربى فى شتى ما عثر عليه من كتب المتصوف العظيم وهو يحدثنا فى مقدمة ديوانه الأول الذى اختار له العنوان العربى « ديوان » أن ذهنه كان مشغولا عندئذ بما يتناثر فى أجواء أوروبا من حديث عن الرمزية والسيريالية كصيغتين فنيتين تطلقان العنان للخيال والأحلام ، وأنه لم يحسن فهم هذين الاتجاهين الا بعد أن قرأ ابن عربى ، وادرك أنه كان الشاعر العالمى السباق الى الرمزية والسيريالية معا ، ولعل الشاعر السويدى أراد أن يعبر عن وفائه لأستاذه حين اختار لابن عربى كلمة من مقدمة ديوانه « ترجمان الأشواق » ليصدر بها ديوانه الأول :

« فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى ،

وكل دار أندبها فدارها أعنى » ٠٠

بين النظام ٠٠ وفاطمه

ان ابن عربى يشير فى مقدمة ديوانه وهو الصوفى المتجرد للحب الالهى الكامل ، الى حبه لامرأة تدعى « النظام » ٠

والقصة كما يرويها ابن عربى نفسه تقول : نزل بمكة حاجا وطالبا لليقين والمعرفة ، وله من العمر ثمانية وثلاثون عاما ٠ والتقى هناك بجماعة من فضلاء العلماء ، كان بينهم الشيخ العالم الامام مكين الدين زاهر بن رستم الأصفهانى ، وكان لهذا الشيخ بنت عذراء تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس ولبها ٠٠ « ساحرة الطـرف

عراقية الظرف ، ان اسهبت اتعبت ، وان أوجزت اعجزت ، وان افصحت أوضحت ، ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض السيئة الأغراض ، لأخذت فى شرح ما أودع الله تعالى فى خلقها من الحسن، وفى خلقها الذى هو روضة المزن ، فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق · وعبارات الغزل الرائعة ، ولم أبلغ فى ذلك بعض ما تجده النفس ويثيره الأنس من كريم ودها ··· الخ ·· »

وقد تصدى ابن عربى نفسه لشرح ديوانه بعد ذلك ، فكتب كتابه « ذخائر الأعلاق فى شرح ترجمان الأشواق » وغلا فى تأويل ابياته الغزلية حتى يصرفها عن الغزل بالأنثى الى الغزل بالحقيقة المطلقة،وكان ذلك بعد أن لامه بعض شيوخ حلب على ميله الى الغزل، وهو الصوفى المتجرد · وبذلك ترك لنا ابن عربى مشكلة ادبية وفنية يتبارى فى الجواب عنها المفسرون والنقاد ، ومعظمهم ـ للأسف ، اوروبيون أو مسلمون ـ غير عرب ·

ـ هل الفتاة المسماة بالنظام حقيقة عاشت وتنفست أم هى وقصتها من خيال ابن عربى الفنى ؟

ـ وهل كان لقاء ابن عربى بها لقاء بين عاشق ومعشوقة ، أم هو لقاء بين شاعر وموضوع ، يستطيع الشاعر من خلال خياله أن يجد وحى هذا الموضـــوع فى نفســـه ، كما كان الحال بين دانتى وبياتريس مثلا · فلعل ابن عربى رأى النظام رؤية عابرة فى مرة أو مرتين ، ثم مالبث ان أسقط عليها كل ما يجيش بنفسه من وجد ذائب ، وحس ملتهب ؟

وأيا كان الأمر بين ابن عربى والنظام ، فقد كان تأثر تلميذه السويدى به تأثرا بالغا ، فهو لم يكن من أصحاب الصبوات والوله

بالنساء ، ولكن صبوته وولهه كانا يتجهان الى الحقيقة المطلقة ، وقد اختار هذه الحقيقة المطلقة رمزا نسائيا كأستاذه الصوفى المسلم القديم المتجدد · فسماها فاطمة ، أو كما يكتبها بلغته فطومة ·

اما هو فقد أختار لنفسه اسم « حبيب »

فى أحلامى سمعت صوتا

هل تحب هذه الزهرة ، يا حبيب

ام ورقة من اوراقها

عندئذ وقعت فى حيرة

فقد كان هذا السؤال الملغز هو سؤال حياتى

هل أفضل الجزء على الكل

أو الكل على الجزء

لا ، انى أريد كليهما

جزء الكل ، والكل

والا يكون فى هذا الاختبار اى تناقض

هو أذن « حبيب » ، أو عاشق للحقيقة على درب ابن عربى ، أما « نظامه » فهى فطومة ·

لم تكن الشمس او القمر او النجوم

هى التى منحتنى النور

ولكن الظلمة ، ونور الحب داخلى

وشعاعاته التى اخترقت جسمى

وكانني كنت لا احد

وأنت ، يا فطومة ، أعطيت روحى ظلا

حين منحتنى مصباحا فضبا

وانت تمضين عنى

اما آخر قصته مع فاطمة ، فهى مثبتة فى قصيدته « ختام حكاية فطومة » .

حبيب ! حبيبى ، هل نلتقى لديك او لدى

كان ذلك هو صدى صوتها الساحر في الليل ،

نلتقى لديك ، كان ذلك صدى جوابه الساحر ،

وتجولا ثانية فى خلال الليل ، بعيدا عن المدينة

بعيدا عن اطراف المدينة ، وتجاوزا واحات الحدائق حتى وصلا قلب الليل

وبزغ الفجر الأحمر ، امامهما على الطريق

واضاع الفجر نفسه فى الرمال ، فى الشمس التى صعدت خارج الليل

واصبح القمر شاحبا ، والقت الشمس ظلالا اكثر دكنة

وحين غربت جاءا الى مكانها ، فى الليل

واختفت كل الطرقات ، واغفيا بجوار بعضهما البعض

ودونه كان لا يبين شيء من ظلها ولكن حين غيرا وضعهما كما
يفعل العشاق

كان شيء ما لا يبين تحت ظله

وهكذا أصبح الليل نهارا ، وأصبح النهار ليلا

* العاشــــق الشــــرقي :

ولقد عاش اكيلوف حوالى سبعة وستين عاما قضاها عاشقا مشرقيا ، خالص النفس لعشق الحقيقة كما تلمسها كبار الصوفية المسلمون ، اذ قاده محيي الدين بن عربى الى قراءة بعض أجلائهم من شـــعراء الفرس والترك مثل جـلال الدين الرومي وفضـــولي وغيرهما .

يقول الشاعر الانجليزى المتأمرك الكبير « أودن » فى مقدمته للترجمة الانجليزية لديوان أكيلوف ان هناك أوجه شبه كثيرة بين هذا الشاعر وبين الشاعر اليونانى الاســـكندرى العظيم كونستانتين كفافيس . فلقد أنكر كل منهما واقعه بأبعاده الزمنية والمكانية ، وخلق لنفسه واقعا ثقافيا يعيش فيه فكره ويستمد منه شعره ، ويتنفس فيه احساسه .

أما كفافيس فقد اختار زمن الحضارة البيزنطية ، بما فيه من صراع بين المسيحية والوثنية ، وبين الفكر والحس ، بينما اختار أكيلوف نفسه زمن الصراع بين المسلمين والصـــليبيين ، واختار لنفسه اسما عثر عليه فى بعض حوليات ذلك الزمان ، وكان اسم أمير من أمراء الحدود بين العرب والروم ، هو الأمير الذى يعرفه تاريخ الحروب الصليبية باسم ديجينس اكريتاس . فقد ولد عربيا . ثم مالبث أن أسره الروم ـ وكانوا أخواله ـ فأرغموه على اعتناق

المسيحية ٠ فلما ثبت عندهم أنه مايزال على ولائه لعروبته سجنوه حتى كف بصره من العذاب والوهن ، ومات شيخا كسير القلب ٠

وهكذا كان أكيلوف موزعا كذلك بين اسمين يختارهما لنفسه وشعره ، فهو ديجينس اكريتاس الذى يريد أن يخلع عن نفسه هذا الاسم ، وأن يعرف باسمه العربى « حبيب » ، وهو يتغنى فى نبرة شرقية لايكاد يعرفها الروح الغربى المعاصر ، فكان الحب عنده عطاء وبذلا وخضوعا :

ايتها السيدة الثرية فى كل شىء

فى العفة ، واللاعفة

الثرية فى الجمال

فى الرفقة ، والتوحد

لماذا تتكرين نفسك فى هيئة متسولة

جالسة على الرصيف

مادة يديك

لك قد اعطيت

العملة الفضية التى كانت لك

مختفية تحت العملة النحاسية

التى كانت لى

فى آخر ديوان لأكيلوف يعود الشاعر الى وحيه الأول محيى الدين ، والى محبوبته النظام ، او الحقيقة الكلية ، فيكتب لها قصيدة

متعددة المقاطع بعنوان « عالى نظام » ، نقتطع منها بعضا لننقله الى العربيـــة لعلنـــا نســـتطيع من خلاله أن نحب محيـــى الديـــن ونقدره قدره كما احبه هذا المســافر الغريب فى تراثنا الصـــوفى القديم :

الشباب يرقصون ويدقون ساقا بساق
والفتيات يغطين وجوههن كل بنقابها
كل من الفريقين يعبر عن ربته بطريقته
وهى رغبة متبادلة بينهم
اما انت ، فتبقين خارج مجال الحصول
تبقين أنت ·· الواحدة المفردة

* * *

عيد بشراى
جاء فى يوم محنتى
لنتم
كل منا بمفرده
وكلينا متقاربان
حديثنا على الطريق
يجعلنى اتذكر الأيام المزهرة فى شبابى
بين أرض الماء وأرض العطش

* * *

لقد قلت لنفسى

بعد خمسين عاما ، من مراجعة النفس والشك

لقد أصبحت عاجزا كطائر أزغب

أعيد تذكير نفسى بالطريق الممتد

عين بئرى ·· نعم ·· ولا ··

وكيف قدنا ابلنا صاعدة هابطة على التل

وكيف اشعلت لها النار بقدح الاحجار

وبالاعواد التى ورثتها من شجرة اللاشيء

ويحك عود من هذه بعود من تلك

الدوحـة مايـو ١٩٧٩

نبض الفكر

تصفية حسابات

اللورد بايرون

حين مات بايرون فى عام ١٨٢٤ اختفت الأسطورة وظهر رواتها ٠

وكان الرواة كثيرين ، فلأن بايرون عاش كالعاصفة ، تهب رياحها اللافحة شعرا وعشقا وفضائح ، ولأنه مات كما يموت دعاة الحرية فى ميدان القتال ، (وان كانت الدوسنتاريا هى السبب المباشر لموته) ، لأنه عاش ومات كذلك فقد وجدت الأسطورة رواتها المتشيعين المتحمسين ، كل منهم يتحدث عن جانب من جوانب الأسطورة ، ويدعو المستمعين الى الايمان بها والاذعان لها ٠

وكان من هؤلاء الرواة امرأة مفضوحة السيرة عرفت بايرون لشهرين ، هى الكونتيسة بلينجستن التى كتبت كتابا بعنوان « محادثاتى مع لورد بايرون » ٠

وكان من هؤلاء الرواة الكونت « بيتروجامبو » وهو اخو عشيقته الايطالية « تريزا جيوكيولى » ، وقد كان عونا له على عشق أخته ، ورسولا بينه وبينها رغم زوجها الغيور ٠

وكان منهم الشاعر الانجليزى « لى هنت » الذى كتب كتابا بعنوان « بايرون ومعاصروه » ·· فيه تتضح أبعاد الصـــداقة بين بايرون وشللى وبين بايرون وبين لى هنت نفسه ·

وكان منهم الشاعر الايرلندى توماس مور الذى كان صديقا لبايرون أيضا ، وطبيب السفينة التى أبحر عليها من لندن الى جنوة ، وسيدة عرفته وحاولت أن تهديه الى مذهبها الدينى ·· وآخرون وآخرون ·

كانت هذه المادة عونا واسعا للمؤرخين ودارسى الأدب الذين أرادوا تسجيل حياة بايرون ودراسة شعره · ولقد مات بايرون منذ مائة وخمسة وخمسين عاما ، واحتفلت الأوساط الأدبية الانجليزية بالذكرى عام ١٩٧٥،وفى خلال هذه الأعوام تذبذبت مكانة بايرون الأدبية صعودا وهبوطا حتى استوت واستقرت كأحد أعلام الشعر الرومانتيكى الانجليزى ·· وكانت هذه المكانة قد انداحت فى الآفاق حتى أوشك بايرون أن يكون « موضة » من موضات العصر فى فرنسا وألمانيا بثورته على التقـــاليد ، وهجائه الاجتماعى اللاذع ، وغرامه أو غرامياته التى لا تعرف التحفظ · ولكن انجلترا مالبثت أن أخذت تستمد من القارة الأوروبية ذوقها الأدبى ، وخاصة حين ولد الشعر الفرنسى الحديث على يدى بودلير ورامبو وتغير عندئذ الذوق الأدبى ، وأوشك بايرون أن يصبح دليلا على عصـــر فات وأوان انصرمت أيامه · وتغلبت صورة حياة الشاعر فى ذاكرة القراء على صورة شعره · وأصبحت سيرة بايرون العاشق أكثر جلاء من صورة بايرون الشاعر ··

ولكن الميزان الأدبى مالبث أن اعتدل وعاد بايرون لمكانته ، ولقد صدرت فى الأعوام الأخيرة كثير من الكتب عن بايرون ، ولكن أطرفها وأكثرها اثارة هو بلاشك ـ كتاب لم يكتب فيه بايرون حرفا ، ولم يكتب فيه نقاد الأدب الا بعض التعليقات والايضاحات ، وليس

عيه بيت شعر واحد أو كلمة بليغة مفردة · بل هو كتاب ملىء بالأرقام والخطوط ، والجمع والطرح ، وأسماء السلع والطعوم والأشربة ·

هذا الكتاب هو كشوفحسابات خادم بايرون الخاص «انطونيو ليجا زامبللى » ، فقد عاش زامبللى الى جوار بايرون السنوات الأخيرة من حياته ، وعاش بعده عشرين عاما ، وأودع أوراقه لابنته التى تزوجت ابنا لفلنشر تابع بايرون ، وكان آخر سلالتها سيدة ماتت فى الثامنة والثمانين من عمرها فى عام ١٩٤٩ ، وأوصت بأوراق جدها زامبللى للمتحف البريطانى ، حيث توفرت عليها روائية انجليزية لم تصب الا قدرا ضئيلا من النجاح برواياتها الست السابقة ، وكان كتابها « تصفية حسابات اللورد بايرون » هو ما يحسب لها من مساهمة حقة فى عالم الأدب ·

لقد كانت الحسابات المحفوظة فى المتحف البريطانى بالايطالية طبعا · وحين قصدت اليها الروائية « درويس لانجلى مور » وجدتها منسية لم يفض غلافها أو تنزع خيوطها اذ أن الدارسين لم يأبهوا لها كمادة قد تساعدهم على فهم الشاعر الكبير ، ووجدت الباحثة القصاصة نفسها تتعلم قدرا من الايطالية ، وتعود بدراستها الى أسعار العملة فى زمان بايرون ، والى اسماء الأماكن التى تغير بعضها ما بين لندن وأنحاء ايطاليا ، بل وتدرس أنواع الأنبذة وأسعار غرف الفنادق وأجر العربات ورسوم البريد ، فكأنها تنظر فى صندوق دنيا ذى عين سحرية تكشف لها عن لحم الحياة ودمها منذ مائة وخمسين عاما ·

ونقول لنا القصاصة الدارسة أن بايرون كان يعانى من المتاعب المالية حتى بعد أن استيقظ ذات صباح فوجد نفسه شهيرا · كما قال عن نفسه ، وحتى بعد أن استقرت شهرته فى عالم الشعر والعشق ، فقد ظل تحت رعاية أمه الحريصة حتى دخل كامبريدج فى سن

السابعة عشرة ، فآل اليه التصرف فى أمر ميراثه ، فكأنك أعطيت ـ على حد قول الناقدة ـ صبيا عابثا علبة من الثقاب ليعبث بعيدانها ويتسلى باشعالها · فما كاد يبلغ سن الحادية والعشرين حتى وصلت ديونه اثنى عشر الف جنيه · وحين دخل بايرون مجلس اللوردات الانجليزى وريثا للقب أسرته العريقة كان أفقر أعضـــاء المجلس جميعا ، ولكنه كان بلاشك أقدرهم على أمرين : أولهما الترف ، وثانيهما الاستدانة ·

وتسوق لنا الكاتبة ألوانا من ترف بايرون ، فهو يأمر بثلاث حلل للسهرة محلاة بالفراء فى ثمانية أشهر ومعها ستين بنطلونا وأربعة وعشرين جاكته ، حين تؤول اليه ثروته ، وبعد ذلك بعامين أو ثلاثة يأمر بعربة مصممة على طراز عربة نابليون بونابرت «بطله الروحى والسياسى » ثم لا يستطيع دفع ثمنها الا بعد ذلك بستة أعوام وتظل المراسلات دائرة بينه وبين صانعها المخدوع فى الشاعر اللورد ·

وتقول لنا الدراسة أن كل أديب من طراز بايرون يحتاج لمدير مالى ، وكان لبايرون فيما بعد مديران : دوجلاس كنيارد الذى أقنعه أن يتقاضى ثمنا لشعره وكلماته ثم هذا الايطالى الخادم صـــاحب الحسابات الذى كان كثيرا ما يعترض على أوجه الانفاق فيرضخ بايرون لاعتراضه ·

وتكشف لنا وثائق زامبللى جملة أشـــياء طريفة غير ذلك · منها أن بايـــرون لم يكن ســـكيرا ، فحســـابات النبيذ والجـــن والبراندى ضئيلة اذا قيست بحسابات الملابس وغسلها وكيها ·

ومنها أن الشاعر العظيم شللى ، صديق بايرون ، مات وهو مدين لبايرون بخمسين جنيها ، فقد اقترض منه فى ٧ يونيو عام

١٨٢٢ هذا القدر من المال ، ثم غرق فى خليج سبيزيا بين ليجهورن وليرتش بايطاليا فى اليوم التالى ٠

ومنها أيضا أن الشاعرين رغم عمق محبتهما كانا كثيرا ما يختلفان ويتشادان ٠ كان شللى لا يحب فى بايرون نزعته الدينية وولعه بالمظاهر ، وكان بايرون لا يحب فى شللى تحامله الدائم على الدين ٠

يقول شللى فى احدى رسائله :

« أننى أحتقر المجتمع الراقى جميعه ، وان بايرون اللورد لهو نواة كل ماهو مزعج وكريه فيه ٠٠ » ٠

أما بايرون فينصح شللى فى احدى نزهاتهما أن لا يكون متزمتا فى نظرته الأخلاقية ٠٠ وأن يكف عن تصور نفسه مصلحا اجتماعيا ، أو نبيا فى ثياب شاعر ٠

وتقول لنا الدراسة ان أسباب الخلاف العارض بين الصديقين الحميمين قد يكون فى تصور شللى أن بايرون واسع الثراء ، رغم أنه كان يعانى فى ذلك الوقت من سداد ديونه ، بينما لم يكن لدى شللى من مورد الا الاستدانة م نيهود ايطاليا بفائدة مائة فى المائة اعتمادا على قرب وفاة أبيه ـ الذى عاش بعده بسنوات !

وهكذا تميل الناقدة بعد أن غرقت فى الحسابات والمراجعات الى أن تلتمس لكل أمر سببا ماديا مجسما حتى ضيق شللى من « لى هانت » فى بعض الأحيان كان سببه فيما ترى الناقدة أنه جاء لزيارة صديقيه فى ايطاليا ومعه ستة من أطفاله ٠ وكأنه يتوقع أن تطعم الغربان هؤلاء الأطفال بما تصيده من الحمائم ٠

ولكن الناقدة ترى بين أوراق بايرون كتابا كتبه لناشر شللى بعد وفاته الفاجعة يقول فيه :

« لقد كنا جميعا مخطئين فى تقديرنا لشللى الذى كان بلا نظير ·· لقد كان أفضل الرجال وأقلهم انانية ، وانى لأقول : انى لم أعرف انسانا لا يعد وحشا مفترسا بالمقارنة به ·· » ·

وهكذا نرى أن المؤلفة حين تدعو فى كتابها « تصفية حسابات اللورد بايرون » لا تعنى بذلك حساباته المادية فحسب ، بل حساباته الانسانية أيضا ·

ولقد كان من أوجع حسابات بايرون الانســانية قصة ابنته الصغيرة « اللجرا » ·

كان مؤرخوه يقولون انه أودع الطفلة ذات السنوات الأربع فى دير الكبوشيين حيث ماتت من الحمى والنزيف ، وأن هذا الدير كان موطنا للفزع والقسوة والاهمال ·

وتقول المؤرخة ان هذا الدير كان مدرسة داخلية فاخرة تودع فيها الأسر الثرية أطفالها ، ودليلها على ذلك أن هذا الدير كان يتقاضى أجرا عاليا على ايواء الطفلة ·

ويقول رواة أسطورة بايرون أن « اللجرا » كانت مريضة بينما يتسلى بايرون بالصيد فى بحار النساء أو خلجان ايطاليا ·

وتثبت السيدة مور أن خطاب وفاة « اللجرا » قد وصل الى بايرون قبل أن يصله الخطاب المنبىء بمرضــها ، نتيجة لارتباك البريد ·

وهكذا نمضى مع هذا الكتاب الطريف الذى يكشف لنا صورة من الحياة الأرضية لأحد سكان الآفاق العليا ·

نبض الفكر ١٩٨٠

المنحنى الشخصى فى حياة

أبى العــلاء المعــرى

ما شكا أبو العلاء الفاقة الا لمحا ، وغاية ما قاله عنها نثرا مما ينطوى على التشكى هو ذلك التعبير الكريم المترفع « وأنا مستطيع بغيرى » ، أما فى الشعر فقد كشف بعض بثه حين روى أن عاهته هى أول سجونه ، تتقدم فى ذلك لزومه بيته ، وكون نفسه فى جسمه الخبيث . ولا أريد بذلك أن أقرر أن هذين الخاطرين وحدهما هما كل ما روى لأبى العلاء من سوانح فى هذا السبيل ، ولكن تجدر الاشارة الى أن النبرة تختلف بلاشك بين هذين الخاطرين اللذين أشرت اليهما ، وبين قوله :

ويصير الأقوام مثلى أعمى   فهلموا فى حندس نتلاطم

أو قوله :

انا اعمى فكيف اهدى الى النهج والناس كلهم عميـــان

والعصا للضرير خير من القائد فيه الفجور والعصـيان

فان ابا العلاء فى هذه الأبيات وسواها لا يأسى لنفسه ، ولا يتحزن عليها ، ولكنه يتأمل فى قصور الذهن البشرى بعامة ٠

المتنبى ٠٠٠ والمعرى

ولم يكن أبو العلاء على أى حال ممن يبالغون فى التأسى على أنفسهم ، فقد كانت الكرامة عنده هى مناط شخصيته وملاك أمره فى قوله وفعله ٠

وأبو العلاء ملمح فريد من ملامح التراث العربى ٠ ولو أردنا اجمال خطى تطوره الفنى لقلنا انه نشأ كما ينشأ الشعراء ، حافظا راويا لعيون الشعر العربى مفتونا كناشئة زمانه بذلك الشاعر الذى هبط أرض الشعر العربى كالزوبعة ، فملأ الدنيا وشغل الناس ٠

وأغلب ظنى أن فتنة أبى العلاء بالمتنبى لم تكن بشـــاعريته وأسلوبه فحسب ، بل كانت بحياته القلقة العاصفة أيضا « كأن الريح تحته يصرفها يمينا أو شمالا » ٠ وربما كان معاصرو أبى العلاء يعرفون عن وقائع حياة المتنبى أكثر مما نعرف ، فقد كان العهد به قريبا ، وكانت أصداء فعاله ومواقفه مازالت تتردد فى نواحى حلب التى عاش فيها زمنا ٠ وربما كان معاصرو أبى العلاء أيضـــا لا يختلفون فى نوازع المتنبى الدينية والسياسية كما نختلف نحن الآن ، فننسبه حينا الى العلوية أو القرمطية أو غيرهما ، فلقد كانوا على الأرجح يدركون ما كان يعنيه أبو الطيب بقوله فى رثاء جدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أبوك الضخم كونك لى أما

وكانوا يدركون ـ على الأرجح كذلك ـ من هم قومه أولئك الذين بهم فخر كل من نطق الضاد وغوث الجانى والطريد ، وكانوا يعرفون

ـ ربما ـ ما ذلك « الحق » الذى يعنيه ويعقد العزم على طلبه فى قوله :

ساطلب حقى بالقنا ومشـــايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

كان أبو الطيب يريد أن يصـــنع من حياته مجدا من أمجاد الأفعال ، لا من أمجاد الأقوال ، وكان يتخذ المقال سبيلا الى التميز حتى ينفتح له باب الامارة والملك ، وهو قد طلبهمـا بالخـــروج والانتفاض على الدولة الكائنة فى شبابه ، ثم طلبهما بالتقرب الى الدولة الكائنة فى شيخوخته ، وكأنه قد طامنت الأيام من غلوائه ، وأقنعته كما تقنع معظم الطموحين أن الغايات تبرر الوسائل ، حتى لقد أصبح يرى أن أخلاق التسامح والرضا من خدعة الطبع اللئيم .

ولاشك أن أبا العلاء قد تأثر فى شبابه لابشعر المتنبى فحسب بل باندفاعة نفسه العاصفة . ومن ذلك الذى يقرأ المتنبى فى شبابه ولا يقع فى أسره ذوقا وروحا ، ان للمتنبى فتنة كفتنة الحب الأول ، فهو يخيل لقارئه أن كل مطمح فى الحياة دان قريب مادامت لك القوة التى تحتوى العاطفة ، والبأس الذى ينكر العطف ، وما عطف أو عاطفة يسبغان على « أهيل » هذا الزمان وغيره من الأزمان ، اذا كان أعلمهم قدما وأحزمهم وغدا وأكرمهم كلبا وأبصرهم أعمى وأسهدهم فهدأ وأشـــــجعهم قردأ (وما زاد كاتب المقال فى هذه الأوصاف القاسية كلها على المتنبى حرفا واحدا) !

وتطالعنا فى صفحات « سقط الزند » أولى مجموعتى أبى العلاء أبيات كثيرة متنبية المنبع ، وما أخال الا أن أبا العلاء كان ينكر ما فيها من استعلاء واسراف لو رويت له فى شيخوخته الحكيمة المتطامنة ، ولا نستشهد هنا بمطلعه المأثور « ألا فى سبيل المجد ما

انا فاعل » ، فذلك المطلع اشهر من ان نذكره ، ولنذكر أبياتا أخرى له كثيرة ، فيها ما هو اكثر غلوا فى الخيلاء من ذلك المطلع المحظوظ.

يقول أبو العلاء :

افوق البـــدر يوضــــع لى مهـاد
ام الجـــوزاء تحت يدى وســـــاد

قنعـت ، فخلـت ان البـــدر دونى
وســـــيان التقنع والجهــــــاد

ويقول :

ورائى امــــام والامـــام وراء
اذا انـا لم تكـــبرنى الـــكبراء

باى لســـــان ذمنى متجـــاهل
على وخفـق الـــريح فى ثنـــاء

تكلم بالقـــول المضـــلل حاســـد
وكل كلام الحاســـــدين هـــراء

ومن هو حتى يحمـــل النطق عن فمى
اليه ، ويمشى بيننـــا الســـفراء

ومذ قال ان ابن اللئيمة شـــاعر
ذوو الجهل مات الشـــعر والشعراء

اتمشى القوافى تحت غير لوائنا

ونحن على قوالهـا امـراء

واى عظيم راب اهـل بـلادنا

فانـا علـى تغييره قـدراء

وما سلبتنا العـز قط قبيلة

ولا بـات منـا فيهم اسـراء

ولا سـار في عرض السماوة بارق

وليس له من قومنـا خفـراء

ولسـنا بفقـرى يا طـغـام اليكم

وانتم الى معـروفنا فقـراء

ولاشك ان الأبيات السالفة ستستوقف قارىء أبى العلاء الذى الفه فى مجموعته الشعرية الثانية « اللزوميات » .. وربما رأى فيها المتنبى اكثر مما يرى أبا العلاء . وما ظنك بشاعر يقول عن خصمه « ابن اللئيمة » . ويصف القوم الذين يبغضهم بالطغام ، وتلك كلمة مما أحب المتنبى أن يصف بها الناس جميعا ، وربما حلا لهذا القارىء الذى ألف أبا العلاء ان يرفع فى وجه هذه الأبيات أبياته الجليلة المتواضعة :

يزورنى الناس ، هذا أرضـه يمن

من البلاد ، وهذا ارضـه الطبس[1]

---

(١) الطبس : خراسان او مدينة بها

قالوا سـمعنا حـديثا عنك أعجبنا

لا يبعد الله الا معشـرا لبسـوا

يبغون منى معنى لسـت أحسـنه

فان صـدقت عـرتهم اوجه عبس

ماذا تريدون ، لا مال تيسـر لى

فيسـتماح ، ولا عـلم فيقتبس

انى الشـقى بانى لا اطيق لـكم

معـونة ، وصـروف الدهر تحتبس

بل لقد يحلو لهذا القارىء الألف لشعر ابى العلاء فى لزومياته أن يخرج من عالم الأبيات الأولى المقعقع الى هذا النغم الواهن بما يشيع فيه من شعور مرهف منكسر ، وحزن هادىء ممتد ·

* * *

متى أدرك هذا الشعور المرهف المنكسر ، وهذا الحزن الهادىء الممتد روح الشاعر ، فمال به عن ظل المتنبى الى ظل نفسه ، وعكف عندئذ على هذه النفس يتأملها فيمعن فى التأمل حتى تنكشف له ، فاذا هى نفس زاهدة متوحدة ، قانعة بجهدها فى الوصول الى حال من الصفاء والتنزه عن الغرض فى القول وعن الغرض من النعيم ·

لقد نجم عن هذا الاختلاف فى حال أبى العلاء النفسية تباين ذو ثلاث شعب بين صدر حياته وبين منتصفها وآخرها ·

* تباين أسلوباه فى الحياة ، فتوقف عن الرحلة الى المدن

الاسلامية فى الشام وغيره من الأقطار ، واعتكف فى بيته الا ان يزوره طلاب علمه ٠

* وتباين اسلوبه الشعرى ، فاصبح هذا الأسلوب الذى نعرفه ، مليئا بالمحسنات ، غنيا بالاحالات الى الثقافة العربية الكلاسيكية من نحو وفقه وفلك وتاريخ ٠٠ لم يعد اسلوبه تقليدا للمتنبى فى جهارته وقوة موسيقاه ، بل اصبح استمدادا من ذاته بما فيها من ثراء لغوى وثقافى واسع ممتد ٠

* وتباين عالمه الشعرى ، فأصبح الموت أو ما يدور قرب معنى الموت هو عالمه الأثير ٠

وهكذا كانت اللزوميات ثمرة هذا التجول الغريب !

« فى بغداد » :

يقول لنا القدماء ان أبا العلاء ظل فى بغداد سنة وتسعة أشهر، ويختلفون فى تقدير حفاوة بغداد به ٠

يقول ابن القفطى صاحب كتاب « انباه الرواة على انباء النحاة » : « واشتهر ذكره ببغداد ـ وقرئ عليه كتابه « سقط الزند » ، واجتمع بالشريفين الرضى والمرتضى ، ولدى ابى احمد، وشهدا بفضله وفطنته وذكائه ٠٠ وحضر خزانة الكتب التى بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه اسماءها ، فلم يستغرب فيها شيئا لم يره بدور العلم بطرابلس سوى ديوان « تيم اللات » فاستعاره منه ! » ٠

ومما ذكره القفطى نعرف أن أبا العلاء لقى الكرامة فى بغداد ، وأن علماءها فطنوا الى ذكائه وبديهته وفضله ، بينما يحدثنا رواة

آخرون عن موقف تعيس له فى حضرة الشريف المرتضى ، لقى فيه ذلا ومهانة ٠

يقول ياقوت الحموى فى كتابه « ارشـــاد الأريب الى معرفة الأديب » :

وكان ابو العلاء يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه اشعر المحدثين ، وكان المرتضى يبغض المتنبى ويتعصب عليه ، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبى والمرتضى ، فقال المعرى : لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قوله : « لك يامنازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى ، وامر فسحب برجله ، واخرج من مجلسه ، وقال لمن بحضرته :

أتدرون اى شىء اراد هذا الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فان للمتنبى ما هو أجود منها لم يذكرها ، فقيل « النقيب السيد أعرف » ، فقال : « اراد قوله فى هذه القصيدة :

واذا اتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بانى كامل

وتنتهى قصة ياقوت ، ويغلب على الظن أن ياقوتا سمعها فرواها وأنها من تزيد الرواة ومجالس المتظرفين ، لكى يحكوا بها عن ذكاء الرجلين : أبى العلاء المعرى والشريف المرتضى ، ولا يغيبن عن بالنا أن بين المعرى وياقوت مئتى عام ، وأن مؤلفا لم يشر الى هذه القصة قبل ياقوت ٠

ومما يدحض هذه القصة دحضا أن المعرى لم يحفظ لبغداد بعد أن غادرها الا اجمل الذكريات ، وذلك واضح فى رسالة له الى خاله حين عودته الى بغداد ٠

« ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فلقد افردونى بحسن المعاملة ، واثنوا على فى الغيبة ، واكرمونى دون النظراء والطبقة ، ولما آنسوا تشميرى للرحيل ، واحسوا تاهبى للظعن ، أظهروا كسوف بال ، وقالوا من جميل كل مقال ، وتلفعوا من الأسف ببرد قشيب ، وذرفت عيون اشياخ شيب .. الخ .. » .

بل ان ابا العلاء ياسى فى غير موضع من شعره ورسائله على تركه بغداد ، فيقول فى احدى الرسائل :

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت ، اجمعت على انفراد يجعلنى كالظبى فى الكناس ، ويقطع ما بينى وبين الناس الا من وصلنى الله به وصل الذراع باليد ، والليلة بالغد .. » .

لقد كانت الاقامة فى بغداد هى مبتغاه ، ولقى فيها من التكريم ابلغه واوفاه ، فمن الذى زاده عنها ؟

ولماذا آثر الشاعر المنصرم الشباب العزلة اسلوب حياة ، والموت موضوع شعر ، حين عاد من بغداد الى معرة النعمان ؟

* * *

يحدثنا اصحاب المدرسة الشخصانية فى الفلسفة ، الذين يتمثلون فى مونييه وتابعيه عما يسمونه المنحنى النفسى فى حياة الانسان .

والمنحنى النفسى هو انتقال الشخص اثر تجربة حادة من نقيض الى نقيض : من ولع بالحياة الى الزهد فيها او من تكاسل الى حمية ونشاط ، او من تفاؤل مطلق الى تشاؤم سابغ ، ولو ضربنا مثلا

ببوذا كما تروى عنه الكتب لقلنا انه كان اميراً لاهيا بنعيمه حتى فوجىء برؤية قصور الحياة فى تجلياته كالفقر والمرض والشيخوخة اذ خرج يوما من قصر أبيه ، وكم من قصص غى حياة الصـــوفية المسلمين كابراهيم بن أدهم ورابعة العدوية وغيرهما تدور فى هذا المدار ٠

ان الحجب لتتكشف فجأة ، ويتجلى للانسان طريق آخر غير طريقه ، يدعوه للمسير فيه ، فكأن هذه التجربة الحادة العيانية أو العقلية تهز نفسه هزاً ٠

فماهى التجربة التى حولت أبا العلاء من رجل له فى الدنيا نصيب الى رجل زاهد فى نصيبه من الدنيا ٠ ومن تلميذ مقلد للمتنبى فى جهارته وعنفوانه الى حكيم منكسر النفس خفيض الصوت ؟

* * *

ليست زيارة بغداد بذاتها هى الباعث على هذا التحول ، فهى بذاتها زيارة لمدينة مسلمة تتألق فيها الحضارة كزيارته لطرابلس الشام أو حلب ، وقد تكون بغداد أجل شأنا وأحفل بالعلم من سواها من الحواضر ، فهى عندئذ قصبة ملك الاسلام والمسلمين ، ولكن أبا العلاء نفسه ـ وقد عهدناه صادقا ـ يحدثنا أنه لم يعرف فيها ما يزيد كثيرا عما عرفه ٠

وقد يقول قائل ان موت أمه حين وصل إلى الشام هو تجربته المصيرية ٠ ولكن هل كان أبو العلاء ساذج النفس حتى لا يدرك أن أن الموت قدر لا يرد ، وبخاصة وقد كان فى الأربعين ، وكانت أمه عندئذ على أرجح الفروض تقترب من الستين أو تجاوزها ؟

فابو العلاء اذن حين قارب الأربعين لم يزدد علما بشيء · لا باللغة التى أتقنها ، ولا النحو الذى احاط به ، ولا المذاهب الدينية والفلسفية التى تامل فيها فأطال التامل · والتجربة المصيرية التى غيرت حياته اذن ليست تجربة فكرية ، ولكنها تجربة شخصية ·

وقراءة شـــعر أبى العلاء فى اللزوميات تفتح لنا باب الظن واسعا ، ولنقرا هذا البيت :

ظن الحياة عروسا خلقها حسن … وانما هى غول خلقها شـرس

ولنحاول ان نقرا بقليل من التعديل :

ظن العروس حيـــاة خلقها حســـن

وانمـــا هى غول خلقهـــا شـــرس

وعندئذ قد ينفتح لنا سبيل من القول ، نمضى معه فى قراءة فى قراءة شعر أبى أبى العلاء عن المراة ، ونتوقف عند أبيات كثيرة لا تحصى يجعل الدنيا فيها عروسا · فهى تســـوم زوجها ، وهو الانسان بعامة ، سوء العذاب · وهى لا ترعى عهدا ولا تحفظ ودا ، وجميع قولها وفعلها كذب وخداع ·

يقول ابو العلاء :

مهجتى ضـــد يحـــاربنى … انها منى فكيف احـــترس

انمـــا دنيـــاك غـــانية … لم يهنىء زوجها العرس

وارجو ان تستــــعين بهذا النهج الابدالى الذى اقترحناه لتقرا البيت هكذا ، وأن تعالقك العروض :

انما الغانية مثـل الدنيا لم يهنىء زوجهـا العرس

ويبدو لى عندئذ أن ابا العلاء عرف المرأة فى بغداد عاشقا ، وفكر فى أن يتزوج ، ولكن بدت له أحوال آثر معها السلامة من كل ذلك ، ودخل فى عزلته الشاملة ، ولنقرأ هذا البيت فى ضوء ما افترضناه من قبل :

وزوجك أيها الدنيا تمنى طلاقك قبل أن يقع المسيس

يبدو لنا أبا العلاء فى حديثه عن المرأة فى اللزوميات عاشقا مهزوما ، قنع من الدنيا بأدنى نصيب ، وقطع صلته بالحياة ، فى توالدها وتكاثرها ، حين آثر أن لا يجنى على أحد كما جنى أبوه عليه ٠

وحين يرفض الانسان توالد الحياة وتكاثرها ، فكأنه يرفض الحياة جملة وتفصيلا ٠



نبض الفكر ١٩٨٠

ايليـــا أبـــو مـــاضى

تبر كثير وتراب قليل

– ١ –

أحببنا الشعر فى صبانا ، فاذا بقصيدة « الطلاسم » لايليا أبى ماضى احدى معلقات العصر ، وكلفنا بها واستنسخناها فى كراساتنا قبل أن نعرف اقتناء الدواوين · عرفناها شذرات أول الأمر ، حتى أسعف الحظ فلممنا الشذرات بعضها الى بعض ، واستطاع الدأب أن يقتنى القصيدة كاملة ، ولعلها هى التى نبهت الذهن الى الصلة بين الشعر والفكر · وعرفنا منها أن الشاعر لا يغنى فحسب ، ولكنه يتأمل ايضا · وأن الشاعر يستطيع أن يخلط غناءه وتأمله كما يختلط الجمال والذكاء فى فرائد النساء ·

ومرت الأيام ودارت ، وغدت دواوين ايليا أبى ماضى طوع اليد ، وأجال جيلنا فيها عيونه ، وأفاد منها الكثير ، ولكن كثيرا من الشعر يطرح بعد اكتشافه ، اذ يأخذ الشادى منه حاجته ثم يدعه، وتبقى منه فى ركن من أركان القلب ذكرى واهنة تنطفىء منها شرارة كل يوم أو كل عام ، ولكن أجدنى بين ليلة وأخرى ، كثيرا ما أمد يدى الى أحد هذه الدواوين وبخاصة ديوان الجداول ، فأقرأ منها

قصيدة أو قصيدتين ، لا أبغى بذلك أن أسترجع زمنا مفقودا ، أو أعود الى صبا بعيد آفل ، ولكنى أبغى أن أستمتع ، أتأمل فى أسلوب رجل وفكره ٠٠ رجل كشف لنا نفسه رغم أنه أراد أن يكشف لنا عقله ، وقدم لنا الانسان رغم أنه أراد أن يقدم لنا الحياة ٠

كتم ايليا أبو ماضى عنا كثيرا من تفاصيل حياته ، فنحن لا نراه شاعرا غزلا أو شكاء أو مسجلا لأحداث حياته الخاصة ، وقد تكون عيونه أكثر انفتاحا على الحياة الدائرة من حوله ، وعلى جوهر هذه الحياة لا تفصيلاتها ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعرفه ، وأن نتخيله انسانا يحدثنا ونحدثه ، وفى شعره لهجة حميمة هى البساط السحرى الممدود بيننا وبينه ، وبساطة عميقة هى البساط الممدود بين شعره وبين الأجيال ٠

ـ ٢ ـ

ولد ايليا أبو ماضى فى عام ١٨٩١ فى لبنـــان ، ووفد الى الاسكندرية فى أول القرن العشرين ، وغادرها الى لبنان فالولايات المتحدة فى عام ١٩١١ بعد أن أصدر بها ديوان « تذكار الماضى » لايليا ضاهر أبو ماضى » وتوفى فى ٢٤ نوفمبر عام ١٩٥٧ عن نيف وستين عاما بعد أن أصدر الجزء الثانى من ديوانه ، ثم مجموعتيه « الجداول » و « الخمائل » أما مجموعته « تبر وتراب » فقد نشرت بعد وفاته ٠

ولكننا نستطيع الشك فى تاريخ ميلاده ٠ وبخاصة حين نجده يثبت فى ديوانه الأول قصائد كتبت فى أعوام ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٥ ٠٠ فيها قدر كبير من المرانة والمقدرة اللغوية والصـــياغية بحيث يستبعد أن تكون نتاج صبى فى السنوات الأولى من صباه ٠

ويغلب على الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ ببضع سنوات ، وأنه حين وفد على مصر عام ١٩٠١ ، كان فى السابعة عشرة من عمره أو حولها ٠

وعاش الشاعر الفتى فى الاسكندرية التى كان قد سبقه اليها أخ له ، وعمل بتجارة التبغ ، ومما يذكر للشاعر فى هذا الزمان أنه لم يجنح شأن كثير من أنداده الى الابتعاد عن واقـــع الحياة المصرية ، وماكان يصطرع فيها من تيارات وطنية وسياسية ، ولكنه أحب مصر أرضا وناسا ، حتى انه صدر ديوانه الأول بهذا الاهداء ٠

« اهداء الديوان : الى الأمة المصرية »

« أيتها الأمة الودود

هذا ديوانى الذى نظمته تحت سمائك ، وبين مغانيك ٠ أرفعه اليك لا طلبا للمثوبة ولا ابتغاء للشكر ولكن اظهارا لماتكنه جوانحى من العطف عليك ، والتعلق بك ، وهو بحمد الله لا يجمع بين دفتيه سوى ما يرضى الحق ويرضى هذا الفن الجميل ٠ ولقد يكون لى أن أهديه الى أحد أفرادك من ذوى الفضل جريا على العادة ، ولكنى رأيت الجموع خيرا وأبقى » ٠

* * *

بهذه الكلمات الســـاذجة النبيلة افتتـــح أبو ماضى ديوانه وخط السطور الأولى من صفحة ناضرة فى ديوان الشعر العربى ٠ ولا شك أن التأمل فى هذا الاهداء يشير الى أن الشاعر سيتخذ له سبيلا غير ما ألف الشعر العربى ، فهذا شاب لا يجمع فى ديوانه الا مايرضى الحق ويرضى هذا الفن الجميل ، ولقد كان كبار شعراء

جيله يعرفون ما يرضون به الفن الجميل ،ولكنهم لا يعرفون مايرضون الحق ، ولسنا نجد فى هذا الديوان مدحا لأحد الا الرثاء لأقطاب الوطنية والاصلاح فى مصر مثل محمد عبده ومصطفى كامل ، بل نجده ينفعل بالأحداث التى تمر بها مصـر انفعالا يشبه مايجيش فى صدور من كان يطلق عليهم فى ذلك الوقت غلاة الوطنيين ، كالمنتمين الى الحزب الوطنى وجماهير الشعب المنتفضة بالحماسة ٠

نشر الشيخ عبد العزيز جاويش فى مايو سنة ١٩٠٩ مقالا عنيفا بصحيفة اللواء بمناسبة ذكرى دنشواى ، رأت فيه الحكومة اهانة لقضاة دنشواى فقدمت الشيخ الى المحاكمة بتهمة القذف ، وصدر الحكم وحبس الشيخ وقال أبو ماضى :

لئن حجبـــوك عن مقـــل الـــبرايا

فما حجبـــوا هــواك عن الصـــدور

وان تك قد حبســـــت وأنت حـــــر

فكم فى الحبس من أســــد هصـور

وحســـبك عطف هذا الشـعب فخرا

وحســـب عـداك تانيب الضــــمير

وبعد ذلك بشهور ثارت أزمة مد امتياز شركة قناة السويس ، وعرض الأمر على الجمعية التشريعية وانقسمت مصر بين قلة مؤيدة ضالعة مع المصالح الاستعمارية ، وكثرة رافضة معارضة ، وكان موقف الشاعر اللبنانى النازح مع هذه الكثرة التى لم تستطع ان تغلب الا حين سفحت دم رئيس الوزارء ٠

منعوا الصــحافة أن تبث شــكاتنا

منعوا الكواكب أن تبين وتشــــرقا

وســـعوا الى سلب القناة فأخفقوا

ســعيا ، وشــــاء الله الا نخفقـــا

ابنى الــكنانة لســــتم ابنـــاءها

حتى تقـــوا مصـــر البـلاء المطبقا

ولكن الشاعر يهجر مصر بعد ذلك بقليل ، مصر التى أحبها ، وشهد فيها تفتح موهبته وأصدر فيها ديوانه الأول الذى لم يكتب عنه الا أنطون الجميل ، رغم أن معظم صحف ذلك العهد كانت تحت أيدى اللبنانيين ، ويقول الشاعر بعد ذلك بسنوات قليلة فى أول ديوان اصدره بالولايات المتحدة :

الشــرق تاج ، ومصــــــر منه درته

والشرق جيش ومصــر صاحب العلم

هيهـــات تطرف منهـــا عين زائرها

بغير ذى ادب او غـــير ذى شـــمم

احنى على الحـــــر من أم على ولد

فالحر فى مصر كالورقاء فى الحـرم

مازلت والدهر تنبـــو عن يدى يده

حتى نبت ضـــلة عن ارضـها قدمى

جزى الله الشاعر عن مصر ، سيدة الزمان ، الجميلة المرهقة، جزاه عنها بأكرم ما فى السموات من شآبيب رحمة وأنفاس رضوان . فلاشك أن من أحب مصر ، فقد أحبه الله .

ـ ٣ ـ

بعد سنوات قلائل فى الولايات المتحدة أصدر ايليا أبو ماضى الجزء الثانى من ديوانه ، كان ذلك فى عام ١٩١٩ ، وأبو ماضى فى التاسعة والعشرين من عمره فى رأى مؤرخيه ، وفى الخامسة والثلاثين أو حولها كما نرجح ، وهو فيه يشكو الشيب الوافد ، فيقول :

لقد صحبت شبابى واليراع معا

أودى شبابى ، فهل أبقى على قلمى

كأنما الشعرات البيض طالعة

فى مفرقى أنجم أشرقن فى ظلم

تضاحك الشيب فى رأسى فعرض بى

ذو الشيب عند الغوانى موضع التهم

قل للتى ضحكت من لمتى عجبا

هل كان ثم شباب غير منصرم

كانت نغمة القرار فى هذا الديوان هى أذكار المواطن القديمة : مصر ولبنان ، والبكاء لهما وعليهما ، وترويض النفس على الحياة فى هذا العالم الجديد ، والأمل الحلو أن تكون هذه الاقامة مثمرة مالا وتجربة . ان « أبا ماضى » فى هذا الديوان يستأنف النغمات

المتناثرة فى تذكار الماضى · لقد هجا فى « تذكار الماضى » رجال الدين المفرقين بين فئات الشعب ، والجهلة المتصدرين من أصحاب السلطة ، وضعاف النفوس المتواطئين مع الاستعمار ، وهو يعود الى هذه النغمة بين حين وآخر :

(نيويورك) يابنت البخـــار بنا اقصدى

فلعلنـــا بالغرب ننســـى المشـــرقا

وطـــن أردنـــاه عـــلى حب العـــلا

فأبى ســـوى أن يســـتكين الى الشـــقا

كالعبـــد يخشى بعـــد ما افنى الصـــبا

يلهـــو به ســـاداته أن يعتقـــا

اوكلمـــا جـــاء الزمان بمصـــلح

فى أهـــله قـــالوا : طغى وتزندقـــا

فكانمـــا لم يكفـــه ما قد جنـــوا

وكانمـــا لم يكفهم ان اخفقـــا

هـــذا جـــزاء ذوى النهى فى امـــة

اخـــذ الجمـــود على بنيهـــا موثقـــا

وطن يضـــيق الحـــر ذرعـــا عنـــده

ونراه بالأحـــرار ذرعـــا اضـــيقا

ما ان رايت به أديبـــا موســـرا

فيمـــا رايت ولا جهـــولا مملقـــا

مشـــت الجهـالة فيه تسـحب ذيلها

تيهـــا ، وراح العـــلم يمشى مطـــرقا

أمســى وامســى أهــله فى حـــالة

لو انهـــا تعـــرو الجمـاد لا شـــفقا

شـــعب كما شـــاء التخاذل والهـــوى

متفـــرق ويـــكاد ان يتمـــزقا

لا يرتضـــى دين الاله موفقـــا

بين القـــلوب ويرتضـــيه مفـــرقا

مســتضعف ان لم يصـــب متملقـــا

يومـــا تمـــلق ان يرى متملقـــا

لم يعتقـــد بالعـــلم وهو حقـــائق

لكنـــه اعتقـــد التمـــائم والـــرقى

وحكومه ما ان تزحـــزح احمقـــا

عن راســـها حتى تولى احمقـــا

بيتـــا الاجـــانب يعبثـــون بهـــا كما

عبث الصـــبا ســـحرا باغصـــان النقا

(بغداد) فى خطـــر و (مصـــر) رهينة

وغـــدا تنـــال يد المطـــامع (جلقـــا)

وبهذا الديوان تطوى المرحلة الأولى من رحلة « ابى ماضى » فى أرض الشعر ، وهى بداية يستوقفنا فيها ـ كما سبق ان أسلفت ـ هذا التوجه بالشعر الى الناس ، ويريد منهم أن يقرأوه ويحبوه ، ويحدثهم حديث الناصح الشفيق ، وتلك هى البداية التى ازهرت فى دواوينه اللاحقة ، والتى نجد ترجمة اهدائها النثرى الى لغة الشعر فى افتتاحية ديوانه « الجداول » حين يقول :

يا رفيقى انا لولا أنت ما وقعت لحنـــــا

كنت فى ســـرى لما كنت وحـــدى اتغنى

البس الروض حـــلاه انه يوما ســـيجنى

هذه أصـــداء روحى ، فلتكن روحك اذنا

يا رفيقى أنت ان راعيت فجرى كان أسنى

واذا طفت بكرمى زدته خصـــبا وامنـــا

قد سكبت الخمر كى تشرب فاشرب مطمئنا

واسق من شـــئت كريما لا تخف أن تتجنى

كلما أفرغت كأســى زدت فى كأســى دنا

فهى بالانفاق تبقى وهى بالامســـاك تفنى

لســـت منى ان حسبت الشعر الفاظا ووزنا

خالفت دربك دربى وانقضـــى ما كان منا

وقد يستوقفنا فى هذه المرحلة هذه النثرية فى أسلوبه ، وهى النثرية التى يلمح اليها ازدحام الفكر وقلة التجربة ، وستجده فى

دواوينه اللاحقة يوفق فى كثير من قصائده الى أن يجعل من هذه النثرية شعرا بما يبلور فيها من خاطرة ثاقبة أو يحكم لها من صياغة وسبك ٠

وربما استوقفنا فى أسلوبه هذا الولع بالمطابقة والمقابلة ، والتقسيم ورد عجز البيت على صــــدره ، وتلك بقية من النزعة الخطابية فى الشعر العربى التقليدى . وســـوف نرى هذه النزعة تنضج فى شعره القادم ليستخرج منها بعضا من الحكمة أو الفكاهة، أو ليستوعب المعنى تفريعا وتجلية وتنويرا ٠

أما تلمذته الشعرية فى هذا العهد فقد كانت لشعراء العرب الكبار ، وبخاصة المتنبى وأبى العلاء ثم لشاعر مصر الشهير آنذاك « حافظ ابراهيم » ٠ حتى لتوشك بعض قصائده أن تكون معارضـــة واضحة لقصائد حافظ فى ذات الغرض والأفق ٠

يفاجئنا ايليا أبو ماضى فى « الجداول » (صدر عام ١٩٢٥ بمقدمة لميخائيل نعيمة) بتحول كبير ، ولم يكد يمضى على ديوانه الثانى الا أعوام قلائل ، وكأن الشاعر قد انطلق انطلاقة الســـهم المسدد ، فبلغ غايات لم يكد يعرفها الشعر العربى من قبل ٠ وقد تعزينا هذه الانطلاقة بأن نرسل سؤالا ما أظن أن أحدا قدعنىبالاجابة عنه اجابة محددة ، وهو أثر هذه السنوات التســـع التى أقامها بالولايات المتحدة فى هذا التجدد المنطلق ٠

ولعل من فضول القول أن نذكر أن « أبا ماضى » لـــم يتلق تعليما منظما فى صباه بلبنان ومصر ، بعكس ميخائيل نعيمه ، الذى لم يهاجر الى أمريكا الا بعد أن ثقفته المدارس المختلفة التى تردد عليها فى لبنان وفلسطين وروسيا ، ولم نكن لنحرص على ذكر ذلك الا لنشير الى المقدرة الذاتية لأبى ماضى على الاستيعاب والتحصيل

ونحن لا نشك فى انه حرص على تعلم الانجليزية حين وصل الى الولايات المتحدة ، لا انجليزية البيع والشراء ، ولكن انجليزية القراءة والاطلاع • ومن الأسف أنه لم يحدثنا كثيرا عن تجربته وفصول حياته ، ولكننا نستطيع أن نتلمس هذه النقلة الواسعة فى ديوان الجداول ، وأن نعلل لها ، وأن نرد كثيرا من مظاهرها الى الثقافة الأمريكية الشائعة فى عصره ، أو الى لقاء هذه الثقافة بالثقافة العربية من ناحية ، وبفكرة الشاعر الشخصى واحساسه المبكر المتميز من ناحية اخرى •

لا نريد أن نقول أن الشـــاعر قد فطن فى تلك السنوات الى الدعوات الجـــديدة فى الأدب الأمـــريكى والاوروبى كالرمـــزية والسيريالية أو كاقدام اليوت على فرنسة القصيدة الأمريكية ، ولكن لابد أنه قد تنفس هواء الثقافة الأمريكية والتقليدية ، وعاش فى مناخها •

كانت امريكا فى ذلك الوقت مازالت تعيش على تراثها الأمريكى الخاص ، متمثلا فى والت ويتمان ورالف والدو امرســون وهنرى دافيد ثورو • كان هؤلاء الثلاثة هم أشهر اعلام الفكر الأمريكى الذى لم يهاجر بعد الى القـــارة الأوروبية لكى يفيد من جيشانها وانطلاقها،وهم ميراث القرن التاسع عشر لأمريكا القرن العشرين •

أما والت ويتمان ، فقد كان نبيا فى هيئة شاعر ، يتحدث بتلك النبرة النبوية التى يتحدث بها انبياء العهد القديم ووعاظ العصــر الحديث • وهو نبى شعبى ان صح التعبير • مشـــغول بقضـــايا الديمقراطية والحق والعدالة • ولقد ضاقت بويتمان قيود الشعر الانجليزى الموروث أو ضاق بها ، فآثر اسلوب الشعر الحر فى التعبير عن أفكاره وآرائه • ولابد أن نجد ملامح من والت ويتمان عند ايليا

أبى ماضى ‥ تلك اللهجة المنطلقة فى الحديث ، والاتجاه الى العقل أو الى القلب عن طريق العقل٠ولاشك أننا نلمح فى حديث أبى ماضى الى قارئه فى افتتاحية ديوانه ظلالا من مطالع قصيدة ويتمان الطويلة « أغنية الى نفسى » كما أن هذه النغمة السارية من التسوية بين الأضداد ‥ الخير والشر ، والفساد والطهر ، والهزيمة والنصر ، ثم هذه المصالحة العميقة بين الروح والجسم وهى معان يحفل بها ديوان الجداول ، كثيراً ماتتردد فى شعر ويتمان ٠

يقول ويتمان فى افتتاحيته :

احتفل بنفسى ، واتغنى بنفسى ٠

وكل ما أدعيه أنا عليك (ايها القارىء) أن تدعيه ٠

لأن كل ذرة تنتمى الى تنتمى اليك ٠

ويقول أبو ماضى فى أول قصائد ديوان الجداول :

يا رفيقى ! انا لولا انت ما وقعت لحنا ٠

كنت فى سرى لما كنت وحدى اتغنى ٠

ولسنا نريد أن نتتبع تأثرات أبى ماضى بويتمان ، ولا نفع لذلك لو أردناه ، ولكننا نريد أن نقول انه استطاع أن يعرف الروح السارية فى الموروث الأمريكى الأدبى ، وقد تكون دعوته الى البراءة والعودة الى الغاب فى بعض الأحيان أثرا لفكر « ثورو » المفكر الأمريكى الداعى الى الامتزاج بالطبيعة والحياة فى صفائها ، والتخلص من تعقيدات الأنظمة الحديثة وجورها على فردية الأفراد واستقلالهم النفسى ٠

يرى بعض المؤرخين أن شعراء المهجر الأمريكى الشمالى لم يتأثروا قط بالثقافة الأمريكية · وقد أكد ذلك ميخائيل نعيمه فى حديث له الى الدكتورين احسان عباس ويوسف نجم مؤلفى كتاب « الشعر العربى فى المهجر » ولكن القضية فى رأيى هى مدى التأثر وعمقه · أما مداه فلا أحـــد يزعم أنهم كانوا متابعين متابعة جادة للحياة الثقافية فى تلك البلاد خلال الثلاثين أو الأربعين عاما التى عاش معظمهم فيها بحيث يتلمسون كل بادرة من التجديد ، ويطلعون على كل اثر هام من آثار الفكر · ولكن لابد أن الرياح العامة الشاملة للثقافة الأمريكية قد مستهم ، خاصة ، وقد عاش أعلامهم فى احدى العاصمتين الثقافيتين فى أمريكا ، نيويورك وبوسطن · ولابد أنهم كانوا يقرأون الصحف والمجلات ، ويلتقون ببعض المثقفين من أهل البلاد · فلعلهم عندئذ استفادوا هذاالقدر الشائع من الثقافة الأمريكية التقليدية ، وان كانوا لم يعرفوا تفاصيلها حق المعرفة كما عرفها ميخائيل نعيمه الذى تلقى نى أمريكا تعليما جامعيا ، بعد أن درس الأدب دراسة منظمة فى فلسطين وروسيا ·

— ٥ —

ديوان الجداول هو أرفع نتاج الشـــاعر ، كتبه بين أعوام ١٩١٩ ـ ١٩٢٥ · وفيه توضحت المشاغل الملحة للشاعر وقال كلماته التى امتلأت بها نفسه فى تلك السنوات · وظلت منها أصداء عبر عنها فى ديوانه اللاحق « الخمائل » حتى اذا جمع الناشرون بعض قصائده التى قالها بعد عام ١٩٤٠ ، واختاروا لها عنوان « تبر وتراب » كان التراب فيها أغلب من التبر ، أو كان التبر مختفيا ناحلا فى عروق التراب ·

كتبت قصائد ديوان الجداول (فى رأينا) بين الخامســـة والثلاثين والخامسة والأربعين ، وتلك هى سنى النضج الحكيم التى

تتوجها المرانة والدربة · ولاشك أن «ايليا أبو ماضى» كان قد استفاد فى تلك الفترة من علاقته بأقطاب الرابعة القلمية،وسخطكمايسخطون على الطابع التقليدى للشعر العربى ، لذلك قل فى هذا الديوان شعر المناسبات الذى يحفل به ديواناه اللاحقان ، وأخلص الشاعر الى أفكاره يدور حولها قصيدة اثر قصيدة ، ومحاولة بعد محاولة ، وكأنه انتهى من هذه الأفكار جملة بعد صدور الخمائل ، أو كأنه عاد بعد أن مات أو عاد للوطن معظم أصحابه من أعضاء الرابطة القلمية الى التقليدى للشـــعر العـــربى حتى نجده يقول فى حفلة تكريم أحد الشعراء :

عادت رياض القوافى وهى حـــالية
وكان صوح فيها الزهر والعشـــب
واســـترجعت دولة الأقـلام نخوتها
وكان أدركهـا الاعيـــاء والتعب

أن دورة الشاعرية عند « ايليا أبو ماضى » مثل قوس يبدأ بداية متواضعة لا يشفع لها الا النوايا الطيبة ، ثم مايلبث أن يمتد متعاليا حتى يصل الى قمته ، فيظل فيها مدى من الزمان ، ثم يعود مرة ثانية الى ما يشبه نقطة البداية ·

ولسنا نعلم هل كان ذلك لأن سنوات نيويورك وبوسطن الخصيبة كانت قد انصرمت بوفاة جبران عام ١٩٣١ وعودة ميخائيل نعيمه بعد ذلك بعام الى الوطن · وقد كان جبران ونعيمه هما أصلب أدباء المهجر عودا وأوسعهم ثقافة وأكثرهم احتواء للتقليدية العربية ، وهما اللذان كتبا لايليا أبى ماضى مقدمتى ديوانيه « ديوان أبو ماضى » ١٩١٩ ، و « الجداول » ١٩٢٥ · ولعل ذلك يشير الى أن الشاعر

يحتاج الى بيئة تتلقى وحيه ، وان هذه البيئة تستطيع ان تجعل الشاعر يطمح الى تحقيق ما تطلبه منه اذا كانت بيئة مستنيرة مدركة لرسالة الشعر والشاعر ٠ وليس المراد بالبيئة ان تكون جمعا كبيرا من الناس ٠ بل لقد تكون بضعة أفراد يأنس اليهم الشاعر ، ويثق بتقديرهم ، ويريد ان يتحدث اليهم بما كتب ٠ ولعل هذه البيئة الثقافية هى ما افتقده أبو ماضى فى سنواته العشرين الأخيرة بالمهجر ٠

كانت صورة الشاعر عند أبى ماضى صورة مشرفة فى ديوانه الجداول ، عميقة وجميلة ، كان الشاعر انسانا له وجود شرعى معادل لوجود الحاكم أو الفيلسوف أو النبى او القائد ، بل انه ليغلو حتى يقول ان الله شاعر :

كم خفضـــنا الجنـــاح للجـاهلينا
وعـــــذرناهم فمــــا عذرونــــا
خـــبرونا يا ايهـــــا الـــعاقلونا
انما نحـــن معشـــر الشـــعراء
يتجلـــى ســـر النبـــوة فينـــــا
لو دخـــلتم هيـــاكل الالهـــــام
وســـرحتم فى عـــــالم الأحـــلام
واجتليتم ســـــر الخيال الســـامى
وعرفتـــــم كمـــا عرفنـــا الله
لخررتـــم امامنـــا ســــاجـــدينا
قد ســــقتنا الحياة كاســـا دهـــاقا
حســــــنت نكهة وطـــابت مذاقـــا
وســـــقينا مما شـــــربنا الرفاقا

فتركناهـــم حيـــارى ســـكارى
يتمنـــون أنهـــم لا يعـــــون
همكم في الـكئوس والأكــــــواب
آه لو كان همكم في الشـــــراب
لطرحتم عنكم قيـــود الـــتراب
وشعرتـــم بلــــذة أو عـــذاب
هذه الخمـر ليتكـــم تشـــربونا

ليس الشاعر اذن عبثيا طفيليا على الحياة ، بل هو كاشـــف جمالها ومسدد خطاها ومنسم وجودها ٠

عندما ابدع هذا الـــكون رب العــــالمينا
ورأى كل الذى فيه جميــــــلا وثمينــا
خلق الشـــاعر كي يخلق للنـــاس عيونا
تبصـــر الحســـن وتهواه حراكا وسكونا
وزمانا ومـــكانا وشـــخوصا وشـــئونا
فارتقى الخـلق وكانوا قبله لا يرتقـــونا
واستمر الحسن في الدنيا ودام الحب فينا

ولعل هذه الصورة للشاعر هى التى حددت له افق الشاعر وأرضه ٠ فللشاعر رسالة مقدسة حتى يكمل دور الاله فى الخلق ٠ وهنا اتسع أفق « أبى ماضى » سواء فى أفكاره أو فى اسلوبه ، فهو يدعو الى الاهتمام بجوهر الأمور أو الأشياء ٠ وما المجد والقوة والثروة الا اغراض زائلة ٠ فالغنى قد يسرق صندوق ماله ، والقوى لا يقوى على رد الريح أو الداء أو الموت ، والمجاهد لم ينل المجد

ألا هبة خلعته عليه قلوب طيبة دون من أو أذى · ووراء هذا كله جوهر أو جواهر لعل أولاها بالتقدير هو هذه الحقيقة الحسناء التى هبطت على الانسان من المحل الأرفع كما يقول ابن سينا ، حين فارقت النور الكلى الى نفس الانسان أو عقله ، والتى يولع بها أبو ماضى كما يقول فى قصيدته التى يستعير لها وزن قصيدة ابن سـينا وقافيتها :

انا لسـت بالحسـناء أول مولع	هى مطمع الدنيا كما هى مطمعى
فاقصص على اذا عرفت حديثها	واسكن اذا حدثت عنها واخشع
المحتها فى صورة ·· أشهدتها	فى حالة أرأيتها فى موضـع
انى لذو نفس تهيم وانهـا	لجميلة فوق الجمـال الأبدع
ويزيد فى شـوقى اليها انها	كالصـوت لم يسفر ولم يتقنع
فتشت جيب الفجر عنها والدجى	ومددت حتى الكواكب أصـبعى
فاذا هما متحيران كلاهمـا	فى عاشـق متحير متضعضع
وعلمت حين العلم لايجدى الفتى	أن التى ضـيعتها كانت معى

تلك هى الحقيقة الباطنة فى النفس أو الواردة اليها يوم أعطى الله هذه النفس حياتها ، فهى تستخفى فيها ، وما على الانسان الا أن يستبطن ذاته لكى يدرك اسرارها ، ولكن دون ذلك الاستبطان أن تصفو عين الانسان وتنصرف عن الأعراض العابرة وهيهات ·· هيهات !

ولكن هناك حقائق أخرى ظاهرة لا ينفع فيها الجدل ولا يفيد المراء · حقائق الجسد والنشوة ، والطبيعة والكائنات · وهى ليست

خقائق مطلقة ، ولكنها حقائق نسبية ، يصورها كل انسان لنفسه كما يشاء :

صـــور فى نفوســـنا كائنات ترتديها الأفعـــال والأشـــياء
رب شىء كالجوهر الفـــرد قد عودته الأغـراض والأهـــواء
كل ما تقصـــــر المدارك عنه كان مثلمـــا الظنون تشـــاء

وكل هذه الحقائق ، أو الأعراض الشـــبيهة بالحقائق كلها تتساوى فى عين الفطن اللبيب ، اذ أن ذرة الرمل ككل الرمال ، ومن عز كمن هان ، ولعل هذه النغمة تبلغ ذروتها حين يصبح الأحياء كالموتى والأمس كالغد ٠

لقد كان فى آمس ما قبـــــله وفى غـــــده يومك المقبـــــل
عجبت لبـــــاك عـــلى أول وفى الآخـــر النـــائح الأول
هم فى الشـــراب الذى نحتسى وهم فى الطعـــام الذى نأكل
وهم فى الهـــواء الذى حولنا وفى ما نقـــول وما نفعـــل
ومن حسب العيش دنيا وأخرى فذا رجـــل عقـــله أحـــول
قبـــل كبعـــد ، حالة وهمية امس انا ، يومى انا ، انا غدى

ان دون الحقيقة الكبرى ألف الف غطاء كما يقول الشاعر ، والحقائق الصغرى جارت نسبيتها على صدقها ، فليعش الانسان اذن مطمئنا الى حيرته ، ومطمئنا أيضا الى انسانيته ، ليجن من اللذات ماينعش به نفسه دون أن يجور على أحد ، وليمنح الشعراء على الحياة من المعانى الجميلة مايلهمهم الخيال والحب ، ولنبتسم فان فى الأرض والسماء من التجهم ما يكفى ليثقل قلب الانسان ٠

كان الأسلوب الأثير الذى اختاره أبو ماضى هو أن يصل الى القلب عن طريق العقل ، لذلك فانه يعنى بتفريع المعنى وتجليته، سواء أكان ذلك باستخراج تفاصيله أو بضرب الأمثال مستعملا التشبيه ، أو ذاكرا لنظائر تلك الحالة من الحالات الأخرى ، ولعل هذاهو دليلنا الى مانجده عند ايليا أبى ماضى من ولع بضرب الأمثال ، هذه الأمثال التى لا نستطيع أن نسميها قصصا ، ولكنها نوادر صغيرة مما يجرى نظيرها على ألسنة العامة والحكماء على السواء حين يريدون أن يصلوا الى اقناع من يحدثون بفكرة من الأفكار •

من أجمل قصائد الأمثال عند أبى ماضى ، قصيدته التينة الحمقاء ، وهى تهدف الى غرض ساذج نبيل •• ان على الكائن أن يعطي دون أن ينتظر جزاء ، ففى هذا العطاء حياته :

وتينة غضة الأغصان باسقة

قالت لأترابها والصيف يحتضر

بئس القضاء الذى فى الأرض أوجدنى

عند الجمال ، وعندى غيره النظر

لأحبسن على نفسى عوارفها

وليس لى ، بل لغيرى الفىء والثمر

لذى الجناح وذى الأظفار بى وطر

وليس فى العيش لى فيما أرى وطر

انى مفصلة ظلى على جسدى

فلا يكون به طول ولا قصر

ولســـت مثمـــرة الا على ثقـــة

ان ليس يطـــــرقنى طير ولا بشــــر

* * *

عاد الـــربيع الى الدنيـــا بموكبه

فازينت واكتســت بالســندس الشجر

وظلت التينة الحمقــــاء عــــارية

كانهـــا وتد فى الأرض او حجـــــر

ولم يطق صــاحب البســـتان رؤيتها

فاجتثهـــا فهوت فى النار تســـتعر

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به

فانه احمق بالحــــرص ينتحــــر

ومثال هذه القصيدة كثير فى شعر « ابى ماضى » وكثيرا ما ينضج ليتكون منه هيكل قصصى ، نجد مثاله فى مطولاته « الأشباح الثلاثة » و « الشاعر والملك الجائر » وغيرهما ٠

* * *

سيظل فضل ابى ماضى العظيم انه احد الذين ردوا العقل الى الشعر ، وكفى بهذا فضلا ٠٠

نبض الفكر ١٩٨٠

مـــوت شـــاعر عظيـــم

ســـــان جون بيرس

فى العشرين من سبتمبر ١٩٧٥ ، مات الشاعر الفرنسى سان جون بيرس عن ثمانية وثمانين عاما ، أنفق منها ستين عاما على الأقل ، وهو مرفوع الشراع فى بحار التجربة الشعرية ، منذ اصدر مجموعته الأولى « مدائح » فى عام ١٩١٠ حتى عهد قريب حين وقفت به السن عن التوق الى الرحلة وراء المعنى والخاطر ، فى غياهب أسرار اللغة والمجاز ٠

ولقد بحثت فى كل صحفنا الصادرة منذ ذلك اليوم حتى الآن ، ونقبت فى صفحاتها التى تزعم أنها تخصصها للأدب والفن ، لعلى أعثر على سطر يتيم ينعى للقارىء العربى هذا الشاعر العلم او يطلب له بعض طيب الذكر عند أجيال لاحقة من هواة الشعر ومحبيه ، ولكن صحفنا كانت مشغولة بمسلسلات رمضان تارة وبرفع بطلات الشاشة لأجورهن تارة أخرى ، فلم تفطن الى خبر لابد أن وكالات الأنباء قد أبرقت به اليها على الآلات المبرقة ، ولابد أيضا أنها قد شفعته ببعض السطور عن هذا الشاعر الفقيد ٠ ولكن كيف لصحفنا أن تنتبه لهذا كله ، والرجـل ليس الا شـــاعرا ، لا وزن له مهما يعظم الا وزن الشـــاعر ٠

لنقل بعض الحقائق عن سان بيرس تزكية له عند صحافتنا ٠٠ لنقل انه أنفق معظم حياته سـفيرا وموظفا كبيرا فى الخارجيـة الفرنسية ، أووكيلا دائما للوزارة ، ولنقل ايضا شيئا طريفا لعله يغوى هواة المسلسلات ، فاقد كان الشـاعر يحيا تحت اسـمين مختلفين ، أما اسمه الذى يمارس به حياته الادارية والدبلوماسية فقد كان « الكسيس ليجيه » وبه يتلقى خطاباته ويصرف راتبه وتحت مظلته يطيع أوامر رؤسائه ، ويظل لاسمه القلمى صفاؤه من شوائب الدنيا وشواغلها ٠

ولنقل أيضا ـ ولصحافتنا ضعف واستخذاء تجاه هذا الأمر ـ انه كان حاصلا على جائزة نوبل فى عام ١٩٦٠ ٠

ذلك هو بعض ما يشفع له عند محررى الصفحات الادبية ، أما ما قد يشفع له عند بعض الأجيال اللاحقة من محبى الشعر ، وبخاصة أصدقائنا الشباب المولعين بالغموض ، والذين يرددون ان الشعر هو فن امتلاك العالم بالكلمة ، وأن الشاعر يخلق لغته كأنه سيميائى يحول نحاس الكلمات الرخيص الى ذهب العبارة الشعرية المتألق ، هؤلاء الشباب لعلهم لا يعرفون أنهم يرددون مقولات قالها النقاد عن سان جون بيرس ٠ ولعلهم لا يعرفون أنهم يتأثرونه وان لم يقرأوه ، فهم يتأثرونه منقولا اليهم بتأثيره فى شعراء آخرين ممن أطلوا على التجربة الشعرية من خلاله ٠ وأنه لأحب لهم أن يقرأوه فى ترجمة طيبة ، واذكر عندئذ ترجمة ت ٠ س ٠ اليوت لمجموعته « اناباس » مع التأمل فى مقدمتها الرفيعة ، كما أذكر ترجمات أخرى بالانجليزية مثل ترجمة مجموعة « المنفى » لديفلن ٠

وأنا هنا أقدم المقطع الأول من قصيدته « اناباس » ، والاسم مستوحى من قصيدة طويلة للشاعر الاغريقى اكزينوفون بنفس الاسم عن حملة قام بها الأمير كيروش ابن دارا الثانى الفارسى ضد أخيه

ارتاكسرسس الذى تولى العرش بعد أبيه · أما المعنى الحرفى للكلمة فهو الرحلة من شاطىء البحر الى قلب البلاد · وهى هنا رحلة باطنية من شطوط المعرفة والاستنارة الى أعماقهما :

على فصول ثلاثة عظيمة ، ثبت اركانى ، متبعا الشـــرف ، واجدت النبوءة للأرض التى ارسيت فيها شريعتى ·

الأسلحة جميلة فى الصباح · والبحر

وحين أبحنا لخيولنا الأرض مهادا جنينا هذه السماء التى لن تفسد والشمس بلا اسم · ولكن عنفوانها بيننا

والبحر فى الصباح كأنه حدس الروح

أيتها القوة ، لقد اعتدت ان تغنى فوق طرقنا الليلة فى جلوة فكرة الصباح النقية ، ماذا قد نعلم عن الأحلام ·· حقنا فى وراثة الملك

ولأجل عام آخر معك · ياسيد البذور ، ياسيد الملح ، وشئون الدولة المتعادلة !

لن ادعو الناس من شطوط اخرى · لن ارسم خارطة مدن عظمى على منحدرات المرجان المسحوق

ولكنى اريد ان احيا بينكم

المجد فى علاه لأعتاب الخيام ! ان قوتى بينكم · والفكرة النقية كالملح تقيم موازينها فى النهار

والآن وقد اعتدت ان أعمر مدينة احلامكم ، وان اقرر بضاعة روحى النقية فى أسواقكم المهجورة ، خفيا فى وسطكم ، وسريعا كريشة ، نحن نار فى الريح المفتوحة

ايتها القوة ، لقد اعتدت ان تغنى على طرقنا الزاهية

كل رماح الروح تنتهى الى فرحة الملح • بالملح سوف استعجل افواه الرغبة الميتة ! ان ذلك الذى لم يشرب مياه الرمل فى خوذة ، مباركا عطشه ، فلن اثق به فى تجارة الروح ••

والشمس لا اسم لها ، ولكن قوتها بيننا •

ايها الرجال •• يا اهل التراب من كل الطرقات ، يا اهل العمل واللهو ، يا اهل الحدود ، ويا أهل كل الأمكنة ، يا من لا وزن لهم ، فى ذاكرة هذه الأمكنة ، ويا أهل الوديان والنجاد ، ويا اهل أعلى المنحدرات التى تهوى الى شواطئنا • أنتم يا من تشـمون النـذر والبذور ، ويا من تبوحون لأنفاس الريح فى الغرب ، ويا من تتبعون الطرق الضيقة وفصول السنة،ويا من تنتضون الخيام فى ريح الفجر الواهنة ، ويا من تبحثون عن ينابيع المياه فى قشرة الأرض ، أيها الباحثون ، ايها الواجدون الأسباب لانطلاقكم الى مكان آخر ، لن تجدوا ملحا تتجرون به أعظم من هذا الملح ،

فى الصباح ، حين تلوح رموز الممالك والمياه الميتة معلقة على دخان العالم ستستيقظ طبـول المنفى على الحدود الأبدية تتثاءب على الرمال •

نبض الفـكر ١٩٨٠

على مشـــارف الخمســين

سلسلة مقالات فى
الدوحة من ابريل ١٩٨٠ حتى مايو ١٩٨٠
جمعت ونشرت فى كتاب
مستقل بنفس هذا العنوان

العجــوز والجريــدة

اتقدم الآن نحو الخمسين ، ولو اســـتطعت أن أوليها ظهرى لأعود الى أيامى السالفة القديمة لفعلت ، فأنا أحس بوطأة مقدمها وبينى وبينها سنة وبضعة شهور ، فكيف لو سقطت فى هوتها مسلوب الحول ، ولكن هكذا مضت الأيام ، وسقط يوم ميت فى آخر مولود حتى انتبهت ذات مساء أو صباح فاذا العمر فى مغربه ·

يومئذ ، أو ليلتئذ ، لا أدرى أحسست ذلك الاحساس الذى يجسمه لنا الوجوديون ، حين يحدثوننا عن ذلك الشخص الجالس فى قاعة السينما ، يتأمل الشريط المعروض ، ويعايش أبطاله الذين توشك الحياة أن تدب فى عروقهم · وينفعل بفصول القصة المتتالية ، وقد يتخذ لنفسه مثالا من احد أبطال القصة ، فيحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ، ويعشق لعشقه ، ويكاد يتوهم أن ما يراه واقع دافىء بصخب الحياة وعنفها ، وفجأة ينقطع التيار الكهربائى ، ويتوقف الشريط ، ويعود المتفرج الذى أوشك أن يكون مشاركا الى ذاته الفقيرة ، ووحدته الباردة ويدرك فجأة أن ما رآه كان خيالا ، وما ارتداه من أحاسيس كان قناعا ، وأن الرواية لم تكن عن حدث وقع ، بل رواية عن خيال سانح ووهم ملفق ·

ولكنى عشت هذه السنوات بحق وألم وتأمل ، الا أن يسقط منها

سنوات الطفولة الأولى ، وليس توهمى لها كشريط من الوهم والصور الملفقة الا محاولة للتخلص من وطأة ذكرياتها ، ونير أحزانها ، فلست أذكر فى هذه السنوات فرحا خالصا الا ظلالا كالسحاب العابر ، وان كنت أذكر فيها لى ولمن حولى كثيرا من الخيبة الممضة والألم المقيم ·

يأسف ابراهيم ناجى فى بعض أبياته انه قد عاش حتى رأى الكون مقلوبا على رأسه ·

عشـــت وامتدت حياتى لأرى فى الثرى ما كان قبلا فى القمم

انهيــــار المثـــــل العليـــا وانـــكار الـــكرامات وكفـــرا بالقيم

واذا انحط زمـــــان لم تجد عــــاليا ذا رفعـــــة الا الألم

وأنا أيضا عشت لأرى الكون مقلوبا على رأسه ، بل تفتحت عيناى فى شبابى والكون مقلوب على رأسه ، وكان حلم حياتى ، أنا وجيل من أصحابى أن نعدل هذا الكون المقلوب ، وأدركنا اليأس بعد قليل أو كثير ، ثم مالبثنا أن وقفنا على رؤوسنا لكى نستطيع أن نتواصل بالحياة والبشر ·

واسأل نفسى أحيانا ··

أليس ذلك الشعور هو ما يخامر جميع الناس حين يهبطون جانب التل ، اذ يدركون أن الحياة قد أعطت لهم أملا واسعا وقدرة محدودة ، وأن ما تخايل لأعينهم فى أيام الصبا الذهبى كان مدى واسعا لا يمتلك الا لأهل الخطوة الماشين على الماء او السابحين فى الهواء ·· أليس الانسان محكوما عليه بالاحباط فى هذا الكون المتشابك المتناثر الشذرات ، وهل عرفنا كل ما كنا نريد ان نعرف ،

وقرأنا كل ما كنا نريد أن نقرأ من كتب ، ووطأنا كل ما كنا نريد أن نطأ من ارض ، وتجلينا فى عيون كل من أحببنا من نساء ٠

تعود الى ذهنى الآن قصيدة لشاعر اليونان السكندرى كفافيس، عن ذلك العجوز ، وأرجح الظن أنه الشاعر ، الذى يجلس على المقهى وحيدا محاولا أن ينبش فى ذهنه ليوقظ ذكرياته الحـــلوة ، ولكن الاحباط مايلبث أن يغزو روحه ٠

عجوز معه جريدة ـ يجلس وحيدا الى مائدة فى مقهى تحيط به الضجة ـ ولكنه غارق فى الذهول ٠

هذا هو المشـــهد الأول ، أو الســـينة الأولى بلغة الســينما والتليفزيون فى هذه الأيام ، وهو مشهد ظاهرى ، مشهد متلصص وكأن الراوى أدار بصره فى ميدان واسع من ميادين الاسكندرية ، لعله ميدان محطة الرمل ، أو محطة مصر ، بما فيه من مقاه متناثرة، وزحام من الغادين والرائحين ، والرجال والأمهـــات والحبالى ، والفقراء والصعاليك والمتأنقين ، وعربات الترام والخيل ، بل والحمير (كان ذلك فى أواخر عشرينات هذا القرن) ، ثم مالبث أن اجتذب هذا العجوز الذاهل فى وسط الضجة بصره ، فحاول أن يتسلل الى نفسه ٠٠

كان يفكر دون تورع فى مخاوف الشيخوخة ، ويتأسى حزينا لقلة ما استمتع بسنى عمره ٠

ما مخاوف الشيخوخة تلك التى داهمت العجوز ، أهى مخاوف فحسب ، أم هى احباطات ماثلة ، لنذكر عندئذ أبيات الشاعر العربى :

وهت عـــزماتك عند المشـــيب

ومـــا كان مـــن حقـــها أن تهى

واذكر نفســـك لمـــا كـــــبرت

فـــــلا هـــــى انت ولا انـــت هـــى

اذا ذكـــرت شـــــهوات النفـــوس

فمـــا تشتهى غيـــر أن تشتهى

واذكر أنى ما أحببت الجناس وغيره من المحسنات اللفظية كما احببته فى هذه الأبيات ٠٠ علقت بذهنى من عهد الصـبا ، ولعلى لا اذكر شاعرها ، ولا أريد أن أعتمد على الظن ، فيتصدى لى عندئذ محقق عالم ثبت طويل الباع ، فيصوبنى ،ويسخر منى ومن جهلى ٠

لقد أدرك الرجل أنه عجوز ـ ولا شك فى ذلك ـ ولكن أيام الشباب رغم ذلك مازالت تخايله ٠

آه لنا عندما نحلم بعودة الزمن المفقود ، ان كفافيس يتحدث عن قدرة الحس والبدن ، ولكنى كثيرا ما اذكر قدرة العقل ، اين هو الزمن الذى كنا نستطيع فيه أن نعانق أجمل الأفكار ، واصبا الأمانى ، واكثر الكتب اغراء واغواء ٠٠ أسال نفسى أحيانا لماذا لم اكتب بعض كلماتى المجنونة الباعثة على الجنون حين كنت ممتلئا بها ٠٠ لماذا لم أخرج فى رحلتى المستبسلة نحو الحقيقة واليقين طارحا عن نفسى ثوب التكلف الزائف ، طارحا عن قلبى عشـــاء الخوف المقيت ٠

ما اقصر طريق العمر ـ كان فى امسه الذاهب يؤمن بالتبصر والتعقل ـ ولكم خدعه هذا التبصر الكاذب فى لفظه ومعناه ـ كان يقول لنفسه : مازال هناك وقت لهذا الفعل أو ذاك ٠ فى يوم آخر سوف افعل ٠٠

التبصر ٠٠ أليس التبصر مثل الحلم ٠٠ كل حلم اتى بغير اقتدار حجة لجأ اليها اللئام ٠ ٠ان للخوف سبعة اقنعة اولها ادعاء

التبصر ، ولو مضينا مع المتنبى لقلنا ان احتمال البلادة والخمول ورؤية الآفاق الممتدة أمام النفس والروح هى الغذاء الذى تضوى به الأجسام •

لقد كتبت الأشواق عى ماضى زمانه ، ولقد قدم فرحته قربانا للحكمة (المزيفة) ••

ايه •• أيها الاغريق الأقدمون •• انكم تعيدوننى الى الهيكم القديمين •• ديونيزيوس أله اللهو والمرح ، وأبوللو اله التصميم والحكمة والاحكام •• اهما حبلان مشدودان •• الجسد والروح •• المادة والعقل • الفرحة والحكمة ، ولكن الأمور كثيرا ما تتشابه وتشنبه ، وتصبح الحكمة التى هى بنت المعرفة كسلا عقليا وروحيا فاترا • ولقد عرف العجوز ذلك . ولكنه حين عرفه معرفة اليقين ، كان ذهنه قد أدركه التعب •• يا للمأساة !

ولكنه فى تلك اللحظة ـ رغم افكاره العميقة وذكرياته الماثلة ـ غفا وغلبه النعاس ـ وحيدا على المائدة •

وهكذا يغلبنى أنا أيضا النعاس ، وحيدا على مائدة الكتابة وحوىى أوراقى واقلامى وكتبى ، أحس أنها هى المكان الوحيد الذى أنتمى اليه فلا يرفض انتمائى أو يضيق به ، ولكن هل اخلصت لهذا الانتماء كل الاخلاص ، وهل عشت حياتى (ابن قلم) كما نقول (ابن سبيل) أو (ابن أصول) ••

لعلى هنا اريد أن أستعرض فصول حياتى فى الأيام الماضية وما ذلك لغرابتها أو تفردها ، ولكن لأنها قد تكون صورة متكررة لحياة كثير من المثقفين فى بلادى ، من الذين تفتحت عيونهم على الحياة بعد الحرب العالمية الثانية ، والذين حاولوا امتلاك المستقبل بالمعرفة فعاشوا زمنا من الأمل العظيم واليأس العظيم •

ولست أريد أن ادخل فى تفاصل السياسة والأحداث الاجتماعية فهى أرسخ فى نفوسنا وأرواحنا من أن احاول زحزحتها لأتأمل جثومها وصلادتها · ولكنى أريد أن أبعث ذكرياتى العقلية والوجدانية ، وأن أحيى فى نفسى ما عرفت من رجال أفكار ومن أفكار رجال · أما صبواتى فلن أتحدث الا عما فعلت بنفسى وعقلى ، تاركا ما دون ذلك للجلسة الذاهلة الوحيدة على مائدة المقهى ·· أن امتد العمر ·

* * *

كيف عرفت انى شاعر ؟

لقد قرأت لأحد الشعراء حين سأله سائل مثل هذا السؤال قوله :

(أنا لا أكتب الشعر ، ولكن الشعر هو الذى يكتبنى) ·

وفى ظنى أن هذه الكلمة صادقة فى حالين ، أولاهما هى حال الانطلاقية الأولى الى عالم الشعر ، اذ يدرك الصبى أو الحدث فجأة أن أذنه تستطيع دون عون أن تفطن الى نغمات الشعر وعروضه ، وأن داكرته تستطيع أن تحفظ بعض ما يقرأ منه ، وأن صوره تستوقفه حتى لتبدو كأنها عالم عيانى محسوس ·

ويطمع الصبى أو الحدث عندئذ الى تقليد مايحب ، وهنا يأتيه هذا العالم الموسق المصور مجانيا ، وتبرز القصائد والمقطعات التى قد يكون الكثير منها ركيكا وكأنها تريد أن تكتب وتتحقق ، وكذلك كان حالى فى سنوات الصبا الأول ، أما الحال الثانية ، حين يكتبك ما تكتبه ، فهى حال أكثر عمقا · انها حال الكاتب حين يقترب من دائرة النار ، فيلمس الحقيقة العميقة ، ويقترب من الحب العميق أو الرعب العميق أو اليأس العميق ، فهو يبدأ كتاباته لاهيا كما يفعل

لاعب السيرك ، حتى اذا حلق على الحبل المشدود فوق الهاوية ، كا نالايقاع الموسيقى والجسم البشرى وحدهما هما اللذان يتجليان. والجسم البشرى هنا هو مجموعة أدائه العضلية المركبة ·· هو لون من تجريد الجسم البشرى فى كمال أدائه ، فهو ليس جسم انسان بعينه · ولكنه الجسم فحسب ·

يتاح لكثير من الشعراء والفنانين أن يقتربوا من دائرة النار مرة أو مرات فى حياتهم ، وهم حينئذ يذهلون عن ذواتهم ليقتربوا من هذه الذات اللافحة · ولكن هذا الاقتراب محفوف بالمخاطر ، اذ أنهم حين يعودون الى عالمهم العادى بعد هذا الاغتراب المخيف تظل هذه الأقباس التى حازوها مشتعلة فى نفوسهم ، فتنعكس بعد ذلك على رؤيتهم للحياة ، وعلى تصرفاتهم اليومية العادية · فلن يستطيع شاعر وصل الى قلب دائرة اليأس العميق أن يبتسم بعد ذلك ، ولن يستطيع قصاص لمس قلب الجنون أن يتعقل ، ولنذكر عندئذ جى دى موباسان · فهو أحد الذين كتبهم ما كتبوه ·

وقد تكون هذه الحالة بدرجة اقل · ·درجة يشترك مع الشاعر لقد أراد أبو النواس مثلا منذ مطلع حياته أن تكون صورته الاجتماعية هى صورة الشاعر المتهتك الخليع ، وعبر عن هذه الصورة فى أول الأمر فى نغمات ساذجة ، ثم مالبثت هذه النغمات أن ازدادت تنوعا وثراء وعمقا ، فكأن أبا نواس كان يستكشف نفسه بكل أبعادها من خلال التعبير عنها · فاذا استوى هذا التعبير ، واستوت هذه الصورة الاجتماعية ، أصبح أبو نواس الشاعر عبدا لها ، وصح عندئذ القول ان قصائده قد كتبته ·

ما علينا ، هذا حديث طويل سأعود اليه فى الحديث عن بودلير ورأى سارتر فيه ، ولكن قصدى الآن هى حال الصبا الأول ، حين

يجد الصبى أو الحدث أن قصائده تكتبه ، فما يلبث أن يقترب من عالم الاسلاف الشعرى •

ويبدو لى الآن أن كل زمان يحفل بشعرائه الذين يستحوذون على اهتمام الناشئة ، وفى زمنى وفى مصر ، وفى السنوات بين (١٩٤٥ ـ ١٩٤٨)كان شاعرا القمة هما محمود حسن اسماعيل ، وعلى محمود طه •

« تابـع »

فى زمننا الشعرى الأول

كان لات الشعر وعزاه فى زمننا الأول هما محمود حسن اسماعيل وعلى محمود طه ، اذ لم تكن الأصوات العربية تصل الينا، فلست أنكر انى قرأت « الياس ابو شبكة » أو « عمر ابو ريشة » أو « محمد مهدى الجواهرى » الا حين أوغلت فى دروب الشعر · فكانت قراءتى لهذه الأصوات قرزءة المستطلع الناقد ، لا قراءة المحب الشغوف · ولكن ثلاثة من شعراء العصر العرب استطاعوا بالصدفة المحضة أن يدخلوا الى عالمنا الصغير فى المدرسة الثانوية ، وأن يزاحموا محمود حسن اسماعيل وعلى طه فى وجداننا ، وان كانت حبة القلب لهذين الشاعرين · وكان لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة طريقة · فقد غنى عبد الوهاب لأولهما ، وهو ايليا أبو ماضى قصيدته الطلاسم ، فالتمسنا القصيدة كاملة فى مكتبة بلدية الزقازيق ، وهناك نسخناها فى كراساتنا ، وأحببنا الشاعر حبا قريبا من الفتنة ، وأن كان صوته ظل غريبا عما ألفناه من الشعر العربى ، اذ أن ايليا أبو ماضى شاعر مرهف العقل كما هو مرهف الحس · وكان ثانى هؤلاء الشعراء وثالثهم هو أبو القاسم الشابى التونسى ، والتيجانى يوسف بشير السودانى · ولقد ساقتنا اليهما أديب من أدباء ذلك الزمان هو

« محمد فهمى » الذى جمع لهما ولثالثهما الهمشرى المصرى كتابا من المختارات • وكان ما يربط بينهم جميعا هو انهم لقوا الموت فى شرخ الشباب •

ولم يكن محمد فهمى ـ متعه الله بالعافية ان كان حيا وبالخلد اذا كان قد اخترمه الموت ـ لم يكن غريبا عنى ، فهو بلدياتى •• ننتمى معا لنفس المدينة الصغيرة ، وكان زميلا لأحد أخوالى فى الدراسة الثانوية ، وحين حصل على شهادة الثانوية فى عام ١٩٣٧ فيما أذكر عين موظفا بمصلحة الرى • ولقد قرأ فهمى ذات يوم كتاب « توفيق الحكيم » الدافىء الرفيع •• زهرة العمر •• فرآه يتحدث عن باريس والفن وتمثال الفريدى دى موسيه الرابض فى الميدان ، فاقتصد محمد فهمى من مرتبه القليل ، وشد الرحال الى باريس ، ليكون راهبا من رهبان الفن والفكر ، ولكن باريس كانت اقسى عليه مما ظن وخال ، فأنفق فى رحابها شهورا عاد بعدها وقد فقد عمله ومدخراته • ومن ذلك اليوم حتى هجر محمد فهمى مصر ومنذ مايزيد عن عشرة أعوام وهو يعيش فى أرجاء القاهرة عيشة الفنان الذى لا يقيم وزنا لجوع أو شبع ، ولا يأبه هل أظله سقف أم أظلته السماء •

ولقد كان فهمى قليل الانتاج ، فقد كتب فى هذه السنوات التى تزيد عن ربع قرن بعض الأشعار وبعض المقالات ، وجمع هذا الكتاب عن البلابل الثلاثة التى اخترمها الموت ، وربما كانت أبدع قصيدة كتبها فهمى هى حياته التى نذرها لليل والمشى فى مناكب المدينة والسمر مع الأحباب • وكان فهمى لمكانه من أســـرتى يعدنى أحد اتباعه ، وكنت أمد له حبل الولاء راضيا رعاية لهذا المكان • ولكنى كثيرا ما اذكر له أن أبى فزع فزعا شديدا حين كاشفته بأننى أريد أن أكون كاتبا وأديبا ، وقال لى فى لهجة بالغة الاستنكار :

ـ هل تريد أن تكون صعلوكا مثل فهمى ؟

وعندئذ كنا نتضاحك ، ونسرى عن أنفسنا بأن أهل الدنيا لا يفهمون أهل الفن ·· من أمثالنا ·

ولقد مرت السنوات منذ عرفت فهمى حتى تخرجت فى الجامعة، وعملت فى الصحافة ، وأصبح لى مكان ضئيل فى دولة الأدب ، وقلت لفهمى ذات مرة ان صحفيا كبيرا وشاعرا هو كامل الشناوى يؤثرنى بمكان فى نفسه ، واننى أستطيع أن أخاطبه ليجد لفهمى مكانا فى جريدة « الجمهورية » · وقال لى فهمى بدون حماسة : كامل ·· أعرفه منذ عشرين عاما ·· ماذا يفعل الآن ؟

ـ هو رئيس تحرير جريدة الجمهورية ·

ـ كلمه اذا أردت ··

وكلمت كامل الشناوى ، ورحب كامل بالفكرة ، وان كان قد افاض فى التندر عليه · وذهب فهمى الى كامل الشناوى ، ثم لقيته بعد ذلك ، فلم يحدثنى عن نتيجة مسعاى · وسألت كامل الشناوى · الذى كنا جميعا نناديه بكامل بك أكراما للبكوية التى نالها حين كانت فى مصر رتب وألقاب ، وحرصا على أن ننادى من نحب بأحب الأسماء اليه عملا بالوصية المعروفة · وقال كامل :

ـ لقد دخل على فهمى شديد الكبرياء فاترا كأنه كان معى بالأمس فقط ، وأخذ يقول لى : ازيك يا كامل ·· عاوز منى ايه يا كامل ··

وأضاف كامل الشناوى :

ـ لقد خاطبنى كأننى أنا محمود فهمى ، وهو كامل الشناوى

** زمن مضى بأهله وناسه
فكأنه وكأنهم أحلام

كما يقول الشاعر القديم .

* * *

هذاهو بعض حديث فهمى وشعرائه المختارين ، ولكنى لو كنت سئلت وأنا أنزل القاهرة طلبا للعلم فى الجامعة فى عام ١٩٤٧ عن أول ما أريد أن أراه فى القاهرة ، لقلت دون تردد : محمود حسن اسماعيل كأمنية أولى .. ثم على محمود طه كأمنية رابعة أو خامسة، ولقد أسعف الزمان ، ورأيت محمودا فى أوائل ١٩٤٨ .

كان يزاملنا فى الجامعة ، ويتقدمنا ببضع سنين طالب متعدد المواهب .. يغنى ويمثل وينشد الشعر ويلقى الفكاهات هو جمال أبو رية . .كاتب أدب الأطفال .

سألنى مرة : لماذا لا تأتى لتجلس معنا على قهوة محمد عبد الله فى الجيزة ؟

وسألته : ماذا فيها ؟

وقال : مجموعة من الأدباء تعال لأعرفك بهم .

وذهبت معه الى القهوة أو المقهى .. ان أردت الصحة اللغوية، وكان قطبا المقهى هما زكريا الحجاوى وأنور المعداوى .

كان زكريا الحجاوى أقرب الى القصر والسمنة ، يتحدث اليك فى منغوم عذب ، ويحتفى بصغار الأدباء فيفسح لهم فى مجلسه ويفيض عليهم من مجاملته وتقديره . ولم يكن لزكريا عمل نعرفه آنذاك ، وكلنا أدركنا أن له مكانا فى احدى المصالح الحكومية لايكاد يراه . وعرفنا أيضا أنه شىء بين الفيلسوف والفنان ، وأن له مذهبا

ادبيا يروج له ، كما انه محب للموسيقى ، وبخاصة موسيقى سيد درويش ٠

كان خيال زكريا رحمه الله يضيق بواقعه ، وكثيرا ما كان يحدثنا بحكايات عن لقائه ببعض الأدباء العالميين وحديثه اليهم ، ولا نكاد نسأل أنفسنا متى تم هذا اللقاء حتى نكتم هذا الخاطر السخيف ، ونقنع بالسياحة مع خيال زكريا فى الآفاق الممتدة للزمان والمكان ٠

وكان أنور المعداوى طويلا جسيما ٠ أبيض الوجه لامع الشعر، أول ما يأخذ عينيك فيه هذه الثقة فى نبرات الصوت والايحاء ، وكان عندئذ احد كتاب مجلة « الرسالة » المرموقين ٠

لقد اسمعت كلاهما شعرى ، واستقبلاه استقبالا مجاملا ، الى أن ســـألت انور ذات يوم قائلا : هل لى أن أرى محمود حســن اسماعيل ، فلقد ذكرت أنه صديق لك ٠٠

وضحك انور ضحكته المجلجلة ، واشار الى ركن فى المقهى قائلا :

ـ هذا هو محمود ٠٠ قم بنا أعرفك به ٠

وجلسنا الى محمود فى‌حياء ٠٠ من جانبى على الاقل ٠٠ وقدمنى اليه أنور قائلا :

ـ فلان طالب فى كلية الآداب ٠٠٠ وشاعر ٠٠٠

واخذت اتامل فى وجه محمود ٠٠٠ وجه صعيدى حاد الملامح وسيمها ، وصوت قوى ولكن فيه نبرة من الضيق ٠

وأسمعت محمود بعض شعرى فى ذلك الزمان ، ولا أعلم هل ارضيته أم أسخطته ، ولعله كان قد سمع كثيرا من أمثالى فما عناه عندئذ أن يزيدوا واحدا · وكنت عندئذ لم أتم السابعة عشرة من عمرى بعد ، وهأنذا أطوى بعدها سنوات لأجد محمود حســـن اسماعيل صديقا عزيزا ، وأجمع على مدى عشرين عاما أو تزيد ، من شذرات لقاءاتنا افانين من الشعر والمودة والصفاء ··

لم يكن مايصدر من دواوين الشعر ليوجد فى مدينتنا الصغيرة بين أعوام الأربعين والخمسين ، فكنا نلجأ الى المكتبة العامة المسماة بمكتبة البلدية ، وفيها قرأت جـــبران خليل جبران وأتممت قراءة المنفلوطى الذى رأيت عبراته ونظراته فى بيتنا ،كما قرأت روايات روكامبول والفرسان الثلاثة وغيرها من أدب المغامرات مترجما الى العربية بقلم طانيوس عبده وسواه ·

وفى مكتبة البلدية وجدت أول ما وجدت لمحمود حسن اسماعيل ديوانه « الملك » ومن نافلة القول أن أذكر أن هذا الديوان كان تعس الحظ اذ أنه لم يطبع الا طبعته الأولى ، اذ تغير الحكم فى مصر فى عام ١٩٥٢ ، بل ان محمود نفسه كان يفزع لذكر ذلك الديوان كأنه ثمرة خطيئة قديمة · ولم يكن الديوان يمثل لى شيئا عندئذ الا جماله الموسيقى والفنى ، فلم أكن منذ وعيت محبا لملك مصر السابق ·· ولكن قراءة شعر هذا الديوان كانت تلقى أمام عينى غـــلالة رقيقة تحجب هذه التفاصيل العابرة ، ولا يتألق من خلالها الا الشــــعر وحده ·

والواقع ان شعر محمود حسن اسماعيل فى الملك فاروق نمط من أروع الشعر · فهو ليس شعر مناسبة استجداء فلم ينل محمود من الملك شيئا يذكر كما حدثنى فيما بعد ، ولكن هذا الشعر شعر

محبة ، فلقد خيل لمحمود ذات يوم أنه جدير بأن يقف من فاروق موقف المتنبى من سيف الدولة ، وخيل له وعيه السياسى المحدود أن الحياة لابد ان يكون فيها ملك وشاعر ، وأن ماهو غير ذلك هباء وهواء ٠ ولعل مما ساعد « محمود » على هذا التصور أمران ، أولهما أنه نشأ فى ظل التراث العربى ، وكان أقرب الشعراء اليه هما المتنبى وابو تمام ، وكلاهما من كبار الشعراء وكبار المداحين ، وثانيهما أن محمود حسن أسماعيل كان يلوذ فى مطلع شبابه بزعيم الأحرار الدستوريين فى مصر محمد محمود باشا وهو سليل أسرة من أعرق الأسر المصرية ، وهو أيضا الخصم الأول لمصطفى النحاس زعيم الوفد وزعيم الحركة الشعبية المصرية ولقد حدثنى محمود حسن اسماعيل ذات يوم كنا فى بلدته بصعيد مصر ، وهى قريبة من بلدة محمد محمود باشا ، أن هذا الباشا كان يحبه ويؤثره ، رغم الفارق الكبير بينهما من حيث الأصول الاجتماعية بل كان يقدمه على بعض « الذوات » من أعوانه ٠

ولقد قاده حبه لمحمد محمود باشا الى مدح فاروق ، ولم يكن مدحا مما جرت به العادة عند أوساط الشعراء ، ولكنه مدح عالى القدر من الفن ملىء بالصـــور البيانية الرائعة ، جليل بالايقاعات والوشى الموسيقى ٠ لقد صدر هذا الديوان فى عام ١٩٤٦ ، وحين قرأناه (أنا وأصحابى فى المدرسة من شداة الشعر) أوشكنا أن نحفظه ، ثم قادنا هذا الديوان الى ديوانيه الســـابقين ٠٠ أغانى الكوخ ٠٠ وهكذا أغنى ٠

واكتملت بقراءة هذين الديوانين دائرة العشق ، ورجعنا الى الصفحة الأولى لنجد أن أولهما قد صدر فى عام ١٩٣٥ ، وصاحبه طالب فى دار العلوم ، وثانيهما قد صدر فى عام ١٩٣٨ ٠ وفى الديوان الأول لا ملك الا الشعر ذاته ، ولا ملهم الا الريف المصرى بنخيله

وزهره وسنابله وغربانه · اما فى الديوان الثانى فقد بدأت النغمة « الملكية » تستأثر ببعضه ، فى لهجة ناضجة متمكنة ·

فاروق حبك فى القلوب عقيدة

اخذت سراها فى القلوب مع الدم

قسمت مع الايمان قدس مكانه

فى الروح ، وهو لغيرها لم يقسم

والشرق يقرأ فى جبينك آية

فجر الربيع بنورها لم يوسم ···

ولكن « فاروق » لا يستأثر فى هذا الديوان الا بثلاثين صفحة من صفحاته التى تجاوز المائتين · اما بقيتها فهى حديث شاعر يخلع على الطبيعة أثواب خياله ، ويتغنى بمواجده واحزانه ، وهو الى ذلك يمتلك قدرة لا تطال على تكوين الصورة الشعرية ولم عناصرها على غير ما آلف جيله من الشعراء حتى ليكاد يصدق فيه ما قيل عن أبى تمام من انه قد تجاوز عمود الشعر التقليدى الى عمود شعرى جديد ·

ان عناصـــر خيال محمود حسن اسماعيل تختلف كثيرا عن عناصر خيال الرومانسيين منه عاصـــريه ، فهم يذكرون لك الورد والطير والشجر والأسى ،اما محمود فقاموسه غريب عنهم · ان قاموسه هو التهاويل والجنون والرفات والهشيم والهياكل والرهبان والبوم والدجى والصـــخور والضجيج ·· عالم ملىء برقة كأنها العنف وموسيقى كأنها الصخب ·

استمع اليه يصف نفسه حين غابت عنه حبيبته :

جاثم فى التراب كالأمل الخا

ئب فى خاطر ذبيح الشكاة

كالشجى فى اللهاة كالسهم فى المهـ

جة كالموت فى ربيع الحياة

كرمام القبور كالبيدر المهجور

كالرجس فى جنوب العصاة

كأنين الغريب فى وحشة الليل

كلطم النوادب الثاقلات

كنشيج الأيتام ملوا من الدمع

ومالوا برعشة الأمهات

كجبين المشنوق خط عليه الموت

اسكار عمره النحات

هكذا صرت بعد ماغبت عنى

فى الأسى والنحوس ضاعت حياتى

* * *

تغيرت الحياة فى ناظرى محمود حســـن اسماعيل بعد عام ١٩٥٢ ، وبخاصة وقد نقلته الحكومة الجديدة من عمله بالاذاعة الى

التدريس وهو عبء أكبر من أن تطيقه روحه القلقة ، هنا لاذ محمود فى شعره الذى أبدعه بعد ذلك بعالمه الداخلى ، يحاول أن يستقطر فمه بعضا من حكمة الحياة والموت • وكان ذلك هو التحدى الأول لموهبته التى نشأت فى ظل التراث العربى المعنى بظاهر الحياة ، وما فيها من ألم الحب أو لذة المدح والهجو • أما التحدى الثانى لتلك الموهبة فهو نشوء حركة الشعر الحديث بما أرسته من آفاق جديدة للشعر وأسلوب جديد للموسيقى الشعرية •

ولقد قال لى محمود أكثر من مرة انه أول من شق للشـــعر الحديث طريقه وأسمعنى بعض شعره التفعيلى الذى كتبه فى أواسط الثلاثينات • ولعله كتب هذه الخاطرة فى احدى المجلات بعد ذلك • ولقد وافقته على أنه من رواد الشعر الحديث اذا عنينا بالحداثة حداثة التجربة وأصالتها • ولكن واقع الأمر أن دواوين محمود حسن اسماعيل التالية لديوانه الرابع (أين المفر) كان فيها سعى شاعر عظيم الى امتلاك المعانى التى لا تتصل بالتجربة والانفعال بقدر ما تتصل بالتأمل والفكر •

قلت لأنور المعداوى ، وكانت له مقالات متتابعة فى « الرسالة » عن « على محمود طه » الذى نسب اليه مذهبا فى الشعر هو مذهب « الأداء النفسى » •

– أريد أن أجلس الى على طه •

وقال لى أنور :

– انه لا يأتى الى هذا المقهى ، ولكنه يجلس فى محل «جروبي» بميدان سليمان باشا •

وذهبت الى جروبى عدة مرات ، واختلست النظر حتى رايته ٠ هيئته ليست هيئة شاعر ، ولكنها هيئة عين من الأعيان ٠ وخفت رهبة المكان ، فخرجت ٠

ولم يسعف الزمان فمات على محمود طه فى عام ١٩٤٩ ، وبعدها بقليل مات الاعجاب به فى نفسى ٠ واكاد اقول ان على طه لم يعد يقراه أحد من شداة الشعر فى هذا الزمان رغم أنه كان يوما نجما لامع البريق ٠

« تابـع »

من الزقـازيق الى أوروبـا

كان لكل من محبى الشعر الصغار من زملائنا كراستان ، واحدة يثبت فيها ما تفيض به قريحته من شعر ، واخرى ينسخ فيها ما يروقه مما يقراه فى الصحف والدواوين ، وكانت كراستى الأولى تتسـع وتضيق يوما بيوم ، فقد كنت لا اكاد ارضى عما اكتبه من شعر الا بعد أيام من كتابته ، ثم ما ألبث ان أكتشف ما فيه من نقص أو خطأ او تقليد مكشوف ، فأمزق عندئذ أوراقه من الكراسة ، حتى لم يبق من بعض هذه الكراريس الا جلدتها .

أما كراسة المختارات ، فليتنى احتفظت بها ، واضفت اليها ، اذ ان كتب المختارات فى رايى نوع من التاليف ، تفتقده مكتبتنا الشعرية ، بل ان هذه الكتب هى ما ينطبق عليه بحق صفة (التاليف)، اذ يؤلف كاتبها أو جامعها بين أذواق وحساسيات مختلفة ، مستهديا بذوقه وحساسيته ، وقديما قالوا : ان اختيار المرء جزء من عقله ..

وانى لأتمنى حينا لو كانت المكتبة الشعرية قد عمرت بمختارات طه حسين والعقاد وشوقى وغيرهم كما عمرت حينا بمختارات

البارودى ، واقدر لأخينا أدونيس صنعه فى جمع مختاراته من الشعر العربى ·

ولكن ·· هبنى احتفظت بكراساتى المنسوخة الأولى ، اترانى كنت أرضى الآن عند اختياراتى وتاليفى ، لقد كان جزء كبير منها منسوخا من دواوين على محمود طه التى كانت تصدر عندئذ فى آنق طباعة ، وتباع ببضعة قروش لا تطيقها جيوبنا الفارغة فكنا نستعين على ظمئنا اليها باستنساخ نسخة مكتبة البلدية ، وانى لأعرف الآن سر افتتانى بعلى محمود طه فى ذلك الزمان ، فلقد كان يجسد لنا ما تصبو اليه اجسامنا الفائرة وعقولنا الغضة ·· كان ضربا من احلام اليقظة ، فلقد كان على محمود طه فى ذلك الزمان قد فرغ فى ديوانه الأول (الملاح التائه) من تصوير نفسه شاعراً رومانتيكيا أسيان حزين النفس منكسر الخاطر ·

ايها الشاعر الكئيب مضى الليل
ومازلت غارقا فى شجونك
مسلما راسك الحزين الى
الفكر والسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع ، واخرى
فى ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر انفاسك
يطغى على ضعيف انينك

الم تكن هذه هى الصورة التى تداعب خيال صبى ريفى مثلى ، حين يرى نفسه منقطعا عن العالم ، عاكفا على كتاب أو ديوان شعر ،

يتخذ من الكآبة سمتا لأن الكآبة هى أليق مايكون بالانسان الحساس ٠٠ السنا نحن الذين نفترق عن زملائنا بقدرتنا على سبك القريض ونظمه ومن ثم بولوعنا بالتفكير فى أمر الكون وتدبره اذ أن قلب الشاعر كما قال لنا المنفلوطى فى أول صباه فى تعريبه لرواية « سيرانو دى برجراك » هو مرآة تتراى فيه صور الكائنات يزداد وعيا بأن الحياة ألم متصل وشقاء مقيم » ٠

لقد جسد لنا على محمود طه فى ديوانه اللاحق « ليالى الملاح التائه » ٠

كانت قد أتيحت لعلى محمود طه بعد صدور ديوانه الأول فرصة السياحة فى أوربا ورأى مافيها من جمال وسحر ، واستوقفه فيها جمال المرأة ، وسحر حديثها ، وهاهو يطالعنا فى أول قصائد « ليالى الملاح التائه » بقصيدته عن « الجندول » ٠٠ لقد طار بى فى الخيال من بيتنا الصغير فى شارعنا المترب فى مدينة الزقازيق الى فينيسيا عاصمة الأدرياتيك كما يقول على محمود طه فى مقدمته النثرية لهذه القصيدة ، وركبته معه ، أنا الذى لم أركب القطار حتى ذلك الحين الا مرات معدودة ، وكان ركوب القطار فيها قطعة من العذاب ، حيث تتهاوى عليك حوائج مواطنيك من الفلاحين والفلاحات ولفائفهم ، ركبت مع على طه فى جندول مزدان بالمصابيح الملونة وضفائر الورد ومررت معه فى قنوات المدينة بين قصورها التاريخية وجسورها الرائعة ،وأنا أمرح واغنى ، وقد لبست زيا تنكريا بهيجا ٠

بل لقد جرى حوار جميل بينى وبين احدى الفاتنات ٠

وتبين لى بعد أن توثقت عرى الألفة بينى وبين هذه الجميلة أنها من فارسوفيا ببولندا ، وهكذا جمعت بين الحسنيين ، سبحو

ايطاليا ، وفتنة بولندا ، وطرت الى هذه البلاد على جناحى على طه ، وكنت فى ضيافته ٠

وفى سياحة خيالية تالية يأخذنى على طه الى بحيرة كومو ، ولم يفته أن يقول لنا فى المقدمة النثرية لهذه القصيدة ، انه كان فى صحبة أديبة أمريكية وأن بحيرة كومو أجمل البحيرات الثلاث التى ينفرد بها اللمباردى الايطالى ٠ ولم يفته فى القصيدة أن يقول لهذه الأمريكية على لساننا نحن أبناء العالم القديم الغرقى فى فقرنا وبؤسنا وتقاليدنا الموروثة :

يا ابنـــة العـــالم الجـــديد صـــلى عالمـــا غـــبر
فى دمى مـــن تراثـــه نفحـــة البـدو والحضـــر
واغـــان لمـــن شـــدا ومعـــان لمـــن فخـــر
ما تســـرين ٠٠ افصـــحى ان فى عينيـــك الخـــبر
الغـــريبان ها هنـــا ليس يجـــديهما الحـــذر
نحن روحـــان عاصـــان وجســـمان مـــن ســـقر

ويظل فتانا وممثلنا فى غزو العالم بالشعر ، يناجى الأمريكية الأديبة ، وينال ودها الجميل ٠

وفى سياحة ثالثة ينقلنا على محمود طه ، أو ينقلنى على الاصح من ضـيقى بشـــاطىء ترعتنا المترب الى شاطىء بحيرة زيورخ بسويسرا ، حيث تبتسم لى جارتى فى المقهى الصاخب ، ثم ماتلبث بعد أن أعطتنى ابتسامتها أن تعطينى أعطافها :

انا الغريب هنا ، وملء يدى

اعطاف هذا الأغيد المرح

خفقت على وجهى غدائرها

فجذبتها بذراع مجترح

وفى سياحة رابعة ينقلنا الى برن على نهر الرين ، ولم يكن شاعرنا وحده فى هذه السياحة ، بل كان على عادته مع صديقة سويسرية هذه المرة ، وفى المرة التالية كان فى زيارة بيت الموسيقى الألمانى ريتشارد فاجنر فى صحبة صديقة اسكندنافية ، ثم كان مسك الختام أن هذه الصديقة الأوربية التى تصاحبه دائما قالت له ــ على حسب روايته :

قلت لى ، والحياء يصبغ خديك

أنار تمشى بها او دماء

ملء عينيك يافتى المشرق أحلام

سكارى ، وصبوة ، واشتهاء

وعلى ثغرك المشوق ابتسام

ضرجته الأشواق والأهواء

او حقا دنياك زهر وخمر

وغوان فواتن وغناء

لقد انكشف السر اذن ، وعرفنا لم كان شاعرنا موفقا كل هذا التوفيق مع النساء ، له فى كل مدينة حب ، وفى كل منعطف طريق عاشقة منتظرة ، فهو فتى المشرق ٠٠ انه شرقى مثلنا ، فيه سمرتنا ، وان كان له ثغر مشوق تضرجه الأشواق والأهواء ولكننا عندئذ نرى

شبابنا فيه ، فهو عندنا مثل نجوم السينما الذى يحب ويعشق ويهجر ويسترضى وينتقل من قلب الى قلب ، بالنيابة عنا ٠

لست أدرى هل كان عالم على محمود طه هذا حقيقيا صادقا أم كان من وهم الخيال ، ولقد زرت أوربا مثله مرات عديدة ، ولكنى لم أوفق الى هذا القدر من الصحبة الجميلة المرحة ، رغم انى « فتى المشرق » مثله ، بل ربما كنت أكثر شرقية منه ، فأنا أميل الى الدكنة ، ولا تخطىء العين حين ترانى أن تعرف اننى من هذه البلاد ، وقد حاولت أكثر من مرة أن أضرج فمى (ولا أقول ثغرى) بابتســـام تنضح فيه الأشواق والأهواء ٠ ولكن حظى كان فى معظم الأحيان خائبا ٠ ولكن على محمود طه فى ذلك الزمان البعيد كان يمثل لنا حلم يقظة نتمناه ، ونظن الطريق اليه سهلا متى حملتنا البواخر الى الى تلك الشطوط البعيدة ٠ وحين نضجنا وعرفنا أن الحياة ليست بهذا اليسر اليسير وهذه السهولة السهلة ، قنعنا بواقعنا وقدرنا ، وزهدنا فى هذا الحلم البهيج ٠

واخشى أن أقول اننى زهدت أيضا فى عالم على طه وجندوله وبحيراته ونسائه ، كما تزهد فى عالم الصور السياحية الملونة حين ترى الطبيعة فى عريها الصادق ٠

ولقد أفقت من عالم على محمود طه فى وقت مبكر ، فلا صبواته عندى جديرة بأن تسمى حبا ، ولا نساؤه عندى يشبهن النساء ٠

وزاحم على محمود طه فى قلبى شاعرا آخر من جيله وصحبته هو ابراهيم ناجى ٠

كان ابراهيم ناجى شاعرا قليل الحظ من رضاء النقاد ، منذ استقبل طه حسين ديوانه بمقال قاسى اللهجة ، ختمه بقوله : « ان

ناجى ليس على شىء وكان كثير من شعراء زمانه يحسبونه على الطب الذى كان مهنته ، لا على الأدب الذى كان فى حياته » ٠

ولقد عرفت ناجى كانسان ، ولا أظنني رأيت انسانا تنطبق عليه هذه الصفة الكريمة مثل ناجى ، وأغلب الظن اننى لن أرى فيما أستقبل من أيام ٠ كنا كشعراء ناشئين نتزاحم فى ندوة فى جمعية الشبان المسيحيين ، يشرف عليها شاعر ذهب ذكره مع الريح ، وفى هذه الندوة قرأ مايقرب من عشرين شاعرا ناشئا قصائدهم ، ولم يستوقف ناجى الذى كان حاضرا ومشاركا بوصفه شاعرا علما من هؤلاء الشعراء كلهم الا اثنان ٠٠ محمد الفيتورى ٠٠ وأنا ٠٠ وشد ناجى على أيدينا مصافحا بعد الندوة ، وطلب أن نلقاه فى عيادته بشبرا بعد التاسعة مساء فى أى يوم نراه ، أو يراه أحدنا ٠

وذهبت ذات مساء الى ناجى بشبرا ، وأعلنت للممرض اسمى ، فأدخلنى فى غرفته حتى ينتهى من رؤية مرضاه ٠ وكانت الغرفة غرفة كاتب لا غرفة طبيب ، فالكتب تشغل حوائطها كلها ، وجو الغرفة حميم معزول عن ضجة الطريق ، وجاء ناجى بعد حوالى نصف ساعة ، وسلم على مرحبا ، ووجدتنى أنا ابن التاسعة عشرة أو اقل (فبراير عام ١٩٥٠) أجلس الى ناجى يسمعنى شعره الذى لم ينشره بعد ، ثم ينتقل الى ترجمته لبعض سونيتات شكسبير او قصائد بودلير ، فيفيض كريما بالحديث والضحك والشعر والثرثرة ٠ وبعد حين يرق الجو ويصفو ، حتى تتصور أنك فى صحبة ملاك مجنح أو طائر رقيق ٠

وترتد صحبتى لناجى حتى وفاته فى أوائل عام ١٩٥٣ ، وأحفظ منها أرق الذكريات التى يبهج نفسى أن تستعيدها ٠

« تابع »

فكأنهـا وكأنهم أحـلام

حين خرجت مجبور الخاطر من عيادة الدكتور ابراهيم ناجى بشبرا ، وبعد أن أمتعنى بسياحته الودود بين شعره ومترجماته من شكسبير وبودلير طرت الى أصدقائى من زملاء الجامعة أنبئهم أنى سعدت بلقاء شاعر كبير ومودته • وأنه قد تكرم على فدعانى أن أزوره كلما تيسر لى الوقت ، وانه استمع الى احدى قصائدى فأحبها، ثم رويت لهم كالمأخوذ بعضا من تعليقاته العابرة ونكاته التى لم أسمع لها حتى الآن مثيلا فى رقتها وسماحتها رغم ما فيها من لذع وسخرية •

كان الأصدقاء فى ذلك الزمان البعيد قلة بقيت صداقتها مع الزمن ، تكبر ولا تشيخ ، وكنا فى الجامعة نتحلق حول شيخنا وأستاذنا المرحوم أمين الخولى ، حتى اذا انفضت دروسنا نتجمع فى احدى مقاهى حى عابدين ، لأن أحد أصدقائنا كان يحب زميلة لنا تسكن أمام المقهى • وهاهو ذا الزمان قد مر ، وأصبح أصغر أبناء الصديق والزميلة على وشك أن يتخرج من الجامعة •

كانت جلستنا موزعة بين قراءة كل منا لأصحابه ما أفاض

الله عليه به من القول شعرا أو قصة أو نقدا ، وبين لعب النرد ، ثم طلب الطعام من عربة يد كانت تقف ازاء المقهى ، وتقدم للطاعمين صنفا من الطعام لا أدرى له اسما هو مزيج من الخضر والبصل ورائحة اللحم • حتى اذا أغلق المقهى أبوابه تحولنا الى حى الحسين، فجلسنا فى مقهاه القديم ، مقهى الفيشاوى ، وكان صاحبه الحاج فهمى مازال حيا ، يتصدر واجهة المقهى بوجهه الأبيض الفاتر وجسمه السمين ،وكان المقهى كأنه معرض شـــامل فيه من المرايا القديمة المكسورة ، والأثاث البالى الرث ، والوجوه التى كأنها تنبعث من كاريكاتير الرسام دوميه ،فاذا أهل رمضان زارته بعض النسوة اللائى بعثن من لوحات تولوز لوتريك ، ثم هناك على الحوائط بعض الحيوانات المحنطة والأعمدة الخشـــبية التى تذكرك بالعبث الفنى العظيم الذى يصنعه سالفادور دالى •

ولا تسألنا متى كنا نستذكر دروسنا ، وقد كنا طلاب علم ، اذ أننا كنا قد طلبنا من العلم الفرع الذى نحبه ، فكنا ندرس اللغة أو الفلسفة ، وهنا تهون الأمور فيما عدا دراسة اللغات المساعدة • وقد كانت عادتى أن ألم بالمنهج فى بضع ليال قبل الامتحان ، ولكن هب ذلك كان جائزا فى درس الأدب العباسى أو الأموى ، فقد كان ذلك عسيرا كل العسر فى درس اللاتينية أو الفارسية أو التركية ، وهى اللغات المساعدة ، وأذكر عندئذ أن اختبار اللغة الفارسية فى السنة الأخيرة كان تحريريا وشفويا ، حفظت ماعرض علينا من قطع شعرية للترجمة عن ظهر قلب ، ولكنى فى الاختبار الشفوى فاجأت الأستاذ الممتحن وكان الدكتور يحيى الخشاب بسوء نطقى للغة فقد كنت أميل للتفخيم من العربية ومنها من الحروف ماله شكل الحرف العربى دون نطقه ، ودهش الدكتور الخشاب لهذا التناقض الغريب بين اتقانى الترجمة وخيبتى فى النطق ، فزعمت له كاذبا ـ وليسامحنى الله ـ اننى أعمل موظفا فى النهار بحيث لا أستطيع حضور دروسه ، أفنى ليالى البيضاء فى الحفظ والتحصيل ، وأفنى ساعات نهارى كاتبا

فى مصنع ، وواقع الأمر أن ساعات نهارى كانت معظمها تسكعا فى الجامعة ، أو جلوسا على درجاتها التى حولناها الى رواق للمناقشة الأفلاطونية أو السخرية السقراطية ٠

بين ذلك كله كنت أزور ناجى اسبوعا بعد أسبوع ، وأذكر فى سبتمبر ١٩٥٢ ، وكنت قد تخرجت من الجامعة وعملت مدرسا فى احدى المدارس الاعدادية ، انى زرته يوما فى عيادته ، فرأيته كسير القلب ، فقد وشى به أحد الوشاة للحكام الجدد كما وشى بتوفيق الحكيم الذى كان مديرا عاما لدار الكتب فى ذلك الوقت أنه غير منتج ٠٠ كان ناجى عندئذ مديرا لمستشفى السكة الحديد فى الدرجة المالية المسماة بالأولى ، فأبت عدالة الحكام الجدد الا أن تنزل به درجتين ماليتين بحجة أنه نال هاتين الدرجتين استثناء ومحاباة لصلته الحميمة بالمرحوم الدسوقى أباظة باشا (والد صديقنا الأستاذ ثروت أباظة) ، وكان من محبى ناجى ، وهو كاتب مقدمة ديوانه الأول (وراء الغمام) ٠

وكانت نفس اليد التى بطشت بناجى هى التى بطشت بتوفيق الحكيم ، فقررت احالته على التقاعد بحجة أنه غير منتج ، ولكن القدر قبض لتوفيق الحكيم حظا مخبوءا ، اذ أن جمال عبد الناصر كان قد قرأ له فى صباه أحد كتبه فأعجب به بينما لم يقرأ أحد من الحكام الجدد لناجى ما يرضيه عنه ، وهكذا انكسر قلب ناجى ٠ وأظنه قدم استقالته من عمله الحكومى فى ذلك الوقت مكتفيا بعيادته ٠

كنت عندئذ مستمعا محبا لشكواه ، وكان لدى ما أشكوه له ، فلم اكن مدرسا ناجحا بحال من الأحوال ، وكان مفتشو اللغة العربية، ومعظمهم من قدامى رجال التعليم حين يزورونني فى الفصل يضيقون بما يخالونه من اهمالى وقلة بضاعتى من العربية ٠ حتى ان أحدهم كتب فى تقريره عنى اننى لا أصلح للتدريس ٠ فقد كنا ــ السادة

المفتشون وأنا ننتمى الى مدرستين مختلفين ، هم من أبناء دار العلوم القديمة وأنا من أبناء كلية الآداب • ولكل من المدرستين فى اللغة والأدب تصور يختلف عن تصور أختها • وكان مما يهون على الأمر عندئذ صحبتى لمجموعة مدرسى اللغة العربية فى مابين الحصص ، اذ كنا مجموعة تتراوح بين العشرة والخمسة عشر معلما تتراوح أعمارنا بين مشارف الستين وبدايات العشرين • وكان حديثنا المرح يتنقل بين أفانين من القول فى الطعام والمقويات وهم الأطفال ونكد الزوجات حين يضيق ذرع الزوج وتقل حيلته ، حتى اذا جاءت فسحة الساعة العاشرة أرسلنا فى طلب صحون الفول وقراطيس الطعمية وتلال الخبز ، فما تكاد تمـر دقائق حتى يختـل التل ويبدو قاع الصحون ، وتلقى القراطيس الفارغة فى السلال ، ثم يدور الشاى بعد ذلك دورة أو دورتين ، وكل ذلك ـ ويا للعجب ـ فيما لا يزيد عن خمس عشرة دقيقة •

وكان سمرنا الليلى فى ذلك الزمان ، وقد أصبحنا جميعا معلمين فى المدارس فى نادى المعلمين بميدان الأوبرا ، وهناك تعرفنا ، وهنا أظن الأوان قد حان أن أقدم اليك مجموعتنا التى أشرت اليها فى أول الحديث بأسمائها وبما جرت به عليها أحوال الزمان • كانت هذه المجموعة التى عرفت فيما بعد بالجمعية الأدبية المصرية مكونة من فاروق خورشيد الروائى ودارس التراث الشعبى العربى ، عز الدين اسماعيل الشاعر الناقد ووكيل كلية آداب عين شمس فيما بعد ، وعبد الغفار مكاوى القصاص الفيلسوف المترجم ، عبد الرحمن فهمى الكاتب القصاص السيناريست ، وكان فى ذلك الوقت موسيقيا أيضا ، وأحمد كمال زكى الشاعر الناقد ، وها أنت ذا ترى أن ثلاثة منا تدكتروا وصـاروا أكاديميين ، وثلاثة اختاروا أن يكونوا كتابا لا يحملون الا شهادة لااله الا الله وشهادة الليسانس •

وتعرفنا فى نادى المعلمين بأستاذ كريم وكان معلما رفيع القدر، وأديبا عالى الصيت ، وهو المرحوم محمد فريد أبو حديد ورعانا أبو فريد وضمنا تحت جناحه الوارف ، ولعله هو الذى أصلح ما بينى وبين وزارة التربية والتعليم التى كان هو وكيلها ثم مستشارها الفنى حتى فارقت هذه الوزارة لا أسفا ولا مأسوفا على باستقالتى منها فى اكتوبر ١٩٥٠ ، أى بعد ست سنوات من العناء الذى لايهون من أمره الا قليل من المرح العابر · وكان فريد ابو حديد فى ذلك الوقت شريكا ومعاونا لأستاذنا المرحوم احمد أمين فى مجلة الثقافة، وانبأه احمد أمين ذات يوم انه يزمع اغلاق المجلة لما تصيبه وتصيب لجنة التاليف والنشر من خسارة محققة ، وهنا اقترح عليه فريد أبو حديد أن يعهد بتحريرها لجيل من الشباب ، فسأله أحمد أمين عن هذا الجيل ، فرشحنا له ، وهكذا أصبحنا بين أغسطس ١٩٥٢ ، فبراير ١٩٥٣ مسئولين ، ونحن فى أوائل عشريناتنا عن مجلة الثقافة ، نجمع مادتها ، ونرتبها ونعد رسومها ، ونكتبها · بل ونصف حروفها أحيانا ، ونبيع بعض أعدادها أحيانا أخرى ، وأذكر أننى كتبت فى هذه الفترة قصتين قصيرتين قد تستهوى قراءتهما الباحث فى تاريخى الأدبى ان كان لى تاريخ ، كما نشرت فيها أول قصيدة لى فى الشكل الشعرى الجديد ، وهى قصيدة (أبى) ·

ولكن ماهو اهم من ذلك كله هو اننى انبأت بهذا الأمر صديقى الكبير ابراهيم ناجى ،فابتهج له ، وحيانى بأن أعطانى مسـودة قصيدتين بخطه ،مطلع احداهما فيما اذكر :

صيرك الحسن أمير الوجود ·

والشعر من هاماته كللك ·

وليتنى احتفظت باصول القصيدتين بخطه ·· فقد أضاعهما الطابع ، ولم أعن باستردادهما ، اذ كنت غرا لا أدرى كيف أحتفظ

بأجمل التذكارات ، وكيف للشباب أن يعرف أنه سيفتش ذات يوم عن ذكريات عمره الضائع ، بكل ما فى قلبه العجوز من وجد وانكسار ٠

ومن نافلة القول أن أذكر أن الذين عاصروا هذه الفترة من اخواننا يذكرون أن هذه الشـــهور من عمر المجلة كانت من أزهى أيامها ، ولعل من الانصاف أن نذكر أننا قدمنا فيها الفن التشكيلى لأول مرة ٠ وكان من رفاقنا فى تقديم هذا الفن سواء برسم اللوحات التوضيحية أو التعليق على المعارض الفنية حفنة من ألمع فنانى مصر الآن منهم المرحوم عبد الهادى الجزار ، والصديقان حامد ندا وجاذبية سرى ، ولكن ذلك كله لم يرض أستاذنا أحمد أمين ، فالخسائر هى هى ، والحياة الأدبية لاتكاد تستقبل مجلة أدبية بما هى أهل له من تقدير ، وهكذا كاشـــفنا المرحوم فريد أبو حديد بعزم أحمد أمين ، وطردنا من مقر المجلة بحارة كرداسة بعابدين ، وعدنا الى جمعية المعلمين (ومعذرة للسجع) ٠

ومرت أيام ، وفى احدى الأمسيات كنت فى نادى المعلمين حين حدثنى صديق كان يعمل فى احدى الصحف أن ناجى قد مات ، وكاد الخبر أن يصعقنى ، فقد كنت قد رأيته قبلها بيوم واقفا ينتظر الترام أمام مبنى الاسعاف المجاور لمبنى التليفونات فى شارع رمسيس الذى كان يسمى قبلها بشارع الملكة نازلى ، وحين طال بنا الانتظار تسلينا بالتعليق على وجوه الملاح والقباح من عاملات التليفون الخارجات من مقر عملهن ، ثم جاء الترام ، فودعته ومضيت على أمل لقاء ٠

ومضى ناجى ٠ ٠ أعذب قيثارة فى الشعر العربى الحديث ، مغموط الحق فى كل مجال ٠ ٠ الا أن ينصفه الزمان ٠

« تابــع »

ابراهيم ناجى .. أرق العاشقين

كان حـــديث ابراهيم ناجى عن خليل مطران حـديث الحب والاكبار ، وكان ناجى بهذا الحديث هو الذى دفع بى الى استعارة ديوان مطران باجزائه الأربعة من مكتبة باب الخلق ، حيث انفقت معه بضع ليال بيضاء ، عقدت بين شعر مطران وبينى آصرة حب واهية ، واحساسا بالندم غير قليل • وربما رددت ذلك بأننى قد اتيت مطران على الهرم بينما اتاه أحباؤه الكثر فى شبيبته ، فلو كان الله قد اذن لى أن أخلق قبل خلقى بعشرين أو ثلاثين عاما لفتنت بمطران كفتنة ناجى وكثير من أبناء جيله به ، ولكنى حين قرأته فى أوائل الخمسينات عرفت أن مؤرخ الأدب سيقدره قدره بينما سيظل ناشىء الشعر مثلى مؤثرا لتلاميذه عليه • فمما لاشك فيه أن مطرأن كان نبضا شعريا جديدا ، فى مطالع القرن ، يختلف كل الاختلاف عن حافظ ابراهيم ، وبعض الاختلاف عن شوقى ، اما حافظ فقد كانت معرفته بأدب الغرب معرفة سماع وتلقط لما يدور فى المجالس ، وكانت ترجمته عن الفرنسية تاليفا يقترب من تاليف المنفلوطى ، ولقد كان يتمنى فى قرارة نفسه لو استطاع أن يتصل اتصالا مباشرا بهذه الينابيع ولكن انى له ذلك ، وهو كما حدثنا عنه معاصروه رجل محب

للحياة بين البشر ، والتألق فى مجالسهم بسحر حديثه ورائع تفكهه، يرى الشعر لونا من الظهور الاجتماعى فى المحافل ، ويلوذ بكبراء زمانه كسعد زغلول أو محمد عبده ، ولعل قصارى ماقاله حافظ هو دعوته فى احدى قصائده الى أن نشم ريح الشمال ، قاصدا بذلك أن نعرف ما تحمله لنا مياه المتوسط من ثقافة أوروبية ٠

ذلك هو حافظ ، أما شوقى فقد كان اقترابه من أوروبا اقتراب الأعيان ، ولاشك أنه قد قرأ بعضا من فيكتور هيجو وغيره ٠

ولكن مطران كان وليد ثقافة مدارس المبشرين ، ولقد عرف عنهم الأدب الفرنسى كما ايعلمونه فى مدارسهم ، ولذلك فقد تكونت لديه صورة متكاملة لمعالمه ومدارســـه المختلفة ٠ ولكن حين جاء مهد السلفية ـ أراد أن يوطىء له مكانا بين شعرائها النابهين ومن هنا اختار الطريق الوسط فهو فى بعض شعره رومانتيكى اصـــيل كما كاشفنا فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه ، وفى بعضه باحث عن العنصر القصصى فى القصيدة كما عرفه بعض شعراء الفرنسيين ، ولكنه فى معظمه واحد من شعراء عصره المداحين المجاملين للأسر الحاكمة أو لذوات الشوام وأعيانهم وهو أيضا واحد من شعراء عصره الذين لا يخلو حفل اجتماعى كاقامة مستشفى أو انشـــاء مدرسة من قصيدة له تذكر الى جوار قصـــيدتى حافظ وشـــوقى وأضرابهما ٠

التعـــريض بالشـــعر !

يقول مطران فى مقدمة الجزء الأول من ديوان الخليل الذى طبع فى عام ١٩٠٨ : هذا شـــعر ليس ناظمه بعبده ٠ ولا تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير مقصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ٠٠ بل ينظر

الى جمال البيت فى ذاته وموضعه ، والى جملة القصيدة فى تركيبها وترتيبها وفى تناسق معانيها ومواقفها ٠

وهذا كلام اقرب الى التعريض بتاريخ الشعر العربى منه ببيان منهج شعرى جديد ولعله يستأنف به كلاما كان قد كتبه قبل ذلك بسنوات فى مجلة كان يصدرها باسم (المجلة المصرية) فى ١٩٠٠ ، حين قال (ان اللغة غير التصور والرأى ، وأن خطة العرب فى الشعر لا يجب حتما أن تكون خطتنا ، بل لهم عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا ، ولهذا وجب أن يكون شعرنا مماثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم ٠ وان كان مفرغا فى قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية) ٠

وموجز هذا الرأى ، أو خلاصته اذا تجاوزنا مقدماته ، أن كل ميزاتنا من التراث العربى هو لغته فحسب ، أما مافيه من محتوى وأفكار وأحاسيس فهى ملك لزمانه لا لزماننا ٠

فهل كان ذلك هو صنيع مطران ٠

قصـــيدة المســـاء

لقد نظرت فى ديوان مطران عندئذ ، فلم أكد أجد فيه ، وفى أجزائه الأربعة الا بضع قصائد قليلة تحقق طموح شاعر أول القرن ، الذى أعطته الحيـــاة ما يقـــرب من خمســين عامـا من الحياة بعد تســـطير هذا البيـــان الشـــعرى ، وأحسـب هنـا أن أقول ان تلاميذه مثل ابى شـــادى وعلى طه وابراهيم ناجى كانت خطاهم على الطريق اوســـع من خطاه وبهذا المعنى يكون مطران

نموذجا للشاعر الذى يبدع مدرسة شعرية تتجاوزه · بينما يكون شوقى نموذجا للشاعر العظيم الذى يمضى فى طريق لا يلحقه فيه أحد ، بل لعله لا يغرى أحدا بأن يلحق به ، لأنه يمضى فى طريق لا يفضى الا الى تقليده ·

وهناك فضلا عن مطولات مطران القصصية مثل (فتاة الجبل الأسود) وغيرها قصيدة له عنوانها المساء ، أكاد أجدها بصورها وأجوائهـا فى الديوان الأول لعلى محمود طــه (المــلاح التائه) ، وفى عديد من قصائد ناجى ، ولعلى أجتزىء هنا ببعض أبياتها تدليلا على ما أقول ·

يقول مطران :

انى اقمت على التعلل بالمنى

فى غربة قالوا : تكون دوائى

عبث طوافى فى البلاد ، وعلة

فى علة منفاى لا استشفاء

متفرد بصبابتى ، متفرد

بكآبتى ، متفرد بعنائى

شاك الى البحر اضطراب خواطرى

فيجيبنى برياحه الهوجاء

شاو على صخر اصم وليت لى

قلبا كهذى الصخرة الصماء

يتتابها موج كموج مكارهى
ويفتها كالسقم فى اعضائى
والبحر خفاق الجوانب ضائق
كمدا كصدرى ساعة الامساء
يا للغروب وما به من عبرة
للمستهام وعبرة للرائى
او ليس نزعا للنهار وصرعة
للشمس بين مآتم الأضواء
أو ليس طمسا لليقين ومبعثا
للشك بين غلائل الظلماء
او ليس محوا للوجود الى مدى
وابادة لمعالم الأشياء
ولقد ذكرتك والنهار مودع
والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطرى تبدو تجاه نواظرى
كلمى كدامية السحاب ازائى
فكان آخر دمعة للكون قد
مزجت باخر ادمعى لرثائى
وكانني آنست يومى زائلا
فرايت فى المرآة كيف مسائى

لقد قرأت وسمعت أصداء لهذه القصيدة الجميلة المبكرة فى شعر من ذكرت من الشعراء بل لعل اصداء منها مازالت تتردد فى الشعر العربى حتى الآن ، ولكن شر الأمور فى الفن هو الوسط ، واسوأ ما يصيب فنانا أن تكون احدى عينيه على فنه ، وعينه الثانية على نقاد زمانه ، ولاشك أن جزءا من هذا الشعور كان ينتاب مطران حين يجدهم يحبون قعقعة حافظ ، وتكلف شوقى فى زمانه الأول ثم يغفلون عن جدة نسيجه وطرافة احاسيسه ٠

ســـــوناتا الغـــــرفة

ولعلى انظر فى قاموس مطران الشعرى فى (المساء) وغيرها فاجد مستنسخا فى قصائد ناجى وعلى طه الأولى ، ولكن كليهما قد مضى فى طريق تختلف عن طريق صاحبه فأما ناجى فقد قنع بأن تكون له قصيدة حب رومانتيكى واحدة على اختلاف اسماء مقاطعها او ملهماتها ، بينما ذهب على طه الى عالم الصبوات والمعاشق ٠

ولقد شبه طه حسين شعر ناجى (بموسيقى الغرفة) وهو تعبير فى الموسيقى الغربية يطلق عليه احيانا كلمة (سوناتا دى كاميرا) ، وهى تختلف عن الســـــوناتا التقليدية بحركاتها الأربع المأثورة ، بل وتختلف عن سوناتا الكنيسة التى يعزفها عشــــاق الموسيقى الغربية عند باخ فى سوناتاته الست الشهيرة للكمان ٠

فسوناتا الغرفة هى نغم ميلودى قريب من الرقص وافر الايقاع، فيه من الحركات الموسيقية مايدور حول بعضه ، فهى أقرب الى شعر الاعتراف منها الى شعر الحكاية ، واللجهة فيها حميمة ، ولا تطمح سوناتا الغرفة الى البناء السيمفونى الذى تتميز به السوناتا ٠

تعليق منصـــف ٠٠ لكن !

ولعل طه حسين كان أوضح منى قصدا وعبارة حين قارن بين شعر ناجى وموسيقى الغرفة كما سماها ، أو ســـوناتا الغرفة كما اقترح ، حين قال (هو شاعر حب رقيق ولكنه ليس مســـرفا فى العمق ، ولا مسرفاً فى السعة ، ولا مسرفا فى الحب الذى يحرق القلوب تحريقا ويمزق النفوس تمزيقا ، شعره أشبه بما يســـميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب ، وتهيم بك فيما تعرف ومالا تعرف من الأجواء) ٠

كان ذلك التعليق من طه حسين حين أصدر ناجى ديوانه الأول فى عام ١٩٣٤ ، وهو تعليق منصف لولا ان طه حسين أراد به أن يفضل نظراءه عليه ، فمن يستطيع القول ان المتنبى وحده هو شاعر العربية دون شعراء الغزل فى العصر الأموى أو شعراء الخلاعة فى العصر العباسى ٠ أليس الشعر مذاهب شتى فى القول ، وكل شاعر مهيأ لما هيأته له طبيعته ٠٠ أليس عشقنا فى الموسيقى لسيمفونيات بيتهوفن هو نفس عشقنا لأشجان تشايكوفسكى وليليات شوبان ، وقد كان جديرا بناجى عندئذ أن ينصرف عما فى حديث طه حسين من قصـــــد الله أعلم به الى ما فيه من حق ٠ ولكن ناجى كان وافر الحساسية ، وكان يرى عندئذ أنه سليل الرومانتيكية الأوروبية من جهة ، وسليل رومانتيكية مطران من جهة أخرى ، وذلك مذهبه فى الشعر ، ولكن العقاد أيضا ينحى على شعره قائلا انه شعر الضعف المريض والتصنع والرخاوة ، التى يزعم العقاد أنه يحاربها منذ عشرين عاما ٠ فكأن الرجلين يتهمانه بالرقة الضحلة مرة ، وبالرقة المتصنعة الضعيفة مرة أخرى ٠

وقد قيل ان ناجى آثر هجر الشعر بعد هذه الحملة ، وما أظن انه هجر الشعر بحق ، فالشعر لا يهجر ، ولكنه حاول فى بعض

القصائد أن يخرج عن عالمه الأثير الى عالم أكثر سعة كما نصحه بذلك طه حسين ، فكتب بعد سنوات بعض مطولاته مثل (ليــالى القاهرة) التى اختار لها البحر الطويل والقافية الفخمة ، مفتتحا لها بقوله :

أليلاى ما أبقى الهوى بى من رشد
فردى على المشتاق لوعته ردى
أينسى تلاقينا ، وأنت حزينة
ورأسك كاب من عياء ومن سهد
بنفسى هذا الشعر والخصل التى
تهاوت على نحر من العاج منقد
ترامت كما شاءت وشاء لها الهوى
تميل على خد وتصدف عن خد

ان هنا فى هذه القصيدة ديباجة شعرية وصورا غير ماعرفنا عن ناجى ، كلها أو معظمها ينبع من احتذاء السلف ، ومحاولة الاسراف فى السعة والعمق كما نصح طه حسين ، أما أنا فاننى أفضل على هذه القصيدة ناجى شاعر موسيقى الغرفة حين يقول فى أوزانه القصيرة وخواطره التى هى ليست عميقة عمق التكلف والتصنع ولكنه عمق الحياة :

دار أحبابى وحبى لقيتنا
فى جمود مثلما تلقى الجديد
انكرتنا ، وهى كانت ان رأتنا

يضحك النور الينا من بعيد

و عندما يقول فى أروع سوناتاته ، الأطلال ، التى هى فى واقع الأمر اقرب قصائده فى تركيبها الى سوناتا الموسيقية :

كنت تدعونى طفلا كلما
ثار حبى وتندت مقلى
ولك الحق ،فقد عاش الهوى
فى طفلا ، ونما لم يعقل
وأرى الطعنة اذ صوبتها
فمشت مجنونة للمقتل
رمت الطفل ، فأدمت قلبه
وأصابت كبرياء الرجل

ولعل هذا الحديث عن ناجى يقودنى الى القول ان الشعراء يجب أن يعصموا أنفسهم من النقاد ، فليس ألزم للشاعر من كلمة سقراط القديمة (اعرف نفسك) ، وليس الشعر دربا واحدا يمضى فيه الشعراء شاعرا اثر شاعر ، ولكنه دروب عدة ومسالك متباينة ٠

وبهذا الفهم وحده ، يكون ناجى هو أرق العاشقين وأصدقهم فى عصرنا الحديث ٠

« تابـع »

كتابان تعلمت منهما

آسف أنا ، بل وحزين ، لاغتراب كتابين وذهاب زمانهما ، اذ أفتقدهما بين أيدى ناشئة أدبائنا ، فلا أكاد أجد لهما ظلا أو صدى ·

أحد الكتابين عربى والآخر انجليزى وكلاهما يجمع بين دفتيه ذخيرة صالحة من أدب الأمتين ·

أول الكتابين وأحقهما بالتقديم ، هو الكتاب المنتخب من أدب العرب ·· كانت فيه جملة صالحة من شعر العربية ونثرها على امتداد عصورها · وقد جمعه وشرحه طائفة من أساتذة الأدب على رأسهم طه حسين العظيم · ومن هذا الكتاب وعلى صفحاته المشرقة عرفنا فى سنوات الصبا الأولى أسماء امرىء القيس والنابغة والأعشى وطرفة ، ثم اكتملت سياحتنا المباركة حتى وصلنا الى ساحة الشعراء فى القرنين الرابع والخامس الهجريين من أمثال السرى الرفاء وكشاجم والبستى والطغرائى وغيرهم ، ثم اطلعنا على بعض النابهين من شعراء عصور التخلف كالبهاء زهير وابن نباته ، وقادنا بعد ذلك حتى طالعت عيوننا وجه الشعر العربى القديم المتجدد عند البارودى واسماعيل صبرى وشوقى ·

كان الكتاب منجما مجزءا ، وكانوا يوزعونه مفرقا على طلبة المدارس عام بعام ، فى المرحلة الثانوية ، اذ لم تكن المرحلة الاعدادية قد استحدثت بعد لتكون أشبه بالجهل منها بالعلم ٠٠ وكان منقطعو الصـــلة بالأدب من الطلاب يخلون بين الكتاب ومثواه فى خزائنهم الصغيرة ، أما الهواة الضالون الذين يفتنهم سحر اللفظ والايقاع فقد كانوا يقلبون أوراقه ، ويقرأون فصوله ، ومن هذا الكتاب ، وعلى أجنحته السحرية كانوا ينزلقون الى عوالم هؤلاء الشعراء ٠

الانســـــان والحـــــزن

أذكر الآن بعد ما يزيد عن ثلث قرن أنه كان فيه للمتنبى ، سيد القلب فى ذلك الزمان ، بضع قصائد ، تعى ذاكرتى منها قصيدتان ، احداهما من شعر صباه فى مدح صعلوك أو سيد اسمه شجاع بن محمد الأزدى ٠٠ من شجاع ؟ ومن محمد الأزدى ؟ لولا المتنبى العظيم ٠٠ ؟ فى القصيدة لهجة وعظ وارشاد تذكرنا بخطبة قس بن ساعدة الشهيرة ٠٠

وهى أشبه بحديث صبى نابغة الى صبيان أغرار :

أبنى أبينا ، نحن أهل منازل

ابدا غراب البين فيها ينعق

نبكى على الدنيا ، وما من معشر

جمعتهم الدنيا ، فلم يتفرقوا

أين الأكاسرة الجبابرة الألى

جمعوا الكنوز فما بقين ، ولا بقوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه

حتى ثوى فحواه لحد ضيق

خرس اذا نودوا كأن لم يعلموا

أن الكلام لهم حلال مطلق

فالموت آت والنفوس نفائس

والمستعز بما لديه الأحمق

والمرء يأمل والحياة شهية

والشيب أوقر والشبيبة أنزق

انى لأنظر الى القصيدة الآن ، فأرى لهجتها تلك هى لهجة الشباب فى كل عصر وأوان . اذ يرتعدون بين أمل الحياة ويقين الموت ، وقد علمنى العيش أن الانسان أقرب مايكون الى الحزن فى ساعة الفرح العميق .

الحيـــــاة العظيمة

وأذكر أيضا أن الكتاب قد حوى ميميته الجليلة فى مدح سيف الدوله حين بنى ثغر الحدث مسجلا انتصاره على الروم ، والمتنبى العظيم يبدأ القصيدة بحكمة تقريرية هى أعظم شعرا من كل شعر ، ودعك مما يقولونه عن الخيال والصـــور ، فهنا صـــياغة مجردة كالحقيقة ، سامية مجلوة مثل جلاء السموات والأرض :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم

وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغر صغارها

وتصغر فى عين الصغير العظائم

ترى ·· أعرفت ياسيدنا أبا الطيب أن الناس معادن ، وأن الحياة العظيمة هى ارث الرجل العظيم وامتحانه ·

ماذا علمنـــا ؟

أما أبو العلاء المعرى ، ففى ذاكرتى مما حواه ذلك الكتاب قصيدتان ، أولاهما داليته الشجية فى رثاء فقيه حنفى ، يبدأها بهذا المقطع الباتر كالسيف « غير مجد فى ملتى واعتقادى » ، ولقد علمنا فيها أبو العلاء العظيم كيف نمشى فى الأرض رويدا حتى لا تدوس أقدامنا الجافية رؤوس أجدادنا المهشمة ، ولنذكر عندئذ مع شكسبير مشهد الحفار فى مسرحية هاملت ، ولنقل أن جمجمة قيصر قد أصبحت سدادة لبرميل جعة ·

وترد فى الكتاب أيضا قصيدته الباذخة التى مطلعها :

عللانى فان بيض الأمانى

فنيت ، والزمان ليس بفانى

أليس هذا مطالع يخلع القلب خلعا ؟

أول مســـرحياتى

قادتنى هذه المجموعة على امتداد صباى الى قراءة بعض شعراء العربية الكبار الذين كانت دواوينهم فى طوق اليد والجيب · ولقد فتنت بالمتنبى حتى حفظت معظم شعره ، بل لقد كنت كثيرا ما

اجسده فى خيالى رجلاً يعيش بين ظهرانينا ، بشر من التراب يعود الينا من عالمه الروحانى ،فأحادثه عندئذ ويحادثنى ، ولقد كانت صورته عندى هى صورة الشيخ المتأبى الكريم على نفسه وعلى الكون ، فلقد كنت قرأت من أمور كبريائه ما ملأ قلبى اكبارا له ، كان المتنبى يبدو لى خليا من شئون الحياة العابرة الا التوق الى مثلها العليا ، منصرفا عن سفاسف الحياة الى عليائها . وأذكر أن أول محاولاتى المسرحية كانت قطعة حوارية فى بلاط سيف الدولة ، أبطالها المتنبى وأبو فراس وابن خالويه وسيف الدولة ، يخرج فى أثنائها الشاعر غاضبا لتلقى به أرض تنكره الى أرض ينكرها ، وقلبه الثقيل معلق بقلعة حلب وأميرها الشجاع الغادر . وتمضى السنون حتى ينقذه الموت من أشواقه المبرحة .

ولكن أنى لى فى ذلك الوقت أن أكتب مسرحية أو شبه مسرحية ، وأنا لم أشهد مسرحا فى حياتى ، فلم يك فى مدينتنا الصغيرة من مجالى التشخيص الا داران شديدتا الرثاثة للسينما ، تعرضان بعض الأفلام العربية التى لم تشهد صناعة السينما فى تاريخها الطويل فى جميع بلاد العالم ما يماثلها سوءا ، فهى افلام موجة الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، حين نما جمهور عمال وموظفى معسكرات جيش الاحتلال ، وبسط سلطانه على أدوات الفن والتسلية ، اذ كان هو أكبر مستهلكيها .

كانت هاتان الداران تقدمان لأفلامهما السخيفة ببعض الحلقات الأمريكية التى شـــاعت فى ذلك الزمان ، مثل حلقات « زورو » و « عودة زورو » ، ــ وبأفلام مسلسل طرزان وقردته العجيبة شيئا التى تســللت الى عقولنا كتبا مقروءة قبل أن تغزوها اشـــرطة مصورة .

الحنين الى صـــوته

تلك كانت علاقتى بالمسرح كمبنى ، أما علاقتى به كمعنى ، فلم تزد عن قراءة بعض مسرح شوقى وتوفيق الحكيم • وكلاهما ـ فيما أظن ـ لا يقودان الى فهم المسرح حق الفهم ، بل لابد من تجاوزهما الى المنابع الأولى لكى نقترب من سر الكيمياء المسرحية ، أو سـر خلط عناصر الحكاية والشخصيات والحوار ، وصهرها فى بوتقة واحدة •

وقد قادنى المنتخب من أدب العرب ، أيضا ، الى قراءة أبى العلاء المعرى فى لزومياته •

ومن الغريب أن الطبعة التى قرأتها حينئذ هى ذاتها الطبعة التى أقتنيها الآن وأعود اليها حين ينتابنى الحنين الى صوت أبى العلاء الوادع الكسير • فلم أعرف فيما صدر بعد ذلك طبعة أدق منها وأوثق • وهى مطبوعة فى عـــام ١٩٣٣ ، بمعونة أحـــد محبى العربية ، بالمطبعة الجمالية بمصر ، على ورق بين الأصفر والأبيض ، ودون أن يحتال عليها اسم محقق يزعم لنفسه سبقا الى فهم النص،ويثبت اسمه بأحرف أكبر من أحرف اسم صاحب الكتاب • كما جرت العادة فى هذه الأيام الغبراء •

يد العبث

ولعله مما يفتنك ويملأ نفسك اكبارا ، كما حدث لى فى تلك الأيام البعيدة ، افتتاح أبى العلاء لمقدمة لزومياته بقوله :

كان من سوالف الأقضية أنى انشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط (الظلم) ••

فلنذكر عندئذ أن هذه الكلمة المحدثة (الصدق) التى طالما تشدق بها كتابنا المحدثون كان أبو العلاء هو مبتدعها ، ولكن بحق ويقين ..

وحين قرأت أبا العلاء محا من فؤادى كل ما عداه ، فكأنه ختم عليه ألا يحل به سواه ، وأدركت أنى لو عشت فى زمانه لحرصت على أن أكون أحد تلاميذه أو خدامه ، أقرب اليه طعامه ، واقوده فى مشيته ، واميط الأذى عن ثوبه ، ولعلى اجنى لقاء ذلك علما أو أدبا أو خلقا .

وتمر الأيام من بعد ، وندرك أن الطريق الذى اختاره أبو العلاء شاعرا وانسانا اكبر من قامتنا التى حناها الزمان ، وأنظف من عصرنا الذى لطخه الكذب الشائع فى الأبواق . فلنقتنع اذن بمحبته دون أن نكلف أنفسنا التأسى به .

ومجمل القول هو انه لولم يكن لهذا الكتاب النفيس من فضل سوى أنه قاد شداة الشعر الى عالم الأسلاف العظيم لكان هذا سببا كافيا لبقائه بين أيدى طلاب المدارس ، ولكن يد العبث التى عبثت بالتعليم كله محت من المدارس هذا الكتاب فيما محت من علم وخلق، ووضعت بين أيدى التلاميذ اسوأ النماذج من شعر معلمى المدارس ومفتشيها ، وأكثر النماذج ركاكة من نثر متصدرى الساسة وأشباه الساسة .. ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الذخـــيرة الذهبيـــة

ولقد كنا فى ذلك الزمن القديم نلمح بعض الشعر المترجم عن الانجليزية والفرنسية يتناثر فى أعمدة الصحف والمجلات . فمن ذلك ترجمة قصيدة « مرثية فى مقبرة ريفية » لتوماس جراى ، وقصيدة

« الى الوقواق » لورد زورث وقصيدة « الى وعاء اغريقى » لكيتس ، وقصيدة « أغنية الى الرياح الغربية » ، وقصيدة « الى قبرة » لشللى العظيم ، فضلا عن بعض قصائد للامارتين وفاليرى من الفرنسيين ٠

وكان بعض الأبناء النوابغ الأول للجامعة يعكفون أحيانا على ترجمة كاملة لبعض الأعمال الشـــعرية ، اذ ترجم لويس عوض « بروميثوس طليقا » لشيللى ، وألحق بها قصيدته الطويلة « أدونيس » التى كتبها فى رثاء جون كيتس ، كما ترجم عبد الرحمن بدوى « تشايلد هارولد » لبيرون ٠

ولقد انبعث لدى الناشئة الأدبية أو بعضها عندئذ الشوق الى مطالعة مايزيد عن ذلك القدر الضئيل من شعر سوانا من الأقوام ، ووجدنا بين أيدينا كتابا من مختارات شعر اللغة الانجليزية كانوا يوزعونه فى الجيل الذى سبقنا على طلاب المدارس ،فأدركنا نسخا مســـتعملة منه على سور الأزبكية حيث تباع الكتب القـــديمة ، واشتريناها بقروشنا الضئيلة ٠

كان ذلك الكتاب هو كتاب « الذخيرة الذهبية » الذى جمعه ف ٠ ت بالجريف فى أواخر القرن التاسع عشر ، عصر غلبة الذوق الرومانتيكى ، قبل أن يثور الشعر الانجليزى على نفسه ، وتمتد اليه مغامرات التصويريين أو تجريب « اليوت » ، وكان آخر الأصوات العظيمة فيه هو صوت اليزابيث وروبرت براوننج ٠

الحســـاسية الشـــعرية

كنت أقرأ مستعينا بالقاموس ، ومازالت نسختى القديمة من قاموس « الياس » تصاحبنى منذ خمسة وثلاثين عاما ، أمد اليها يدى بكل الحب القديم رغم جـــوارها فى مكتبتى المورد البعلبكى وقاموس النهضة لاسماعيل مظهر ٠

عرفت من قراءاتى فى ذلك الزمان للمنتخب من شعر الانجليز، أو الدخيرة الذهبية ، صورة الشعر الانجليزى منذ بدايته فى عصر تشوسر حتى القرن التاسع عشر ، ولا أزعم أننى عرفت الصورة بدقائقها وتفاصيلها ، فما الى ذلك من سبيل ، وأنا لا أدعى لنفسى معرفة وثيقة الا بأدب العربية ، ولكنى عرفت الصورة التى قد تصلح لشاعر أجنبى عن هذه اللغة ، يريد أن يدرك أبعاد الحســـــاسية الشعرية فى هذا الأدب ، فقرأت بعض سونيتات شكسبير لأعرف منها الشكل الفنى للسونيتة ، وعالمها الأثير ، وأحببت عالم كولردج الذى تمتزج فيه الفلسفة والشعر والوهم ، وأظن أن قصـــيدته « الملاح القديم » ٠٠ ستظل من أحب قصائد الشعر الىنفسى ، كما أحببت شللى ، شجرة الورد الحساسة النقية ٠ أما بليك فقد اكتشفته فيما بعد ، اذ أن بالجريف لم يقدمه بكل شاعريته الجموع ٠

الزمن المفقـــود

هذا أنا بعد ثلاثين من السنين أجدنى شتيت القلب بين عالمين ، يدركنى الملال فى بعض الليالى ، فأمد يدى الى ديوان من دواوين شعرنا القديم ، أتأمل الصنعة الذكية عند بعضهم ، أو الالهام العميق عند آخرين ، أو أمد يدى الى مجموعة من شعر سوانا من الشعراء الانجليزى أو غيرهم من أمم الأرض مترجما الى لغة أعرفها ، فاتأمل عندئذ امتزاج الصنعة والالهام كما تمتزج الكاس الشفافة برحيقها ٠

وأذكر عندئذ أن كتابين عظيمين قد فتحا لى هذه الكوة المضيئة « المنتخب من أدب العرب » لطه حسين وزملائه ، و « المنتخب من شعر الانجليز » المشهور بالذخيرة الذهبية لبالجريف ٠٠ اذكرهما وتنهمر ذكريات الزمن المفقود أمام عينى الكليلتين ٠

« تابـع »

جماعة الضحك القديم

لعلى لم اضحك ضحكة صافية منذ أن وهن الحبل بينى وبين مدينة « الزقازيق » مسقط راسى ، ومغدى صباى ، فلقد عرفت فى حياتى بعدها عديدا من لحظات السعادة وفى ظنى أن السعادة بمعناها المأثور من حيث البال وسكون النفس ، ليست الا رهينة بلحظة ما تلبث أن تنقضى ، وأن هذه اللحظات السعيدة شأنها مثل لحظات الوحى أو العشق تظل تلمع كالجواهر فى ملاءة النفس الكابية ، ولكنها جواهر ما تلبث أن تنطفىء ، ويستحيل على الانسان بعدئذ استرجاعها أو استعادة ذكراها بكل ما كان فيها من نار ونور ·

لو غبطت نفسى على شىء لغبطتهـــا على بعض لحظات من السعادة كانت هى عزائى عن زمن مغموم ، ولكنى فى أيامى الأولى كنت أعرف الضحك الصافى الذى لا نسأل الله بعده الا خيرا ، توجسا لحزن قادم ما يلبث أن يفد ليسترد هدية الزمان ، وندماً على أننا انسقنا نكركر وقد نسينا أن الهم لنا بالمرصاد ·

ولم يكن هذا الضحك ضحكا ساذجا أبله ، بل كان ضحكا عميقا ينبع من ادراك مفارقات الوجود والاطلال عليها بالعين الساخرة

والقلب الدافىء ، وأنا الآن أذكر صـــحاب الصبا فينهمر على من شذاهم عطرا يملأ أرجاء الغرفة ، وقد فصلت بينى وبينهم بيداء لا يسرى بها نجم ولا يشقها ضوء ، بيداء شاطئاها الحياة والموت ٠

الســـعى لدكانه

كان أول من قدمنى الى عالم الضحك العقلى الصافى هو ابراهيم السروجي عليه ألف رحمة وسلام ، وربما كان لا يعرف السروجى حق المعرفة الا أنا ، وعديد من الموتى ، وقليل من الأحياء ، كان ابراهيم السروجى أحد أعلام المدينة ، بخفة ظله ،وحياته التى تختلط هزلها بجدها ، فقد عرفناه كما كان ينبغى له ان يعرف ٠

كنت فى الخامسة عشرة من عمرى وكان مسعاى اليه فى دكانه حيث كان يعمل فى صناعة السروج لحمير سادة الريف واحصنة عربات الحنطور التى كانت هى « تاكسيات » ذلك الزمان ، وكانت النكتة الأثيرة لابراهيم حين يهل عليه احدنا هى ان يقول له ٠٠

« قم لآخذ مقاسك وأصنع لك جاكتة » ٠

كان ابراهيم السروجى لا يعمل فى دكانه الا ساعة او بعض ساعة ثم مايلبث أن يدركه الملل ، فيمد يده الى كتاب مطوى تحت اداة صناعته من الجلد والخيش ، ويقرأ فيه حتى يهل عليه واحد من اتباعه ، وفى دكان ابراهيم السروجى سمعت لأول مرة أسماء نيتشه وشوبنهار وجون ستيورات ميل ، وفى دكان السروجى ، وعلى مائدته فى مقهاه الأثيرعرفت أصدقائى ٠٠ وأصدقاء الضحك ٠

أحـزان ما بعد اللقــاء

ذهبت أول مرة الى دكان السروجي متعاليا ، فأنا طالب فى نهاية المرحلة الثانوية ، ونحن نعلم أنه لم يحصل من الشهادات الا شهادتى الميلاد والتوحيد . ولكنى مالبثت أن فتنت بهذا السقراط الريفى ، ووجدتنى أناديه بيا أستاذ ، وقد كان حريصاً على هذا اللقب لا يدرى أن الزمان سـيجعله أهون على الناس من القش والحصى ، وحين توثقت صداقتنا كنت أغيظه بأن أناديه باوسطى أو معلم (بكسر الميم) ، فكان يغضب ، وينهال على بنكتة يتألق فيها الذكاء والمرح .

كانت كلمة « أستاذ » حين تطلق فى مجتمعنا الضاحك لا تنصرف الا اليه ، وكان كتابه الذى كتبه فى شبابه الأول عنوانه « ضياء الفجر » على ما اذكر ، يتأسى فيه بكتاب نيتشه العظيم « هكذا تكلم زارادشت » . ومن السخرية أن ابراهيم حين شرع فى طبعه تخيل أن المصريين بماليديهم من عادة التغريب أو الاستغراب لن يقرأوا الا لمؤلف أوروبى فطبعه لا تحت اسمه ، بل تحت اسم مستعار هو « جون برانشمل » .

كان ابراهيم قارىء فلسفة ، سبيله اليها ترجمات عبد الرحمن البدوى المبكرة ، وقد جال بذهنه أن يكون « عقادا » جديدا ، وكان له مايؤهله لذلك ، فقد كان طويل القامة شأن العقاد ، جهر الصوت مثله ، وأظنه سعى يوماً الى العقاد فى بيته ليناقشه نقاش الأستاذ للأســتاذ ، ولكن العقاد جبهه بالرد الغليظ ، فعــاد الى مدينتنــا الصغيرة ، كأنما ما كان فى هذا اللقاء الا عن الأصحاب الخلص ، وذلك حين يطول الليل ويحلو السمر وتنكشف النفوس عن مكنونها .

وأنا أشهد الله الآن ، أن عقل ابراهيم كان فى لماحية عقل العقاد ، ولكن العقاد قد وهب التنظيم والصرامة فى القراءة والانتاج، بينما كانت حياة ابراهيم فوضى تختلط بالفوضى ، كان يمشى بقامته الطويلة تتارجح كشراع مركب تدفعها الريح ، وهو موزع بين الدكان والمقهى وسمر الليل ، لا تحتوى يمينه المال الا ريثما تحرقه دخانا أزرق ٠

ما ذكرت ابراهيم الآن الا وطافت فى ذهنى أبيات توماس جراى المشهورة فى قصيدته « مرثية فى مقبرة ريفية » ٠

ربمـــا يرقد فى هذه البقعة المهملة ، قلب تاججت فيه النـار

السماوية ذات يوم ٠

أو أياد كانت تستطيع التلويح بصولجان الملك ٠

أو بعث النشوة فى أوتار القيثارة الحية ٠

ولكن المعرفة لم تبسط لهم أبدا ، صفحتها العريضة ، الثرية

بما غنمت من الزمن ٠

فالعسر المدقع قد كبت حمية تبلهم ٠

وجمد مجرى العبقرية فى نفوسهم ٠

وأنكر عندئذ منذ ما يزيد عن عشر سنوات ، حين حدثنى احد اصحاب الضحك تليفونيا فى بيتى بالقاهرة قائلا ان ابراهيم يرقد الآن فى أحد المستشفيات مريضا بمرض عضال ، وزرته لأجد أن المرض قد التهم حنجرته ، وأسكت صوته وهو اعظم ملقيه ، ثم مالبث ان

مات ابراهيم ، لقد سكت صوته الذى صدح بالحكمة والفكاهة . فما جدوى النبض اذن ؟

نفس المـــرض

زرت ابراهيم لأول مرة مع صديقى أحمد هيكل ٠٠ الدكتور أحمد هيكل عميد كلية دار العلوم الآن ، أطال الله عمره ، فهو بعض القليل الباقى من الكثير الذاهب ، وقادتنا جلسة القهوة معه لمعرفة مرسى جميل عزيز ، رحمه الله ٠

كان مرسى عندئذ جملة رجال فى رجل فهو يتجر فى بعض مخلفات الجيش الانجليزى ، وفى الفاكهة ، وعنده هواية تستهلك وقته وبعض ماله وهى التصوير الفوتوجرافى ، ثم هو الى ذلك أول من شــق منا طريقا الى القاهرة بأغانيه التى كان يغنيها مطربو ذلك الزمان ٠

كان مرسى شديد القلق طموحا ، ذكيا ذكاء لا يحاول أن يخفيه . بل هو يستعرضه حين تسنح له الفرصة ، او يخلقها هو ، ومرت السنوات وأنا أعود الى الزقازيق فى كل أجازة صيف ، وأحيانا فى عطلة نهاية الأسبوع ، فأسمع من مرسى ما كتب من أغان لأعلام المطربين ، وأسمعه ما كتبت من شعر سينشر فى مجموعة أو يتفرق فى المجلات الأدبية ، فلا أنا راض عن أغانيه كل الرضا ، ولا هو راض عن شعرى كل الرضا ٠ وذكاء مرسى مشحوذ دائما لكى يفتش عما لا يعجبه ،وملكته الجدلية ناهضة عنه بما يعوزه من حجة ، ولكننا رغم ذلك نضحك حتى التعب مع رفاق الضحك ٠

وتمر سنوات أخرى ، واذا « مرسى » فى القاهرة أكثر مما هو فى الزقازيق فلقد غنت له أم كلثوم كما غنى له كبار المطربين ،

واذا مرسى يعود الى الشعر الفصيح بين حين وآخر ، واذا بآرائنا تتقارب ، أو يكون لقاؤنا على الاعجاب أكثر من افتراقنا ، ثم يهجر مرسى القاهرة والزقازيق معا الى الاسكندرية ، ومازلت أذكر ليلة منذ سنوات أربع أو خمس ذهبت فيها الى الاسكندرية لأحاضر فى كلية آدابها ، وفى المساء سعيت الى « مرسى » والتقينا فى أحد مقاهى الشاطىء ، وكان معى المحامى المعروف الذى هو قطعة من تاريخنا ابراهيم طلعت والشاعر السكندرى عبد المنعم الأنصارى ، وأقنعنا فى تلك الليلة صاحب المقهى أن يترك لنا المقهى فى أخريات المساء ،ويأتى لاستلامه منا فى أول الصباح ٠

وأصاب نفس المرض الذى صرع ابراهيم أخى وأصاب مرسى، فى حنجرته وصدره هذه المرة ، وسافر الى أمريكا للعلاج ، فعاد وقد استشرى المرض ، ومالبث أن القى تحية الوداع ٠

لـــون مـــن العبث

واحمد مخيمر العظيم النقى النفس ، أحد أبناء مدرسة أبوللو المحلقين ، ما ذكرته الا ذكرت دورة الأفلاك بالمصائر ٠ لقيته أول مرة عام ١٩٤٦ ، وكنت عندئذ طالبا بالثانوى ، وكان هوشاعرا معروفا ، فلقد وفدت الى الزقازيق ثلة من جمعية أدبـــاء العروبة التى كان يرعاها الدسوقى باشا أباظة لكى تلقى شعرا فى حفل لها ، وكان من بين هؤلاء الوافدين ابراهيم ناجى ومحمود غنيم وطاهر ابو فاشا والعوضى الوكيل وأحمد مخيمر ٠

سرى نبأ هذا الحفل فى أوساطنا نحن الطلاب منسداة الشعر ومحاوليه ٠ ثم قيل لنا ان رعاة الحفل سيختارون طالبا أو طالبين لكى يلقوا بقصائدهم فتقدمنا بقصائدنا ، ثم ما لبث رعاة الحفل ان

عدلوا عن ذلك كله ،واختاروا من المدينة قصيدة لأحد مدرسى اللغة العربية بها ٠

وحضرنا الحفل ، وكان من اجمل ما فيه قصيدتا مخيمر وأبو فاشا ، وبعد الحفل سعيت أنا وأحد زملائى الطلاب للقاء مخيمر ، فوجدناه على محطة القطار يستعد للسفر الى القاهرة ٠

كان فى مخيمر لون من العبث الحبيب فهو اذا سألته عن شىء ما يقول لك ما يخطر فى باله ، وقد حلا له عندئذ حين رأى صبيين غريرين يسألانه بلهجة هى أقرب الى الاجلال أن يعبث بهما ٠٠٠ سألناه عن أولاده فقال لنا لديه خمسة وثلاثين ولدا من تسع نساء ، وعن عمله فى القاهرة فقال لنا انه طيار مدنى، وكان وجهه حين يلقى بهذه المعابثات ساكنا نقيا كانه ينطق بالصدق الصادق ٠ وحرنا فى أمره ، فتركناه على رصيف المحطة ، ونحن لا ندرى مقطع الجد فى أمره ٠

وتمضى سنة وبعض شهور واذا بمخيمر قعيد مجلسنا فى المقهى وسمرنا الليلى الضاحك بعد ذلك ، واذا بى ألفت عبثه وشاهدت منه فنونا ، تبهج القلب الحزين ، ثم تمضى سنوات أخرى ، ويشق كل منا طريقه فاذا أنا اعمل فى الصحافة ، لأنتقل منها هابطا فوق الرؤوس الى عمل سياسى فى وزارة الثقافة ، واذا بمخيمر احد معاونى ، هذا الشاعر الفحل الذى يكبرنى بعشرين عاما ، والذى تقدمت اليه منذ بضع سنوات ضارعا أن يحدثنى بشىء من أمره وشعره ٠٠ ألم اقل انها دورة الأفلاك !!

لكم ضحكنا عندئذ ، وكان أشد ضحكنا حين ارى مخيمر يتلطف فى الحديث الى امام الزملاء ،ثم ما يلبث أن يعتذر لى عن احترامه اذا خلا لنا المجلس ٠

وداهم مرض القلب مخيمر ،ومات وهو حول الستين ٠٠ سنة قبلها أو بعدها ٠٠ لا أذكر ، وبقيت لنا ذكرى لا تموت وشعر سيتألق وميضه يوما ما حين تعتدل الموازين ٠

عنـــدما بكيت

اخذت ذات مرة يد صديق عرفته على مقهى الطلبة بالزقازيق وكان يكبرنى بعامين ، وقد أتم دراسته فى معهد موسيقى ، وأقام ينتظر تعيينه مدرسا للموسيقى ، أخذته من مقهى الطلبة بعد أن توثقت بيننا صلة الصداقة لأقدمه الى مرسى جميل عزيز فى مقهى جماعة الأدباء الضاحكة ٠

وهكذا عقدت الصلة بين عبد الحليم شبانة الذى سمى نفسه فيما بعد بعبد الحليم حافظ ، وبين مرسى جميل عزيز ، ولكن مرسى تباطأ فى الكتابة لعبد الحليم ، وفى دفعه الى ساحة الشهرة ، ودخل عبد الحليم الغناء معتمدا على كلماتى التى لم أكرر مثلها ، وعلى ألحان كمال الطويل ، صديقنا فى ذلك الزمان فى الصعلكة القاهرية ٠

لا أريد فى هذا المقام ان أتطفل على ذكرى مطرب أحبه الملايين ، ونادم الملوك والأمراء ، وتسنم أوج الشهرة ، ولكنى أذكر اننى فوجئت بنعى عبد الحليم وأنا فى الهند فلم أملك الا أن أبكى ولم يفد لخاطرى أن العشرين عاما الأخيرة باعدت بينى وبينه الا حين نلتقى مصادفة فنتبادل السلام والمجاملة ، ولكن ما وفد لخاطرى كان أننا اتفقنا سنوات ثلاثا أو أربعا لانكاد نفترق الا على موعد ونشق طريقنا فى الحياة جاهدين مجهدين ٠

الجـــوهرة اليتيمة

ماذا ذكرني برفاق الضحك القديم ·· لعله الحنين الى زمن لا يستعاد ، ولعله أن أحدهم ، واحبهم الى نفسي قد أعطاني ديوانه بالأمس لأقرأ فيه ، وأرى فيه رأيا أو أدفع به الى المطبعة ·· حصاد عمر باكمله ، لم ينشر او يعن بنشر شيء منه ·

هذا هو الصديق الحبيب ابراهيم شاهين ، اسم لا يعرفه الا أنا ، وشاعر لو أنصف الزمان وأنصف هونفسه من الزمان لتألق كالجوهرة اليتيمة ·· سقطت الآن أسنان أبراهيم وتقاعد ·· يقول لي أحيانا ضاحكا :

سأرثيك رثاء حارا كما رثيت مرسي ، فأقول له :

يا ابراهيم ·· نحن نمشي بالدور والترتيب ·· لقد مضى ابراهيم السروجي اكبرنا سنا وتبعه احمد مخيمر الذي يليه في العصر وتبعه مرسي الذي كان أكبر منك بشهور ثم عليك الدور ، وبيني وبينك عشر سنوات · !!

الم اقل لك اننا جماعة الضحك القديم ·· نضحك حتى في الموت !!

« تابـع »

الأربعــــة الكبـــار

كتبت منذ سنوات طوال طائفة من المقالات عن أعلام الأدب الأربعة فى تراثنا المعاصر : طه حسين ، والعقاد ، وتوفيق الحكيم ، وابراهيم المازنى·وجمعت هذه المقالات فيما بعد فى كتاب(*) ،ولست هنا أروج للكتاب ولكنى أبغى أن أقدم اقرارى بأن هؤلاء الأربعة الكبار كان لهم أكبر الأثر فى تكوينى العقلى والذوقى فى ســـنوات الصبا الأولى وما بعدها ·· كان العلمان اللامعان بينهم همـا طه حسين والعقاد وكان العقاد أقرب الى النفس ، وبخاصة اننى أموت فكريا فى السنوات التى واكبت انصـــرافه عن الكتابة الأدبية تلك السنوات الخصبة التى نشر فيها العقاد كتبه : الله ، وهذه الشجرة، والعبقريات وسواها ، وكان ما يستهوينى فى العقاد هو ذاته ما استهوانى فى المتنبى ، ومن الغريب أننى بدأت بعكس المتوقع قارئا للمتنبى وأبى العلاء ، ثم تجاوزتهما الى العقاد وطه حسين ولعله لم يوهن صلتى بالعقاد المفكر الا قراءتى للعقاد الشاعر ، بينما توثقت

(★) اعيد نشره فى الجزء الثالث من مجموعة الاعمال الكاملـة مع الدراسات والمقالات المتصلة به والتى صدرت بعد ذلك ومنها هذا الفصل ·

صلتى بطه حسين المفكر خلال قراءتى لطه حسين الكاتب الفنان ٠ ولو انصف العقاد نفسه لقال عن الشعر كما قال بعض القدماء ، وأظنه الخليل بن أحمد حين سئل لم لا ينظم الشعر ، فأجاب بما معناه أن ما يرضاه منه لا يتيسر له ، وما يتيسر له لا يرضاه ٠

معذرة ، فقد أوشكت حين كتبت هذا الرأى القاطع ان اضيق بنفسى ، فما العقاد بهين فى الميزان ، ولســـت أخشى من تلاميذه المتعشقين لكل ما جادت به قريحته ، ولكنى أخشى من كلمة مخيفة لأبى العلاء يقول فيها :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

انى اخاف عليكمو أن تلتقوا

وانى ليردنى الى الانصاف هذا البيت فأنظر فى شعره الآن فاجد وسط الرمل والحصى والتراب بعضا من التبر اللامع ولكنه ليس وافرا بحيث تنهض للعقاد حجة بينة فى ملكوت الشعر ٠

ولقد اشتدت فتنتنا أيام الدراسة الجامعية بطه حسين ، فقد كان معلمونا من زملائه وتلاميذه ، ومن الحق أن بعضهم كانت قد ضاقت نفسه بطه حسين ، وذلك شأن يكون بين المتعاصرين ، أو بين الأساتذة وتلامذتهم النامين الشابين عن الطوق ٠ وكذلك كان شأن أحمد أمين من ناحية ، والدكتور نجيب البهبيتى دارس أبى تمـــام وصاحب الكتاب الجيد عن تاريخ الشعر العربى من ناحية أخرى ٠ كان أحمد أمين خفيف الظل بارعا فى اطلاق الفكاهة اللاذعة ، وكان نجيب البهبيتى عصبيا محرورا يرى أن طه حسين قد سلبه حقه ، وآثر عليه زملاءه الذين هم دونه فى الدأب والموهبة ٠ ولكننا على كل حال كنا نعيش فى مدار كوكبه هو طه حسين ٠

وكانت آية عظمة المازنى عندنا هى روايته النفسية الرفيعة « ابراهيم الكاتب » ولم يصرفنا عن تقديرها ما كان يلفظ به بعض الأدباء عندئذ من أنها مقتبسة من رواية روســـية معروفة • ولعل المازنى بهذه الرواية كان سباقا الى خلق النموذج الروائى الذى يسمونه الآن « ضد البطل » أو « البطل الضد » ، وقد شاع فى الرواية الحديثة •• هذا البطل العدمى الذى لا يزعم لنفســه قضية أو هدفا ، والذى يواجه الحياة بلا مبالاة •• بطل روايات كامى وديهاميل وسواهما •

اما توفيق الحكيم ، فلا أظن أن كتابا أدفأ قلوبنا ، ثم ملأها بوهج الفن مثل كتابه « عصفور من الشـــرق » • وهكذا يستطيع الكاتب الكبير والقارىء المحب أن يجد بابا يفضى الى عالم جديد من خلال كتاب ممتلىء بروح الشعر ، يكتبانه معا ، فيصنع الكاتب شعره وفنه وأفكاره ، اما القارىء فيهب ذلك كله نبض الـــروح وحمية الحياة •

وانى لأظن بهذا المعنى أن جيلنا قد أسهم مع توفيق الحكيم فى كتابه « عصفور من الشرق » ، ولعله لو كتب هذا الكتاب فى عصرنا لما مس حبات القلوب كما مسها فى زمنه ، فلقد أصبحت كلمة « الفن » كلمة دارجة وقد قادت خطى كثيرين من أهل الأدب والفن الى أوروبا ، وشغلتهم أوروبا عن أنفسهم وذواتهم حتى استطاعوا بعد جهد جهيد أن يحققوا لونا من التوازن النفسى بين الطبع والتطبع •

الرحـلة فى جوهر التراث

وها قد مرت السنوات ، وأصبح ما وراءنا من الحياة اكثر مما امامنا ، وقادنا النظر المنصــــف الى ان ندرك أن هذا الجيل العملاق قد صنع فى الأدب العربى صنيعا باذخا • ولست أشير الى

الأربعة الكبار فحسب ولكنى قد اضيف اليهم عصبة مرموقة لا اعدد أسماءها خشية أن يفلت منى اسم ، ثم اضيف الى ذلك كله أن سر عظمتهم كان هو شوقهم الى الرحلة فى جوهر التراث الأوروبى حتى اذا ادركوه عادوا منه سالمين ممتلئين بالحكمة دون أن يفقدوا مواطىء أقدامهم فى أرضنا العربية المعاصرة ٠

ولعلى لم اعرف احداً من الأربعة معرفة شبه وثيقة الا توفيق الحكيم ، فقد قضى المازنى (١٩٤٩) وانا لم اعتد غشيان مجالس الأدباء بعد ، بل لعلى كنت فى ذلك الوقت صبيا وافر الحـظ من حساسية أبناء الريف الذين يخشون أن تضيق بهم المجالس ، فلا يدخلون على أحد حائرين بين الحصر والابانة ، ويتلعثمون عند لقاء الأقطاب من اهل الفن والأدب ٠ ولعلى مازلت حتى الآن أتردد فى لقاء الغريب خوفا الا يكون قد جرى لديه ذكرى ، فأحار عندئذ كيف اقدم اليه نفسى تقديما يرضيه وقد كان ذلك شانى مع العقاد يرحمه الله ، فقد كان بعض اصحابنا فى السنين الأولى من رواد مجلسه فى ايام الجمعة ، وكانوا يدعوننا الى ذلك ، فنؤجل اللقاء ما استطعنا ، متذرعين بشتى المعاذير ، ولا نستطيع أن نبوح بما فى دخائلنا ، وهى اننا نخشى أن نكون قطعة من زوائد المشـهد فى هذه المسـرحية الأسبوعية ، التى كان العقاد العظيم ينفرد فيها بمعظم الأدوار ٠

وجرت بعد ذلك امور ، واقترن اسمى فى مصر بحركة التجديد الشعرى ، واصبحت دون أن اعد لهذا الأمر عدته خصما فكريا للعقاد العظيم ٠

بين العقـاد وبينى

كان شأن العقاد فى تصويب مسيرة الشـعر العربى شأنا لا ينكر ، فهو القائل فى اول الزمان الجديد « ان الشاعر الذى لا

نعرفه بشعره لا يستحق أن يعرف » ، وهو باعث ابن الرومى من رقدة الخلود الى ساحة الحياة والأحياء ، وهو الذى أوشك أن يزلزل معبد شوقى لولا أن قوائمه كانت من الحجر الصوان • ولكن العقاد حين تقدم به العمر ضاق بشبابه ، ومن هنا غض النظر عن كل ما حفل به الزمن الجديد من أشياء •• لعل ذلك ومضة من ومضات شخصية العقاد ، فان رواد هذا الجديد لم يكونوا من أبنائه العقليين أو الذوقيين • فقد كانت نظرة العقـــاد النقدية تنبع من النظـرية الرومانتيكية الأوروبية التى جهرت بأن الشعر تعبير عن نفس قائله ، وليس الاتجاه النفسى الذى تبناه العقاد فى نقده لأبى نواس الا صورة صارخة لهذه الرومانتيكية • أما نحن فقد كنا بالتقريب ننتمى الى مدرستين أوالى رغبة التوفيق بين مدرستين ، أولاهما الواقعية ، وثانيتهما مدرسة التحليل اللغوى • وكنت أنا ـ بالتحديد ـ أقرب الى المدرسة الأخيرة التى قد يكون النقاد العرب القدماء وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجانى العظيم أول مبدعيها • وقد يكون ريتشاردز واليوت أعظم أعـــلامها ، على الرغم من ان لاحقهم لم يعرف عن سابقهم شيئا •

وأذكر فى تلك السنوات أن دار جدل متصل على صـــفحات الصحف بين الأستاذ العقاد وبينى كنت فرحا به • فمن أنا فى آخر الأمر حتى يسألنى سائل : ما أخبار المعركة بينك وبين العقاد ؟ ولكنى ـ وهذه شهادة للتاريخ ، كنت حريصا خلال هذا الجدل كله أن أتصاغر فى خطابى للعقاد العظيم، والا فكيف أنكر أيام حياتى حين كنت أقرأه مرتعد القلب والعقل ••

كان هذا الجدل ينشر فى الصحف اليومية ، وكنت أتتبع تعليق العقاد على كتاباتى ، هذا التعليق الذى يكشفه لخلصائه دون أن يدونه فى الأوراق ، وكنت أسعد بهذا التعليق ، حتى نلت من العقاد وساما كريما •

لقد حلا لأحد العاملين بالتليفزيون أن ينظم لقاء بين العقاد وبين أحد الذين ينتمون للتيار الشعرى الجديد ، وذهب ليسأل العقاد عمن يختاره لكى ينهض بمناقشته ، فاختارنى العقاد قائلا :

أريد أن أناقش هذا الولد ، فهو قد قرأ بعض الشىء فيما يبدو ·· هو ليس جاهلا ·

ونقل الى هذا الساعى فى لقائنا الخبر ففرحت به فرحا كبيرا ، لولا أن عاجلت العقاد منيته ، وتذكرت عندئذ قول القائل مناظرك نظيرك ·· وحمدت الله ··

رحم الله العقاد العظيم ·· !

شجاعة العقل واشتعال الروح

لقد صحبت العقاد والمازنى فيما فات من السطور ، فلأصحب طه حسين والحكيم فيما بقى . وتلك قسمة الحياة كما هى قسمتى ·· فقد اصطحب العقاد والمازنى طيلة حياتهما ، واصطحب طه حسين وتوفيق الحكيم ردحا من الزمن ثم افترقا وولدت فى قلب الحكيم جفوة لطه حسين ما غابت عنى ملامحها ، منذ رأيت توفيق الحكيم لا يتحدث عن طه حسين الا بقوله : الشيخ طه ، بل لقد سمعته مرة ينسبه الى مدرسة الناشئين البلاغيين ، ويلحقه بالمنفلوطى ·

ولكنى هنا لا أريد ترديد حديث المجالس ، فما هذا من دأبى ، ولكنى أريد أن أقول ان طه حسين كان شمسا ساطعة تحب أن تدور حولها الكواكب كان كلاهما ــ العقـــاد وهو ــ فنانين كبيرين فى فطرتيهما يعرفان الناس كما يعرف الفنانون مخالطيهم من البشر ، ويخضعان ، فى ذلك لدوافع المحبة والبغضاء · ويستجيبان فى ذلك

لسمر السمار وسعاية الوشاة وهمس الآذان ، فرغم أننى فى واقع الأمر كنت تلميذا لطه حسين الا أن ما أفسد بينى وبينه هو أن أحد الوشاة حين كتبت كتابى الآنف ذكره فى أول الكلام نقل اليه اننى هاجمته فى هذا الكتاب ، ومن ذلك اليوم قلب لى طه حسين ظهر المجن ، كما كان يقال قديما ٠

ويبدو لى الآن بعد تسارع السنين أن كلا الرجلين ، كان يحس بعظمته بالغ الاحساس ، ولهما الحق ، فقد كان طه حسين حقيقا بأن يكون قارئا على المقابر وكان العقاد حقيقا بأن يكون كاتب ديوان لولا ما وهب الرجلان من شجاعة العقل واشتعال الروح ، ومن هنا كان احساسهما العظيم بعظمتهما ٠ كان طه حسين يوسع فى مجلسه للأتباع والأشياع ،ويضيق بالأنداد واشباه الأنداد ، ولعل ذلك هو سر الجفوة المبكرة بينه وبين توفيق الحكيم ، ولعلى الآن حين اذكر أننى عشت فى زمن عاش فيه طه حسين ، والتقيت به شخصا لشخص فى عام ١٩٥٠ حين درس لنا فى كلية الآداب وقرأنا عليه ابا العلاء المعرى ، حتى توفاه الله بعد بضعة وعشرين عاما ثم لم أقترب منه الالماما بينما اقترب منه المخاتلون واشباه الأدباء ٠٠ حين أذكر ذلك كله أدركه وافهمه واعذره ٠

ولو سئلت الآن : بم تدين الحساسية العربية الحديثة ، بما فيها من أدب وتذوق وذكاء روحى ، لعددت خمسا او ستا من الشخصيات ، وكان أولها هو طه حسين ٠

قطب من اهل الفن

أما الحكيم ٠٠ فلقد علمنا الأوائل أن لكل زمان قطبه ، وهو قطب أهل الفن فى زماننا ، ولاتخلص رعايتنا للفن الا اذا اهتدينا بقول القائل « ان المريد بين يدى شيخه كالميت بين يدى غاسله » ،

وانى لأنكر عليه أشياء فى فنه ، فيردنى اليه قول الصوفى القديم « ويكره للمريد مفارقة أستاذه » ٠

لقد كنا قديما نتناشد نثر توفيق الحكيم كما نتناشد الشعر ، وها نحن الآن نلقاه فنحدثه ، وهاهو ذا يحدثنا حين يلقانا ، وهاهم أولاء بعض الكتاب يقرنون بين اسمه وبعض أسمائنا ، فلنقنع بذلك من الحياة حظا ، أما ما دار بينه وبينى من حديث قليل أو كثير خلال عشرين عاما من المعرفة ، وما أحببت منه وما كرهت ، فذلك للزمان ٠

« تابـع »

على الشاطىء الغربى لأول مرة

آن الأوان أن أرسى على شط حروف لغة الفرنجة ، فنحن ننمو عقليا وذوقيا فى هذا الزمن الحديث ، وقد وقر فى أذهاننا الا خلاص لنا الا بادراك ما عليه هؤلاء القوم من علم وفن وذوق • ورغم أننى حين انتظمت طالبا فى الجامعة منذ ثلاثة وثلاثين عاما ، كنت طالب لغة العرب وآدابهم ، الا أن الأسماء التى كانت تقرع آذاننا كل صباح أو معظمها ، كانت أسماء أجانب ، وكفى بالفرع العاتى من المستشرقين دليلا على ذلك • فان قراءة طه حسين كانت تقودنا الى نالينو ، وقراءة تاريخ العقائد الاسلامية كانت تقودنا الى أجناس جولدتسهير ، والبحث عن مصادر الأدب العربى كان يقودنا الى نولدكه • وهكذا كان الحال فى مجال الدرس الأدبى ، أما فى مجال الذوق فقد كان المناخ الأدبى آنئذ عامرا بأسماء المدارس الأدبية الأوروبية المتوالية منذ نشأت الرمزية فى أواخر القرن الماضى ، ونازعتها البارناسية فى فرنسا آفاقها ، ثم خلعت السيريالية ضبابها على أرض الشعر ، وعبثت بها ما طاب لها العبث ، حتى ولدت منها سقيطتها الدادية ، ثم ولدت الواقعية الاشتراكية ، وانطلقت الوجودية بمذهبها الحديث فى النظر الى الانسان والفن •

كانت أسماء كثيرة تتردد فى أروقة كلية الآداب وقاعاتها ، وكان من سمع من الطلاب عن مذهب أو اسم علم من الأعلام يعتنقهما عند أول بادرة نقاش · فلدينا عشـــرات من الجوركيين (جمع جوركى) والسراترة (جمع سارتر) والالاتية (جمع اليوت) الى آخر هذه القائمة الطويلة من الأعلام ، وأذكر فى ذلك الوقت أن كل من كتب حرفا فىالنقد أو التذوق كان يحرص على أن يحليه باقتباس بعض خطرات هؤلاء الفرنجة ، حتى اننى أقرأ الآن كتبا لنقاد جهيرين من نقاد ذلك الزمان ، فأجدهم يقتبسون اسم هذا الكتاب أو ذاك فى نسق خاطىء وبابتسار مخل شديد الاخلال ، ولكن ماذا قد يصنع أمثالنا من المتطلعين وعينهم بصـيرة بالفن ، ويدهم قصـــيرة عن الوصول الى هذه المنابع الثرية والارتواء من مائها ،فهم يقنعون بهؤلاء الوسطاء الذين أدركوا لغة الغرب وقرأوا بها ، ثم شغلوا أنفسهم وشغلونا بهذه الترجمات والملخصات والتعليقات ·

مع الدكتور بدوى

ولا أظن أن أحدا من أبناء جيلى لم يقرأ مؤلفـــات الدكتور عبد الرحمن بدوى ومترجماته ، والدكتور بدوى رجل قوى الشخصية العقلية والذوقية بلاشك ، ولذلك فان نيتشه أو شوبنهور أو أرسطو الذين قدمهم لنا ليسوا هم ذواتهم الحقة ، بقدر ما هم صور منعكسة فى مرآة بدوى · فقد صنع بدوى بالفلسفة المعاصرة وبالفن المعاصر ما صنع ابن رشد والفارابى بأرسطو القديم ، اذ قدموه لنا فيلسوفا مشغولا بمشاكل المجتمع الاسلامى العقلية ، وكذلك فعلوا بافلاطون الحكيم وبافلاطون اللاهوتى · وكان صنيع بدوى هوأن جعل روحه القلق الشاعرى المتطلع للآفاق البعيدة يحلق فوق هؤلاء الأعلام ، ويظلهم بجناحيه الواسعين ·

ولكن فضل بدوى لا ينكر ولا يجحد ، وكيف لنا ونحن نتعثر

فى قراءة الانجليزية أن نرتاد هذه القمم الأولمبية الشامخة ، أو نتسلل الى هذه الغابات الجرمانية السوداء • فليجز الله عنا الدكتور عبد الرحمن بدوى خير الجزاء ــ وأذكر من معالم القراءات فى ذلك الزمان كتاب الدكتور لويس عوض عن الأدب الانجليزى الحديث ، الذى انتظم مجموعة من المقالات كتبها لويس فى شبابه الباكر فى مجلة «الكاتب المصرى » التى كان يرأس تحريرها طه حسين ، كما أذكر له مقدمته لترجمة « بروميثوس طليقا » للشاعر شللى ، ولقد كان الدكتور عوض فى ذلك الوقت مشغولا الى جانب الرؤية الفنية بالجانب الاجتماعى فى نتاج الأدباء الذين عنى بهم ، فاذا كان بدوى يقدم لنا هؤلاء الأعلام كأرواح قلقة ، فان لويس يقدم لنا أعلامه كعقول مدركة فاعلة •

وأذكر أيضا كتاب الدكتور محمد مندور « نماذج بشرية » الذى نثر فيه طائفة من شخصيات الأدب العالمى ، لا الأدباء بل الابطال وأشباه الأبطال الروائيين والمسرحيين ، مستطردا فى لغة عذبة الى جــــلاء واقعهم الذى خلقهم ،وآفاقهم التى خلقوا فيها ، ثم الرمز الانسانى والأخلاقى الذى حملوه للأجيال • فلقد كان مندور فى ذلك الوقت نموذجا للناقد الفنى الأخلاقى ، بينما كان لويس عوض ناقدا ذا رؤية اجتماعية ، وأظن أن المواقف قد تبدلت كثيرا عند هذين الناقدين الرائدين فيما بعد •

كان ذلك هو بعض القدر الرصين من تعريف نقاد ذلك الزمان لنا بالأدب الأوروبى ، تقدم به ثلاثة من جيل الوسط من الأكاديميين ، وذلك بعد أن ارتاد طه حسين الطريق ومهده ، أما محاولات الهواة وأشباه القــراء فطالما أســـاءت الى معرفتنا وضللتنا عن ادراك القيمة الحقيقية لما نقرأ • أذكر الآن ناقدا من ألمع نقاد ذلك الزمان ، وأقرأ ما كتبه عن « سارتر » الذى كان ولوعا بذكره ، ثم أعود الى

سارتر الذى اقتنيته أصيلا ومترجما فيما بعد فلا أكاد أجد شيئا من الصلة بين سارتر الحقيقى وسارتر المبتدع ٠

ولقد كان على محمود طه مولعا بذكر أسماء الشعراء الفرنسيين فى تخريج قصائده ومطالعها والتعريف باتجاهاتهم الأدبية، ولا أظن أن شيئا من ذلك كان مجديا بحق القارىء ، كما أولع بعض النقاد بالمقارنة بين الياس أبى شبكة وبودلير ، أو بين بعض شعراء الرومانتيكية المصرية وشعراء البحيرة الانجليز ، دون قدر واف من علم ، ولكنها البادرة النقدية غير المؤصلة أو المدروسة ٠

مع ت ٠ س ٠ اليوت

كان ذلك حالى مع أدب الفرنجة ، حتى رزقنى الله من حيث لا أحتسب بمن شق لى الطريق ، وشجعنى على الولوج متكئا على الانجليزية وبعض الفرنسية الى هذا العالم الطريف ٠

كان الشاعر الناقد ت ٠ س ٠ اليوت قد هبط الى بلادنا لأول مرة على صفحات كتاب لويس عوض عن الأدب الانجليزى الحديث ، ولكن لويس عوض حذرنا منه كأنه الحلوى السامة حين قال انه شاعر عظيم ورجعى عظيم أيضا ٠ ولقد كانت كلمة « رجعى » فى تلك الفترة أسوأ الكلمات وقعاً فى آذاننا ٠ ولكن صديقا قديما يسبقنى فى الجامعة ببضعة أعوام قال لى ذات مرة ان مجموعة من شعر اليوت ترقد فى مكتبة الجامعة التى كان يعمل بها ، ثم استعارها لى ٠ وقرأناها معا ، وقرأنا خطراته النقدية أو بعضها أيضا معا ٠

كان ذلك الصديق هو الناقد القصاص « بدر الديب » ، ولا أظن أن كثيرا من أهل زماننا يعرف أمور الفن والأدب معرفة حقة كما يعرفها بدر ، ولا أعرف أحدا تحمس لتجربتى الشعرية فى ابانها الأول

كما تحمس لها بدر · ولقد كتب بدر مقدمة ديوانى الأول « الناس فى بلادى» ·· عام ١٩٥٧ ، وفى بيته احتفلت احتفالا يتيما بهذا الديوان حين صدر · فأولم بدر وليمة دعا اليها حفنة من صحابنا ، وذكرنى بما كان يقال من أن القبيلة كانت اذ نبغ فيها شاعر أولمت الولائم ودقت الطبـــول ·· على فرض أننى كنت حقا قد نبغت أو قاربت النبوغ ·

ولكن يا للذكريات ووطأتها على النفس ، هاأنذا أثب هكذا سبع سنوات أو ثمان لأتوقف عند مساء أجده طاويا ما سبقه من أصباح وأمسيات طوال · فقبل هذهالليلة بسنوات كنت قد غمست نفسى فى لغة الفرنجة وآدابها غمسا ، لا شـــعرها فحسب ، بل رواياتها ومسرحها وبعض فلسفتها ونقدها ، كما كنت قد عودت عينى على مطالعة جمال اللوحات الفنية واستشراف موســـيقاها اللونية والتشكيلية · فأنا أحد عشاق الفن التشكيلى فى هذا الزمان المختلط الدميم واحد اللذين يعتقدون أن الحضارة العربية قد فقدت كثيرا من مقوماتها ، فقدت هذه الحاسة التشكيلية التى كانت تتجلى فى عمارة المساجد وتزيين الكتب وتجميل الخط ، وكانت آخر مذابح التشكيل هو اهمالنا المتعمد لتزيين الخطوط وتحسينها ، حتى ماتت مدرسة الخطاطين المسلمين ·

ولا أذكر صديقى بدر الديب الا وذكرت صديقى عبد الغفار مكاوى ، فقد كان عبد الغفار مكاوى ـ ومازال ـ مثقفا طلعه كما يقول القاموس فى وصـــف أمثاله أى متطلعا الى اجتياز الواقع الثقافى الى آفاق جديدة ، وهو الذى حدثنى عن مجموعات من الشعر الأوروبى فى مكتبة الجامعة كان قد سبقنى الى قراءتها ومحبتها ، وكان من أولها فيما أذكر مجموعة مترجمة الى الانجليزية من شعر الشاعر الألمانى ريتر ماريا ريلكه شـــاعر رومانتيكية أوائل القرن العشرين ·

وكما يحدث فى الحياة أن يقودك صديق ، كذلك يقودك الأدباء الذين تقرأ لهم الى أصدقائك الجدد ، ومن قراءة اليوت وشـعره ونقده ، عرفت من يحبهم من الشـعراء الميتافيزيقيين الانجـليز ، وراسهم جون دون ، وعرفت دانتى الايطالى فى كوميدياه المقدسة ، وعرفت استاذه عزرا باوند ، وأتباعه المتمردين وعلى راسهم الشاعر الانجليزى المتامرك الكبير دبليو ٠ هـ ٠ أودن ، وعن طريق آخر هو طريق الحب عرفت الشاعر الأيرلندى ييتس والشاعر الويلزى ديلان توماس ، وكلاهما قراته لى صديقة كريمة ٠ وكذلك قدمتنى صديقة كريمة الى عالم الروائى الأمريكى وليام فوكنر الذى كانت تعشقه عشقا ، حين قالت لى : انه شكسبير العصر الحديث ٠٠ نثرا ٠٠

والآن يبقى لى من ذلك الزمن المنهوم بالقراءة ظلال وظلال ٠٠ لعل اجدرها بالذكر هى الظلال التى خلقها اليوت العظيم ٠

وقد يكون أعظم ما فى اليوت كما قال سبندر هو أنه جمع بين ضدين ، أولهما الطابع الروحى السلبى لعالمنا المعاصر ، وثانيهما الطابع الروحى الايجابى للتقليد الذوقى والفنى فى العالم القديم ، فقد كان شاعرا ممسوسا بفكرة الزمن ، ولقد التقى فى شعره الماضى والحاضر فى هيئة رموز تكشف حين التأمل فيها عن قيم اجتماعية ودينية بالغة العمق ٠ وليس تفرد اليوت الا اثرا من آثار ثقافته الواسعة ، فقد درس الفلسفة والتراث الانسانى دراسة مستوعبة ، ولعل ذلك يكون حافزا لشعرائنا الطالعين لكى يدركوا أن الثقافة مقوم رئيسى من مقومات شاعر العصر ٠

وانى لأرى الآن بعد مرور الزمان أن اليوت لم يكن هروبيا ولا رجعيا ٠ فقد هاجمه كثير من ناشئة الشعراء فى عصره زاعمين انه يهرب الى العالم القديم ويتخذ منه موضوعاته ورموزه زهدا فى العالم الحديث ، ويبدو لى الآن أن هذه مقولة متعجلة ، فلم يكن

اتكاء اليوت على الماضى الا رغبة فى عرض الحاضر بفقره الروحى عليه ، لكى يكون ذلك دافعا لأبناء الحاضر أن يتجاوزوا املاقهم الروحى والفكرى ، وهو رأى اليوت ، حين انطلق من مقولة بودلير أن هذا العالم الحديث عالم خرب ومزيف ولم يقف عند ذلك الحد . بل تجاوزه مشيرا الى طريق الخلاص ·

وربماكان طريق الخلاص الذى اختاره اليوت ، وهو الدين طريقا غير مجمع عليه ، فى عصر يزدهى بالعلم والاحصاء ، ولكنه على أى حال أحد الطرق المطروحة على الوجدان المعاصر ·

لم يكن اليوت اذن مجرد متنبىء ، بل كان داعيا واقعيا ، أى متصلا بالواقع ، وكان هذا هو سر جاذبيته التى خلقت له مكانة سامقة فى عالمنا الشعرى المعاصر ·

التصـــــاف مع النفس

ولقد شغل كثير من النقاد بالمقارنة بين مسرحية اليوت الشعرية « جريمة قتل فى الكاتدرائية » وبين مسرحيتى «مأساة الحلاج » حتى غدا هذاالموضوع احد الموضوعات الرئيســـية فى الأدب المقارن فى جامعاتنا العربية ·

وقد يفزع غيرى لهذا الموضوع ، ففيه اتهام بالمحاكاة أو السرقة مما ينفى أصالة الشاعر ، ولكن رجلا مثلى قرأ نظرية انيوت فى الموروث الأدبى لابد أنه قد نقد هذه الحســـاسية المريضة · فليس التراث الا حلقات ممتدة يفيد منها لاحق من سابق ، ومتعلم من معلم ·

ولكنى ـ انصافا لنفسى ـ اقول اننى لم انسج على منوال اليوت ولم اقع تحت افراس عربته ألمطهمة · فمازال لدى تصورى الخاص

للمسرح حتى هذا الفرع الذى تنتمى اليه المسرحيتان ، وهو مسرح الاستشهاد والقداسة ، الذى تنتسب اليه أيضا مسرحيات « التعزية » الفارسية ، ومسرحية « القديسة جون » لبرناردشو ، و « رجل الله » لجان أنوى ، وغيرها ٠

ولعل أكبر أثر لاليوت فى تفكيرى هو أثره كناقد ، فهو اذا طعن بعض رصفائه فى شاعريته ، مثل روبرت جريفز الذى كتب عنه أســـوأ ما يكتب ، هو ناقد مجمع على ثقـافته ونفاذ فكره وعمق حاسته ٠ ومن المستطاع بلاشك أن يضاف اسمه الى أسماء النقاد الكبار أصحاب النظريات النقدية ، مثل أرسطو ولسنج وكولردج وريتشاردز وغيرهم ٠

ولكن هذا حديث متعجل .فلنتمهل له ولأمثاله قليلا فى اطلالة قادمة ٠

الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٩١/٨٢٦٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2825 — X

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا هو الجزء العاشر من مجموعة الأعمال الكاملة لشاعر العربية الكبير الأستاذ صلاح عبد الصبور ويتضمن الدراسات والمقالات التى نشرها عن الشعراء العرب والأجانب على مدار نحو ثلاثين عاما فى مجموعة من الدوريات المصرية والعربية ، وأعيد نشرها فى بعض كتبه مثل « أصوات العصر » و« حتى نقهر الموت » و« تبقى الكلمة » و« رحلة على الورق » ...

٥٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب